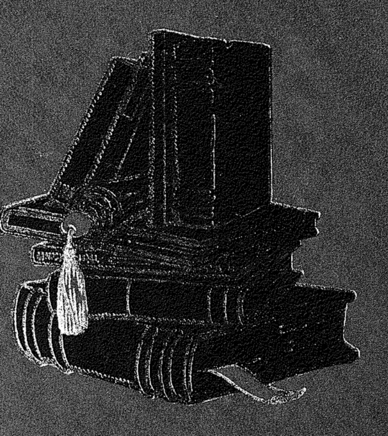
موسوعة

عالم الأديان

كل الأديان . المذاهب . الفرق . البدع في العالم



NOBILIS





موسوعة عالم الأديان

كلّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

الشيعة (٢)

مجمُوعَة مِن كبَار البَاحِثين

بإشراف

ط. ب. مفرّج

موسُوعَة

عَالَـــم الأديَـــان

كُلُّ الأديان والمَذاهِب والفرق والبدع في العَالَم

الجزء العشرُون

الشّيعَة (٢)

NOBILIS

طبعة أولى ـ ٢٠٠٤

طبعة ثانية ـ ٢٠٠٥

إسم المجموعة	:	موسوعَــــة عَالَــــــم الأديَــــــان كُلُّ الأديان والمَذاهِب والفِرَق والبَدَع في العَالَم
إسم الكتاب	:	الشّيعَة (٢)
الجزء	:	العشرُون
المؤلّف	:	مجموعَة من كبار الباحِثين بإشراف ط. ب. مفرِّج
قياس الكتاب	:	٢٠ × ٢٨
مكان النّشر	:	بيروت
دار النَّشر والتَّوزيع	:	NOBILIS
تلفاكس	:	٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١
	:	٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

المحتويات

الفَصلُ الثَّالِث

دُولُ الشِّيعَـــة

الفَصلُ الرَّابِع

الخِلافَةُ الفَاطِميَّة

الفَصلُ الخَامِس

الشّيعَةُ في لُبنَان

الفَصلُ السَّادِس

في الزَّمَن المُعَاصِر



الفَصْلُ الأوَّل

مِنَ الإمَامِ السَّابعِ إلى الإمَامِ المَهديّ

الإمَامُ السَّابعِ؛

عَلِـــي الرِّضَا؛

من محمَّـد الجـواد إلى الإمام العَسكري.



الإمَامُ السَّابِع

خلف الإمامَ السادس للشيعة أبا عبدالله جعفر الصادق المتوفّى سنة ١٤٨ هـ/ ٧٦٥م، إبنه موسى، الذي لُقِّب بـ "الكاظم"، لأنّه "كان يُحسنُ إلى مَن يسيء إليه، وكانت هذه عادته أبدًا"[١].

ولقد تعدّدت الروايات حول الملابسات التي رافقت تسنّم موسى الكاظم سدّة الإمامة، والتي تتعلّق بها مسألةُ ظهور الإسماعيليّة والسبعيّة، وما يتّصل بذلك من ملابسات. وسنحاول في ما يلي أن نستعرض أبرز ما تعدّد من تلك الروايات.

تُختصر الرواية الأولى بأنّه كان لجعفر الصادق ستّة أبناء: إسماعيل، وهو البكر، وعبد الله، ومحمّد، وموسى، وعليّ، والعبّاس[٢]. وكان الخليفة العبّاسي: أبو جعفر المنصور، الذي قيل إنّه أمر بدسّ السمِّ للإمام الراحل: جعفر الصادق، قد كتب في الحال "رسالة إلى والي المدينة، حيث توفّي الصادق، يأمره فيها أن يذهب فور استلامها إلى منزل سليل النبيّ ﷺ المتوفّى بحجّة تقديم العزاء، وأن يسأل عن نصّ وصيّة الإمام بشأن خلافته، أمّا الرجل الذي ستذكره الوصيّة، فيجب قطع رأسه

١ ـ إبن الأثير، الكامل في التاريخ، طبعة دار صادر (بيروت، ١٩٨٢) ٦: ١٦٤.

٢ ـ اليعقوبي، طبعة دار صادر (بيروت، لا.ت.) ٢: ٣٨٣.

حالاً"... بذلك اعتقد الخليفة العبّاسيّ، القلِق على خلافته من سلالة النبيّ ﷺ أحفاد فاطمة وعليّ عليه السلام، أنّه يستطيع كسر حلقة الأئمّة، وبهذا ينتهي العبّاسيّون من مشكلة السلالة المباشرة لمحمّد ﷺ، ومن الخوف من إمكان نجاحها في الوصول إلى حقوقها يومًا؛ وإذ نفّذ والي المدينة أوامر الخليفة، ذُهل تمامًا، كما سيذهل الخليفة عندما سيطّلع على مضمون الوصيّة. فلقد أوصى جعفر الصادق بالإمامة لأربعة أشخاص، هم: "الخليفة بالذات، والوالي بالذات، وابنه الأكبر إسماعيل، وابنه الأصغر موسى"...

لا شكّ في أنّ وصيّة الإمام قد جاءَت على هذا الشكل، ليحول دون تمكّن الخليفة من القضاء على الإمامة؛ ويتّضح من ذلك أنّ الإمام السادس، كان مدركًا لحقيقة نوايا العبّاسيّين. وبالفعل، فقد حالت قائمة الأسماء هذه دون تمكّن الخليفة من تحقيق مأربه القاضي بقتل خليفة الإمام السادس[1].

إلاّ أنّ إسماعيل، الإبن البكر لجعفر الصادق، كان قد قضى قبل موت أبيه بحوالى خمسة عشر عامًا. وقد أحدث هذا الأمر مسألة أساسيّة عند شيعة عليّ عليه السلام.

في الواقع، كان قد شاع في المدينة أن إسماعيل بن جعفر قد توفّي سنة ١٣٣ هـ/ ٧٥٠م[2]. بيدَ أنّ ظهور اسمه في وصيّة أبيه جعفر الذي توفّي سنة ١٤٨ هـ/ ٧٦٥م، قد خلق إشكالاً كبيرًا عند الشيعة، الذين قال بعضهم بأنّ إسماعيل لم يمت، إنّما هو حيّ غائب. وبما أنّ الصيغة الشرعيّة للشيعة تُقلّد منصب الخلافة للابن البكر، فقد تمسّك بعضهم بعد موت جعفر بهذه الصيغة، وقالوا بأنّ إسماعيل هو الإمام الشرعيّ الحقيقيّ،

---

١ ـ كونسلمان غرهارد، سطوع نجم الشيعة، الترجمة العربيّة، نشر مدبولي (القاهرة، ١٩٩٢) ص٧٢ ـ ٧٣.

٢ ـ اختلفت المراجع في تحديد سنة وفاة إسماعيل، بين قائل بأنّه توفّي سنة ١٣٣ هـ/ ٧٥٠م، وقائل بأنّ وفاته كانت سنة ١٤٥ هـ/ ٧٦٢م أو ما بينهما. إلاّ أنّ المدوّنات قد أجمعت على أنّه مات قبل موت أبيه.

الذي لم يمت مطلقًا، إنّما هو في غيبة عند الله، وهو يبقى إمامًا عبر الزمن، إلى أن يبعثه الله مرّة أخرى يوم القيامة. وقد عُرف هؤلاء بالإسماعيليّة، نسبة إلى إسماعيل، كما عُرفوا بالسبعيّة، نسبة إلى الإمام السابع. ولكنّهم اختلفوا في هويّة الإمام السابع، فصاروا فرقتَين: فرقة تقول بأنّ إسماعيل، المتوفّي قبل وفاة أبيه الإمام السادس، إنّما هو الإمام السابع، وفرقة تقول بأنّ الإمام السابع إنّما هو ابن إسماعيل، واسمه محمّد المكتوم الذي اختفى وهو بعد في الخامسة عشرة من عمره، في المدينة المنوّرة، حيث وُلد. ويبدو أنّه هرب خوفًا من غضبة الخليفة العبّاسيّ عليه، واختبأ في مكان بالقرب من الريّ في بلاد فارس، ولم يعد يعرف أحد شيئًا عنه[1]. وإنّ السّبعيّة من أصحاب هذا الرأي، يعتبرون أن محمّد المكتوم، هو الإمام الغائب.

وهكذا، فقد واجه الإبن الآخر لجعفر: موسى، الذي ورد اسمه هو الآخر في الوصيّة، مشكلة في الاعتراف بإمامته، وهو مدرك أنّ أخاه إسماعيل، قد مات في السنوات اللاّحقة لكتابة أبيه للوصيّة.

ولم تكن تلك الصعوبة الوحيدة التي واجهت موسى. فلقد كان للإمام الراحل ولدان آخران، كانا على قيد الحياة. وإذ كان موسى الإبن الأصغر لجعفر، وكان أخواه يكبرانه سنًّا، فقد استاء الأخوان من الوصيّة.

ويُروى أنّ "موسى استطاع أن يثبّت إمامته من خلال ما يشبه المعجزة، إذ وضع في فناء منزله حطبًا وأشعل النار فيه، ثمّ ولج إلى وسط النار وبقي واقفًا هناك دون أن يلحق به أدنى أذى، حتّى إنّ ملابسه لم تحترق. ثمّ طلب موسى من أخوَيه المتعجّبَين أن يدخلا إليه وهو في النار، إن كانا موقنَين أنّهما على حقّ في طلبهما منصب

---

١ - راجع: حتّي د. فيليب، التاريخ العربي، دار الثقافة (بيروت،١٩٦٩) ص ١٣٦ - ١٣٧.

الإمامة، وإذ لم يجرؤ أيّ منهما على ذلك، أصبح موسى الإمام السابع من دون منازع حيّ"[1]، وتبعه الشيعة باستثناء أولئك الذين قالوا بإمامة إسماعيل.

أمّا الرواية الثانية التي جاءَت نتيجة أبحاث دقيقة ومضنية، فتستند إلى مخطوط للهمذاني نُشر سنة ١٩٥٨ يحمل عنوان: "في نسب الخلفاء الفاطميّين" جاء فيه:

> لمّا اشتدّت المحنة وعظمت التقيّة في أيّام جعفر بن محمّد... كتم اسم الإمام من ولْده تقيّة عليه، فلم يطّلع عليه في حياة جعفر بن محمّد ولا بعد وفاته... إلاّ واثق الثقات من شيعته، وكان يقول: التقيّة ديني ودين آبائي، ومن لا تقيّة له فلا دين له... فتعلّقت كل فرقةٍ من الشيعة بواحد من أربعة من ولْد جعفر، وهم: موسى وإسماعيل ومحمّد وعبد الله. وكلّ منهم على غير عقد مؤكّد منه، وكان صاحب الحقّ عبد الله بن جعفر... فلم يكن عُلم مقامه إلاّ عند "الأبواب" والثقات تقيّةً عليه. وقد تعلّق به قوم على غير هذه الحقيقة توهّمًا منهم[2]... فلمّا أراد الأئمّة من ولْد جعفر إحياء دعوة الحقّ، خافوا من نفاق المنافقين، فتسمّوا بغير أسمائهم، فجعلوا أسماءَهم للدعوة في مقام الحجيج، وتسمّوا بمبارك وميمون وسعيد، للفأل الحسن في هذه الأسماء. وأشاروا بالإمامة إلى عبد الله، وتسمّى إسماعيل، ودعوا إلى أنّ المهدي،... اسمه محمّد بن إسماعيل، لأنّه محمّد، وهو من ولِد عبد الله الذي تسمّى بإسماعيل، وهما لا يوجدان، وأصحاب الحقّ سالمون آمنون، فكان كلّما قام منهم إمام تسمّى بمحمّد، والإشارة في الدعوة إلى محمّد بن إسماعيل، والمراد بإسماعيل عبد الله، والمراد بمحمّد كلّ من كان في عصره إلى أن يظهر صاحب الظهور وهو محمّد، فتزول التقيّة، والأمر منتظم بهذه التسمية[3]...

---

١ ـ كونسلمان، مرجع سابق، ص ٧٧.

٢ ـ قيل إنّ عبد الله لم يعش بعد أبيه أكثر من سبعين يومًا ولم يكن له ولد ذكر، وأنّ الفرقة التي قالت بإمامته تسمّى "القطحيّة". الشهرستاني، الملل والنحل (القاهرة،١٩٦٨) ١: ١٦٧؛ وراجع: بن موسى الحسن، فرق الشيعة (استانبول،١٩٣١) ص٦٥ ـ ٦٦.

٣ ـ عبد الله المهدي، في نسب الخلفاء الفاطميين، تقديم حسين فيض الله الهمذاني (القاهرة،١٩٥٨) ص ٩ ـ ١٠؛ راجع: العياش سامي، الإسماعيليّون في المرحلة القرمطيّة، دار ابن خلدون (بيروت،١٩٨١) ص٥٧ ـ ٥٨.

كان من شأن هذه الوثيقة أن تميط اللّثام عن سرّ اتّباع بعض شيعة عليّ عليه السلام، بعد موت الإمام جعفر، لابنه إسماعيل الميت، إذ أوضحت أنَّ إسماعيل الذي اتُّبع، إنّما هو عبد اللّه الذي تسمّى، سترًا، بإسماعيل. إلاّ أنَّ ما أورده الشهرستاني من أنّ عبد اللّه هذا الذي مات بعد موت أبيه بسبعين يومًا، "لم يكن له ولد ذكَر"، من شأنه أن يُعيد المسألة إلى غموضها. ذلك أنّ محمّد بن إسماعيل، الذي قال الإسماعيليّون بإمامته بعد إسماعيل، في هذه الحالة، لا يكون موجودًا. كما أنّه من غير المنطقيّ، شيعيًّا، أن يقول هؤلاء بإمامة محمّد بن إسماعيل الحقيقيّ، الابن البكر لجعفر، بعد موت عبد الله، المسمّى سترًا بإسماعيل، لأنّ الإمامة يجب أن تنتقل إلى ابن الإمام دون سواه.

أمّا رأينا في الموضوع، فهو أنّ عبد اللّه، وموسى، إنّما هما شخص واحد، وأنّ عبد اللّه هو الإبن البكر لجعفر الذي كان معروفًا بـ "أبي عبد الله".

أمام هذه المتاهات، لا بدّ من اعتبار أنّ قسمًا من الشيعة، وهم الذين عُرفوا بالإسماعيليّة أو السبعيّة، قد قالوا بإمامة إسماعيل، أمّا سائر الشيعة، وهم الذين سيُعرفون في ما بعد بالاثنَي عشريّة، فقد قالوا بإمامة موسى بن جعفر، سواء كان ذلك بعد موت جعفر مباشرة، أم بعد موت عبد اللّه المسمّى سترًا بإسماعيل. وسيكون للبحث عودة إلى موضوع الإسماعيليّة. أمّا مسار السرد هنا، فهو الاثنا عشريّة.

عندما آلت الإمامة إلى موسى الكاظم سنة ١٤٨ هـ/ ٧٦٥م، كان على سدّة الخلافة: المنصور، ثاني العبّاسيين (١٣٦ هـ/ ٧٥٤ م ـ ١٥٨ هـ/ ٧٧٥ م). وقد خلفه المهديّ (١٥٨ هـ/ ٧٧٥م ـ ١٦٩ هـ/ ٧٨٥ م). ثمّ الهادي (١٦٩ هـ/ ٧٨٥ م ـ ١٧٠ هـ/ ٧٨٦ م). وجاء بعد الهادي أخوه هارون الرّشيد.

بقي المنصور طوال عهده حذرًا من الشيعة، عمومًا، وفي آخر سنة من حياته، كان لا يزال يأمر بحبس كلّ مَن يظهر من الشيعة داعيةً أو متطرّفًا[1]. إلاّ أنَّه بعد ما حلّ في العام ١٤٥ هـ/ ٧٦٢ م بأحفاد الحسن: إبراهيم وأخيه محمّد ووالدهما عبد الله ومَن سار معهم في حركتهم الانقلابيّة، وقد تمكّن المنصور من إبادتهم والقضاء على حركتهم تمامًا[2]، قد أدّى إلى هدوء الشيعة، بجميع فرقهم، طوال بقيّة عهد المنصور. وعندما مات المنصور، كان لا يزال في سجنه بعض أحفاد الحسن، ومنهم الحسن بن إبراهيم بن عبد اللّه بن الحسن، الذي حاول الفرار بعد موت المنصور بمحاولة حفر نفق تحت السجن، غير أنّ وشاية أعلمت الخليفة المهديّ بالأمر، فأمر بنقل الحسن إلى سجن آخر، تمكّن الحسن من الفرار منه، ولكنّ المهديّ عاد واعتقله. ولمّا مثل الطالبيّ أمام الخليفة، قال له:

> يا أمير المؤمنين، إنّك قد بسطت عدلك لرعيّتك، وأنصفتهم، وأحسنت إليهم، فعظم رجاؤهم، وقد بقيتْ أشياءُ لو ذكرتُها لك تدَع النظر فيها، وأشياء خلف بابك تعمل فيها ولا تعلم بها، فإن جعلت إليّ السبيل إليك رفعتها.

وإذ وثق الخليفة بكلام الطالبيّ، استجاب لرغبته، فكان الأخير يدخل إليه كلّما أراد، "ويرفع إليه النصائح في الأمور الحسنة الجميلة، من أمر الثغور، وبناء الحصون، وتقوية الغزاة، وتزويج العزّاب، وفكاك الأسرى والمحبوسين، والقضاء على الغارمين، والصدقة على المتعفّفين". وهكذا نشأت صداقة متينة بين الخليفة والطالبيّ، وقد كتب العبّاسيّ توقيعًا "بأنّه قد اتّخذه أخًا في الله ووصله بمائة ألف"[3].

---

١ - راجع: ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ٣٥.

٢ - راجع المجلّد السابق، الشيعة ١، الفصل السادس، نكبة آل الحسن.

٣ - ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ٣٧ - ٣٨.

لكنّ هذا لم يمنع المهديّ من السير على خطى والده في الحذر من آل عليّ عليه السلام، ومن كرههم، ومن محاولة التخلّص منهم[1]، بالدسائس والاغتيال، حتّى إنّه كان يرفض أن يقال بأنّ ابن أبي طالب عليه السلام "وارث الإمامة من بعد الرسول ﷺ"[2]. ويُستدلّ من بعض المدوّنات أنّه كان يسجن الإمام موسى الكاظم لا لشيء إلاّ لأنّه كان يخشى من خروجه عليه، إلى أن قرأ يومًا، وهو يصلّي، آية تقول: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[3]، فأحضر الإمام إليه، وقال له: "يا موسى! إنّي قرأت هذه الآية فخفت أن أكون قد قطعت رحمك، فوثّق لي أنّك لن تخرج عليّ". وعندما ردّ الإمام بالإيجاب، أطلق له سبيله[4].

وبموت المهديّ مسمومًا بعد أحد عشر عامًا من الحكم، وانتقال الخلافة إلى ابنه موسى الهادي، ظهر الحسين بن عليّ بن الحسن بن عليّ بن ابي طالب عليه السلام بالمدينة.

يردّ الشيعة سبب خروج الحسين هذا، إلى "ظلم العبّاسيّين ومطاردتهم لأبناء عليّ أمير المؤمنين عليه السلام". وكان مع الحسين جماعة من أهل بيته، منهم إدريس، ويحيى، وسليمان بنو عبد الله بن الحسن. وإذ تمكّن أحفاد عليّ عليه السلام في بداية الأمر من طرد عامل العبّاسيّين من المدينة المنوّرة، بايع الناس للحسين على كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ، وأقام وأصحابه بالمدينة أيّامًا يتجهّزون، ثمّ خرجوا إلى مكّة، فقابلهم بها جيش الحاكم العبّاسيّ يوم التروية الثامن من ذي الحجّة (١٦٩ هـ/ ٧٨٥ م) فدارت الدوائر على

---

١ - إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ٧١ - ٧٢.

٢ - إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ص٨٤.

٣ - محمّد: ٢٢.

٤ - إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ٨٥.

الحسين، فقُتل وجماعة من أهل بيته وأصحابه، وجُمعت رؤوسهم، فكانت مئة ونيفًا، وأُرسلت إلى الخليفة. وكان من بين الرؤوس رأس سليمان بن عبد الله بن الحسن المثنّى، وكان مقتلهم بموضع يُقال له "فخّ" على ثلاثة أميال من مكّة. أمّا يحيى فإنّه فرّ من الوقعة إلى بلاد الديلم على شواطىء بحر قزوين، حيث دعا الناس إلى بيعته، وقد تجاوبوا، وبايعوا حفيد عليّ عليه السلام، الذي اشتدّ أمره وقويت شوكته هناك، إلى أن قتله الرّشيد في ما بعد. أمّا إدريس، بن عبد الله بن الحسن، فإنّه فرّ إلى مصر، ومنها انتقل إلى المغرب، حيث سيؤسّس دولة الأَدارسة[1].

لم تدم خلافة الهادي سوى سنة وثلاثة أشهر، وبموته سنة ١٧٠ هـ/ ٧٨٦م، آلت الخلافة العبّاسيّة إلى أخيه هارون الرّشيد، الذي كان في الثانية والعشرين من عمره.

كان أوّل ما نفّذه هارون الرّشيد ضدّ الشيعة، أنّه مكر بيحيى بن عبد الله ابن الحسن الذي كان قد قوي في بلاد الديلم، حيث "اشتدّت شوكته، وكثرت جموعه، وأتاه الناس من الأمصار". وتمكّن الرّشيد بواسطة بعض السعاة من إقناع يحيى، حفيد الحسن، بالمجيء إلى بغداد، بعد أن منحه الأمان بيمين مغلّظة منصوصة بخطّ يده، وقد اشتهد العلماء والأكابر عليها. وإذ حضر يحيى إلى بغداد، أكرمه الرشيد، وأمر له بمال كثير في العلانية، غير أنّه سرًّا، أمر بحبسه. وفي النهاية تمكّن الخليفة العبّاسيّ من الغدر بحفيد الحسن الذي مات في سجن بغداد سنة ١٧٦ هـ/ ٧٩٢م[2].

---

١ - مغنيّة الشيخ محمّد جواد، دول الشيعة في التاريخ (كربلاء،١٩٦٥) ص٨ - ١٠؛ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ٩٠ - ٩٤؛ المسعودي، مروج الذهب (القاهرة،١٩٦٤) ٣: ٣٠٨؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ج ٢ ص ٤٠٥.

٢ - مغنيّة، دول الشيعة في التاريخ، مرجع سابق، ص ٩؛ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ١٢٥؛ قابل: المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٣٥٣؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ص٤٠٨.

وبعد ثلاث سنوات، أمر الرّشيد بسجن الإمام موسى الكاظم، الذي نُقل من المدينة إلى سجن الخلافة ببغداد دون مقاومة.

وقد ذكر الذين أشرفوا على حبس الإمام الشيعيّ السابع، أنّه "كان صلّى العتمة، حمد الله ومجّده ودعاه إلى أن يزول الليل. ثمّ يقوم فيصلّي، حتّى يصلّي الصبح، ثمّ يذكر الله تعالى حتّى تطلع الشمس، ثمّ يقعد إلى ارتفاع الضحى، ثمّ يرقد، ويستيقظ قبل الزوال، ثمّ يتوضّأ ويصلّي، حتّى يصلّي العصر، ثمّ يذكر الله، حتّى يصلّي المغرب، ثمّ يصلّي ما بين المغرب والعتمة...".

وذكروا أنّه لمّا كان محبوسًا، بعث إلى الرّشيد برسالة جاء فيها:

إنّه لن ينقضي عنّي يوم من البلاء إلاّ ينقضي عنك معه يوم من الرّخاء، حتّى سينقضيا جميعًا إلى يوم ليس له انقضاء يخسر فيه المبطلون[1].

تعدّدت الروايات حول الأسباب الحقيقيّة التي كانت وراء قيام هارون الرّشيد بسجن الإمام الشيعيّ وحول ظروف هذا العمل. منها رواية تقول بأنّ "الرّشيد اعتمر في شهر رمضان من سنة ١٧٩ هـ/ ٧٩٥م، فلمّا عاد إلى المدينة، دخل إلى قبر النبيّ ﷺ يزوره، ومعه الناس، فلمّا انتهى إلى القبر وقف فقال: "السلام عليك يا رسول الله يا ابن عمّ". وقد رام الرّشيد من ذلك الافتخار بنسبه على من حوله. وهنا دنا موسى بن جعفر، وهو السليل المباشر للرسول ﷺ عبر ابنته فاطمة، وقال: "السلام عليك يا رسول الله، يا أبي الحبيب". وهنا تغيّر وجه الرّشيد وقال: ـ هذا لفخر يا أبا الحسن جدًّا ـ؛ ثمّ أخذه معه إلى العراق، وحبسه"[2].

---

١ ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ١٦٤.

٢ ـ المرجع السابق.

ويقول بعض الرواة إنّ هارون الرّشيد كان قد استغلّ رحلةَ الحجّ هذه إلى مكّة، ليختبر الإمام السابع، فكان الخليفة العبّاسيّ يريد معرفة ما إذا كان موسى ابن جعفر الكاظم يقف وراء الساخطين والمحرّضين على الثورة، خاصّة وأنّ الخليفة العبّاسيّ كان يعاني من أنّ هناك مَن يعيش في هذه المدينة المقدّسة ويستطيع الاستناد إلى صلة القربى الوطيدة مع الرسول ﷺ، وكان له مكانة مرموقة عند هيجان المشاعر في العراق، الذي يميل أكثر أهله إلى شيعة عليّ عليه السلام. وكان الرّشيد قد حقّق بعض المكانة والاحترام عند هؤلاء الشيعة، إثر ما رُوي من أنّ الخليفة، وهو في رحلة صيد، قد توقّف حصانُه فجأة عن المسير معاندًا، وإذ دُهش الخليفة وصحبه من ارتعاش الحصان الذي أبى التقدّم، تفحّصوا المكان، فوجدوا نتوءًا صغيرًا في الرمال، ليس من شأنه أن يلفت النظر، لكنّ السلوك الغريب للجواد، جعل الخليفة يأمر بنبش الرمال هناك، ولشدّ ما كانت دهشتهم كبيرة إذ وجدوا جثّة سليمة كان بجمجمتها ثقب في الجبهة، "فأدرك" الخليفة وصحبه في الحال أنّ هذه الجثّة إنّما هي لعليّ بن أبي طالب عليه السلام. وعلا الهتاف الذي بدأ من قبل حاشية هارون الرّشيد، وسرعان ما عمّ شواطىء دجلة والفرات.

بهذا، علا شأن الخليفة عند شيعة عليّ عليه السلام، الذين اعتبروا أنّ الرّشيد يتمتّع برحمة الله ورضاه، فإنّه تعالى، لا يمكن أن يكلّف ملعونًا بمثل هذا الحدث الكبير. وقد أتْبع الرشيد هذا الحدث بإقامة ضريح بسيط فوق القبر. وحول هذا القبر، الذي بقي محميًّا طويلاً ببناء لائق، سرعان ما نشأت المدينة الشيعيّة المقدّسة: النجف الأشرف، التي هي أهمّ قبلة لحجيج الشيعة بجانب كربلاء، حيث دُفن الحسين.

أمّا الخليفة، فكان على يقين من أنّ أهميّة مقبرة عليّ عليه السلام بالنسبة لمشاعر الشيعة، تفوق أهميّة منزل الإمام السابع موسى بن جعفر الكاظم، حتّى وإن كان عليّ عليه السلام ميتًا، والكاظم على قيد الحياة. فمَن كان يريد أن يحجّ إلى مكان مقدّس، لن يتّجه إلى المدينة

ليمجّد الإمام بعد اليوم، إنّما هو سيذهب إلى النجف الأشرف ليصلّي عند ضريح عليّ[1] عليه السلام.

بعد مرور أربع سنوات على سجنه، مات الإمام موسى الكاظم في بغداد سنة ١٨٣ هـ/ ٧٩٩ م، وقد اختلفت الروايات حول ظروف موته، فمنها ما ذكر بأنّه قضى في سجن الرّشيد[2]، وعندما توفّي، أحضر الخليفة القوّاد والكتّاب والهاشميّين والقضاة ومَن حضر ببغداد من الطالبيّين، ثمّ أمر بالكشف عن وجه الإمام، وقال السجّان للحاضرين: أتعرفون هذا؟ - قالوا: نعرفه حقّ معرفة، هذا موسى بن جعفر. - فقال السجّان: أترون أنّ به أثرًا وما يدلّ على اغتيال؟ - قالوا: لا! - ثمّ غُسل وكُفّن وأُخرج ودُفن في مقابر قريش في الجانب الغربيّ[3].

بيد أنّ رواية أخرى منقولة عن عبد الله بن مالك الخزاعيّ الذي كان على شرطة الرّشيد، تقول بأنّ الخليفة قد استدعى ليلاً رئيس شرطته على جناح السرعة، وعندما دخل هذا إليه، وجده جالسًا على فراشه مغمومًا. وبعد سكوت دام حوالى الساعة، كلّم الخليفة رئيس شرطته، فأخبره عن أنّه رأى في منامه حبشيًّا قد أتاه ومعه حربة، فقال له: "إن لم تُخَلِّ عن موسى بن جعفر الساعة، نحرتك بهذه الحربة". وأمر الخليفة رئيس شرطته بأن يذهب ويطلق سراح حفيد الحسين، وبأن يعطيه ثلاثين ألف درهم وأن يقول له: "إن أحببت المقام فلك عندي ما تحب، وإن أحببت المضيّ إلى المدينة فالإذن في ذلك إليك". ويروي الخزاعي أنّه ذهب إلى السجن، وأبلغ إلى موسى بما أمره

---

١ - راجع كونسلمان، مرجع سابق، ص ٨٣ - ٨٤.

٢ - ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ١٦٤.

٣ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤١٤.

الخليفة، وقال له: "لقد رأيت من أمرك عجبًا!". فكان من الإمام الشيعيّ أن أخبر الخزاعيّ بأنّه إذ "كان نائمًا، أتاه النبيّ ﷺ فقال: يا موسى، حُبست مظلومًا فقل هذه الكلمات فإنّك لا تبيت هذه الليلة في الحبس. فقال الكاظم: "بأبي وأمّي ما أقول؟" فقال: "قل يا سامع كلّ صوت، ويا سابق الفوت، ويا كاسي العظام لحمًا ومنشرها بعد الموت، أسألك بأسمائك الحسنى وبإسمك الأعظم الأكبر المخزون المكنون الذي لم يطّلع عليه أحد من المخلوقين، يا حليمًا ذا أناة لا يُقوى على أناته، يا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبدًا، ولا يُحصى عددًا، فرِّج عني". فكان ما ترى[1]. وتذكر هذه الرواية أنّ الإمام موسى الكاظم قد توفّي بعد ذلك، وتحديدًا سنة ١٨٦ هـ / ٨٠١ م في بغداد مسمومًا. غير أنّ المعتَمد في سلسلة الأئمّة أنّ الإمام الكاظم قد قبض سنة ١٨٣ هـ/ ٧٩٩م. وقد خلفه في الإمامة، ابنه البكر، عليّ الرّضا. وهو واحد من ثمانية عشر ذكرًا، لهم ثلاث وعشرون أختًا، هم مجموع أبناء موسى الكاظم، الإمام الشيعيّ السابع من أئمّة الاثنَي عشريّة، وكان له من العمر إذ ذاك ثمان وخمسون سنة. وقد أوصى موسى بن جعفر ألاّ تتزوّج بناته، فلم تتزوّج واحدة منهنّ إلاّ أمّ سلمة، فإنّها تزوّجت بمصر، وقد تزوّجها القاسم بن محمّد جعفر بن محمّد، "فجرى في هذا بينه وبين أهله شيء شديد، حتّى حلف أنّه ما كشف لها كنفًا، وأنّه ما أراد إلاّ أن يحجّ بها"[2].

---

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٣٥٩، ٣٦٥.

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤١٤ ـ ٤١٥.

علـــي

الرِّضـا

كان من الطبيعيّ أن يخلف الابن البكر لموسى، واسمه عليّ، أباه في تولّي الإمامة إثر وفاة موسى. وكان عليّ، الذي وُلد بالمدينة سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م، قد بلغ يومها (سنة ١٨٣ هـ/ ٧٩٩ م) الرابعة والثلاثين من عمره. وكان على الإمام الشيعيّ الثامن الشابّ، أن يبقى طوال السنوات العشر الأولى من عهد إمامته، وهي السنوات العشر المتبقّية من عهد هارون الرشيد، أن يبقى حذرًا، يقظًا، متخوّفًا من ملاقاة المصير الذي لقيه والده الإمام السابع على يد الخليفة العبّاسيّ الذي سطع نجمه فبزّ سطوع نجم الإمام، حتّى عند الشيعة أنفسهم[1]. وكان الرّشيد، في هذه الحقبة منشغلاً بالنزاع الذي نشب بين شرق الدولة الإسلاميّة وغربها، وبذلك الذي اشتدّ بأرض الشام بين القيسيّة واليمنيّة، الحزبَين اللذَين ظهرا بمختلف الأسماء. ففي عهد هارون الرّشيد سُفكت دماء كثيرة في دمشق وحوران والبقاع والأردن وحمص. وكان هذا القتال قد نشب واستمرّ سنتَين متواصلتَين بسبب أنّ قيسيًّا سرق بطّيخة من بستان يمنيّ[2]. حتّى إنّ الخليفة فكّر بقيادة حملة تأديبيّة عليهم، ثمّ عاد فكلّف بها قائدًا من البرامكة، تمكّن من تجريد المقاتلين بالشام من سلاحهم تمامًا[3].

كذلك كان على عهد هارون الرّشيد، في تلك الحقبة نفسها، أن يهتمّ بجماعة أخرى من أحلاف الشيعة، هم البرامكة، أبناء الأسرة الفارسيّة العريقة المتحدّرة من كاهن

---

١ ـ راجع: إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ٣٥١؛ كونسلمان، مرجع سابق، ص ٨٥؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤١٤، ٤٥٣.

٢ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ١٢٨.

٣ ـ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نشر (ليدن،١٨٧٩) ٣: ٦٣٩.

بوذيّ كبير اسمه برمك، وقد قام أفرادها بجلائل الأعمال، وبذلوا بسخاء نادر، حتّى غدت لفظة "برمكيّ" مرادفة للجود[1]. بيدَ أنّ هارون الرّشيد قد قرّر القضاء عليهم نظرًا لِما حققوه من مهابة ووجاهة، فكان أن أوقع بهم في السنة الرابعة لإمامة عليّ الرّضا (١٨٧ هـ/ ٨٠٢ م)، ومن ثمّ قضى عليهم في ما عُرف بنكبة البرامكة[2]. ولكنّ واقع الإمام الشيعيّ الثامن: عليّ الرّضا، قد تبدّل بموت هارون الرّشيد سنة ١٩٣ هـ / ٨٠٨ م، ونشوب النزاع بين أبنائه وورثته.

كان من جملة أبناء الرّشيد الذكور الإثنَي عشر، محمّد البكر، وهو الملقّب بالأمين، والثاني عبد الله، وهو الملقّب بالمأمون. وكان الرّشيد قد أوصى بالخلافة لولدَيه الأمين فالمأمون من بعده. وقد فرض على ولدَيه هذَين أن يوقّع كلّ منهما على تعهّد بأن يحترم وصيّة أبيه في هذا الشأن، وأن يخلص لأخيه كل الإخلاص. وقد تمّ ذلك سنة ١٨٦ هـ/ ٨٠١ م، في خلال حجّ الرّشيد إلى مكّة، حيث كتب الشقيقان التعهّدَين على نفسَيهما بخطّ يدَيهما، وقد شهد الشهود على الكتابَين اللذَين عُلّقا على باب الكعبة، وبعد أن قُرئا مرارًا على الناس، أودعا الكعبة[3].

إلاّ أنّ هذا لم يمنَع من اقتتال الشقيقَين بشأن الخلافة، بعد موت الرّشيد، وانقسام الأمبراطوريّة الإسلاميّة بينهما بشكل واضح الفرز. ذلك أنّ الأمين، كان من أمّ عربيّة، وهي زبيدة أمّ جعفر بنت جعفر المنصور، بينما كانت أمّ المأمون، أمّ ولْد، فارسيّة،

---

١ ـ حتّي د. فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، دار الثقافة (بيروت،١٩٥٨) ٢: ١٦٢.

٢ ـ راجع: ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ١٧٥ وما يليها؛ الطبري، مرجع سابق، ٣: ٦٧٦ ـ ٦٨٠؛ المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٣٧٧ ـ ٣٩٥.

٣ ـ نص الكتابَين وتعهّدَي الأخوَين في: اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤١٦ ـ ٤٢١.

اسمها مراجل الباذغيسيّة[1]. ومع أنّ بعض المؤرّخين يذكر أنّ أمّ المأمون الفارسيّة قد ماتت فور ولادتها للمأمون[2]. فقد تحزّب أهل فارس بأكثريّتهم لهذا الأخير ضدّ أخيه المولود من أمّ عربيّة، وكذلك فعل أهل العراق، وأكثرهم من الشيعة.

كان هارون الرّشيد قد بايع، إضافة إلى ابنَيه: الأمين، وبعده المأمون، إلى ابنه الثالث: القاسم الملقّب بالمؤتمن، بولاية العهد بعد المأمون، "فإذا أفضت الخلافة إلى المأمون، كان أمر القاسم إليه، إن شاء أن يقرّه أقرّه، وأن يخلعه خلعه"[3]. وكان القاسم، وهو الابن الثالث للرشيد، مثل المأمون، من أمّ من حريم الخليفة. وكانت بداية الفتنة بين الأمين والمأمون، عندما عمل الأمين بنصيحة بعض المقرّبين منه. فبعد أن كان قد أمر بالدّعاء لابنه موسى بالإمرة، بعد الدعاء للمأمون والمؤتمن، أمر بعد وقت قصير بإسقاط اسم القاسم: المؤتمن، وراسل المأمون عندما كان هذا الأخير واليًا على خراسان، طالبًا منه الموافقة على تقديم اسم ابنه موسى على اسمه هو! ولكنّ المأمون قد رفض هذا الأمر بعد استشارة أعوانه، فما كان من الأمين إلاّ أن نكث عهده لأبيه وللمؤمنين، وخلع المأمون من ولاية العهد، وأحلّ مكانه طفله موسى بعد أن لقّبه بـ "الناطق بالحقّ"[4]... وأرسل إلى الكعبة مَن أتاه بكتابَي التعهّد اللذَين وضعهما الرّشيد فيها ببيعة الأمين والمأمون، ومزّقهما[5].

---

١ ـ راجع: إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ٣١٦؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٣٣، ٤٤٤؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٣٩٦، ٤: ٤٤؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء (القاهرة،١٩٥٢) ص ٢٩٠، ٢٩٧، ٣٠٦.

٢ ـ السيوطي، مرجع سابق، ص٣٠٦.

٣ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٣٦٤.

٤ ـ راجع: إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ٢٢٧ ـ ٢٢٩؛ السيوطي، مرجع سابق، ص ٢٩٧ ـ ٣٠٠؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٤٠٥ ـ ٤٠٦.

٥ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ٢٣٤.

كانت ردّة فعل شيعة خراسان على عزل المأمون ابن الفارسيّة من ولاية العهد عنيفة، وكان أوّل ما فعلوه، أنّهم صاروا يسمّون المأمون إمام المؤمنين[1]. فردّ الأمين بإلغاء العملة التي كان قد ضربها المأمون بخراسان، وبإضافة اسم ابنه الثاني: عبد الله، إلى الدعاء، ولقّبه بـ "القائم بالحقّ"، وأمر بعض قوّاده بالسير إلى خراسان لمحاربة المأمون[2]. وبعد معارك عديدة بين الأمين، وعلى رأس جيوشه قادة يخاصمون الشيعة، والمأمون، وجيوشه بأكثريتها الساحقة من الشيعة، وقد دارت تلك المعارك في فارس وفي العراق، فدارت الدوائر على الأمين، ولم يكن قد مضى على خلافته سوى أربع سنوات وسبعة أشهر وواحد وعشرين يومًا، لمّا وُضع رأسه بين يدَي أخيه المأمون، الذي ردّه إلى العراق ليُدفن مع جثّته[3].

يتّضح الفارق في الانتماء السياسيّ، إذا صحّ التعبير، بين فريق الأمين وفريق المأمون، ممّا جاءَ في بعض المدوّنات، من أنّه إثر مقتل الأمين، دخل أحد خدم أمّه زبيدة إليها وقال لها: "ما يجلسك وقد قُتل أمير المؤمنين؟" ـ فقالت: "ويلك! وما أصنع؟" ـ فقال: "تخرجين فتطلبين بثأره كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان" ـ فقالت: "إخسأ لا أمّ لك، ما للنساء وطلب الثأر ومنازلة الأبطال"؟ ولمّا كتبت أمّ الأمين، زبيدة، إلى المأمون شعرًا تعاتبه على قتل أخيه، قرأ المأمون الشعر، فبكى، ثمّ قال: "اللّهم إنّي أقول كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، كرّم الله وجهه، لمّا بلغه قتلُ عثمان: ـ والله ما قتلت، ولا أمرت، ولا رضيت"[4].

---

١ ـ السيوطي، مرجع سابق، ص ٢٩٨.

٢ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ٢٣٩ ـ ٢٤٧.

٣ ـ راجع: المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٤٢٠ ـ ٤٢٤؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٤١ ـ ٤٤٢؛ السيوطي، مرجع سابق، ص ٢٩٩ وما يليها؛ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ٢٨٢ ـ ٢٨٨.

٤ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٤٢٣ ـ ٤٢٤.

قبل مقتل الأمين، كان عدد من البلـدان لا بـأس بـه قـد بـايع المـأمون، وبعـد مقتـل الأمين سـنة ١٩٨ هـ ٨١٣ م، لـم يبـقَ أحـد إلاّ أعطـى طاعتـه للمـأمون، الـذي "كـان معروفًا بالتشيُّع"[١]. وكان أهمَّ إجـراء أساسـيّ اتّخـذه الخليفـة العبّاسـيّ السـابع، أنّـه بعـد سنتَين من تولّيه الخلافة، خلع أخاه الآخر: المؤتمن، عن ولاية العهد، وجعل ولـيّ العهد مـن بعـده، الإمـام الشـيعيَّ الثـامن: علـيّ بـن موسـى الكـاظم "ولقبــه الرضــى مــن آل محمّد[٢] ﷺ"، و "بايع له ودُعي له على المنابر، وضُربت الدنانير والدراهم باسمه"[٣]، وقد جاء عليها: "المأمون أمير المؤمنين، وعليّ الرّضا إمام كلّ المؤمنين"[٤].

وتأكيدًا على الهويّة الشـيعيّة للدولـة، أمـر المـأمون النـاس بخلـع الأسـوَد، وارتـداء الأخضر، رمـز التشـيّع، وكتـب بذلـك إلـى عمّـال المنـاطق[٥]. وزاد فـي تقريـب الإمـام الشيعيّ إليه، فزوّجه ابنته[٦]، أمّ الفضل. وفي تبريره لتوليـة العهـد لعلـيّ جمـع المـأمون جميع الخواص والأولياء، وأخبرهم "أنّه نظر في ولد العبّاس، وولد عليّ، فلم يجد أحـدًا أفضل ولا أحقّ بالأمر من عليّ بن موسى الرّضا"[٧]. حتّى إنّ بعض المدوّنات، ذكر أنّ المأمون، من فرط تشيّعه، "همّ أنّ يخلع نفسه ويفوّض الأمر إلى عليّ الرّضا"[٨]...

---

١ ـ السيوطي، مرجع سابق، ص ٢٠٧؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ٥.

٢ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٣٢٦؛ قابل السيوطي، مرجع سابق، ص٢٠٧؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٤٨.

٣ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٤٨.

٤ ـ كونسلمان، مرجع سابق، ص٨٩.

٥ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ٣٢٦؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٤٨؛ السيوطي، مرجع سابق، ص٢٠٧.

٦ ـ السيوطي، مرجع سابق، ص٢٠٧؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ٢٨.

٧ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ٢٨؛ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ٣٢٦.

٨ ـ السيوطي، مرجع سابق، ص٢٠٧.

قابل بنو العبّاس إقدام الخليفة العبّاسيّ على تعيين الإمام الشيعيّ، حفيد عليّ، وليًّا للعهد، بالرفض الصارخ، بحجّة أنّهم لا يقبلون "بخروج الخلافة من ولْد العبّاس"[1]. ولم تمضِ أشهر قليلة حتّى نجح الرّافضون من بني العبّاس في إقناع البغداديّين بالتمرّد على المأمون، فأنكروا خلافته، وبايعوا إبراهيم بن المهديّ العبّاسيّ بالخلافة، ولقّبوه بالمبارك. وسرعان ما بايع بنو هاشم "المبارك" الذي استولى على الكوفة، وعسكر بالمدائن[2]. وهكذا، دبّت الاضطرابات في أكثر أنحاء الأمبراطوريّة الإسلاميّة، وكادت الحرب أن تستشري بين المأمون والشيعة والمؤيّدين من جهة، والعبّاسيّين ومؤيّديهم، وجلّهم من السنّة، من جهة ثانية، خاصّة وأنّ أهل بغداد قد أضافوا إلى لقب المبارك، الذي أعطوه للخليفة الذي بايعوه، لقب "الخليفة السنّي"[3].

وبينما الأوضاع على هذه الحال من الاضطراب، مات الإمام الشيعيّ الثامن، وليّ عهد الخلافة، الذي جاء تعيينه من قِبَل المأمون: عليّ الرّضا. وقيل إنّه مات مسمومًا بالعنب، وشاع بين الناس، خاصّة الشيعة منهم، أنّ المأمون، هو الذي أمر بدسّ السمّ للإمام، لأنّه أراد أن يتخلّص من سبب الثورة عليه. إلاّ أنّ بعض الرواة والمدوّنين يستبعد هذا الأمر[4].

---

١ ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ٣٢٦؛ السيوطي، مرجع سابق، ص٢٠٧؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٤٨؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ٢٩.

٢ ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ٣٤١؛ قابل: اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٥٠؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ٢٨.

٣ ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ٣٤٦.

٤ ـ راجع: ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ٣٥١؛ قابل: اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٥٣؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ٢٨.

كان إقدام الخليفة العبّاسيّ السابع: المأمون، على تعيين الإمام الشيعيّ الثامن: عليّ الرّضا، وليًّا لعهد الخلافة، وتحصيل المبايعة له من أمصار الأمبراطوريّة الإسلاميّة، قد جاء إثر بعض الاضطرابات التي أحدثها قادة شيعة في بداية عهد هذا الخليفة، الذي يَدين، أصلاً، للشيعة بتغلّبه على أخيه الأمين، وبتفرّده بالخلافة الإسلاميّة. ذلك أنّه كان قد خرج بالعراق أبو السرايا السريّ بن منصور الشيبانيّ، واشتدّ أمره، ومعه أحد أحفاد الحسن: محمّد بن إبراهيم، وهو المعروف بابن طباطبا؛ كما ثار بالمدينة حفيد آخر للحسن، هو ومحمّد بن سليمان؛ وفي البصرة تمرّد حفيدان آخران للحسن: عليّ بن محمّد وزيد بن موسى. وعندما مات ابن طباطبا، حلّ محلّه في قيادة ثورة العراق أحد أحفاد الحسين: محمّد بن محمّد ابن يحيى. في الوقت نفسه، ظهر في اليمن من أحفاد الحسن إبراهيم بن موسى؛ وبمكّة ونواحي الحجاز، أحد أحفاد الحسين: محمّد بن جعفر. وقبل أن يتمكّن المأمون من السيطرة على الوضع، ظهر ثائر طالبيّ آخر بالمدينة المنوّرة من أحفاد الحسين، هو الحسين بن الحسن، المعروف بالأفطس[1].

يلاحظ إذًا أنّ المأمون قد اتّخذ قراره بتعيين الإمام الشيعيّ خليفة له في ظلّ تلك الأحداث الخطيرة المتمثّلة بثورة أحفاد الحسن والحسين، في الحجاز واليمن والعراق؛ وبالفعل، فمع هذا التعيين، واستبدال الأسود بالأخضر، هدأ الشيعة، على أنّ هذه الهدأة، قابلها ظهور معاكس: ثورة عائلة الخليفة بالذات.

هذا الواقع، جعل الشيعة في ما بعد يتّهمون المأمون بقتل الإمام، بهدف التخلّص من ثورة أسرة العبّاس، مثلما تخلّص بتعيينه وليًّا للعهد، من ثورة الشيعة.

---

١ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ٢٦ - ٢٨؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٤٧ - ٤٤٨.

وبالرغم من أنّ المأمون قد راسل بعض المقرّبين منه، عند موت الإمام، يعلمهم بأنّ موت هذا الأخير "إنّما هو مصيبة حلّت به"[١]؛ ومن أنّ المأمون قد "سار في جنازة الرّضا، حاسرًا في مبطّنة بيضاء، وهو بين قائمتَي النعش يقول: "إلى مَن أروح بعدك، يا أبا الحسن"؟... وقد أقام عند قبره ثلاثة أيّام يؤتى في كلّ يوم برغيف وملح، فيأكله"[٢]؛ وبالرغم من أنّ المأمون قد "صلّى على الإمام"[٣] وهو شديد التأثّر؛ وبالرغم من أنّ الضريح الذي دُفن فيه "الرّضا" في مشهد، والذي يؤمن كثيرون من الشيعة بأنّ زيارته من أهمّ زيارات الحجّ، هذا الضريح لحفيد الرسول ﷺ، قد قام الخليفة المأمون ببنائه، فإنّ الشيعة يعتبرون المأمون، قاتلاً للإمام الثامن، ويروي الزوّار أنّه على جدار الضريح، لا تزال الصحاف التي أكل الإمام منها العنب المسموم[٤].

في الواقع، لا يستطيع أحد اليوم أن يؤكّد، أو أن ينفي، ما إذا كان المأمون قد قتل عليًّا الرّضا أم لا. إلاّ أنّ المعروف من الوقائع المدوّنة، يفيد بأنّ المأمون قد أظهر الكثير من التقرّب نحو الشيعة، من ذلك أنّه لعن معاوية، عدوّ عليّ عليه السلام، علنًا، ونادى بأن "برئت الذمّة من أحد من الناس ذكر معاوية بخير أو قدّمه على أحد من أصحاب الرسول ﷺ"[٥]؛ وبأنّ المأمون قد ردّ إلى أحفاد الحسن والحسين "فَدَكَ"[٦]" بعد حرمان آل

---

١ ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ٣٥١.

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٥٣.

٣ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٢: ٢٨.

٤ ـ كونسلمان، مرجع سابق، ص٩٣.

٥ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ٤٠؛ السيوطي، مرجع سابق، ٣٠٨.

٦ ـ **فَدَك**: واحة في الحجاز على مقربة من خيبر، كان أهلها من المزارعين اليهود، اشتهرت قديمًا بتمرها وقمحها، أرسل النبي ﷺ عليًّا عليه السلام على رأس مئة من رجاله لمحاربتهم ثمّ صالحهم على نصف أملاكهم. وكان الرسول ﷺ قد وهبها لابنته فاطمة، إلاّ أنّ أبا بكر قد حجبها عنها. وتُعدُّ هذه الحادثة من أسباب نقمة الشيعة على أبي بكر.

عليّ عليه السلام نحو مائتَي سنة من خيراتها"[1]؛ إضافة إلى ما أظهره في شأن إحلال الأخضر، رمز شيعة عليّ عليه السلام، محلّ الأسود، رمز بني العبّاس في اللباس والبيارق؛ وإلى إدلائه بالكثير من الآراء الدينيّة المتوافقة مع المبادىء الشيعيّة، غير أنّ المأمون، الذي كان عند تعيينه الإمام عليّ الرّضا وليًّا للعهد، قد برّر هذا الإجراء بأنّه "لم يجد في بني العبّاس وبني عليّ عليه السلام من هو أحقّ منه" عاد بعد موت الإمام وبرّر الأمر بأنّه "فعل ما فعل لأنّ أبا بكر لمّا وُلّي لم يولّ أحدًا من بني هاشم شيئًا، ثمّ عمر ثمّ عثمان كذلك، ثمّ وُلِّي عليّ عليه السلام، فولّى عبد الله بن عبّاس البصرة، وعبيد الله اليمن، ومعبدا مكّة، وقثما البحرين، وما ترك أحدًا منهم حتّى ولاّه شيئًا، فكانت هذه منّة في أعناقنا حتّى كافأْتُه في ولْده بما فعلت"[2].

وواقع الحال، أنّه بينما كان الأخضر يعود ليغيب في دولة بني العبّاس، حيث عاد الأسود للظهور، بناء على أمر المأمون نفسه، كان الأمل الشيعيّ، بدوره، يأفل مع الأخضر، لتحلّ مع الأسود، خيبة أخرى مريرة. ولم يستطع الإمام الثامن، عليّ الرّضا، أن يورث شيعة عليّ أكثر من اعتبار بأنّه أقدس شهدائهم، إذ كان "المطر يسقط لدعائه، بل كان في استطاعته أن يتنبّأ بسقوط مطر السحابة المعيّنة على المنطقة المعيّنة، وكان يملك القدرة على إنبات الذهب على الصخر إن هو هوى عليه بعصا، وكان يعرف مكنون السرائر، وميعاد دنوّ الأجل. وفي قلب شتاء قارس كان يجعل العشب ينمو، والعنب ينضج[3]"... ومنذ مات عليّ الرّضا. صارت "مشهد" قدس أقداس الشيعة في بلاد فارس: فهي تضمّ ضريح الإمام عليّ الرّضا. وقد تحوّل البناء

---

١ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٦٩.

٢ ـ السيوطي، مرجع سابق، ص٣٠٨.

٣ ـ كونسلمان، مرجع سابق، ص٩٣.

المتواضع منذ بعيد إلى جامع فخم ذي صحن واسع، دخوله محرّم على غير المسلمين. وفي حرم هذا الجامع يقوم قبر الإمام الثامن الذي توفّي سنة ٢٠٣ هـ/ ٨١٨ م؛ حيث يستطيع الزائر، من خلال ستار فضّيّ، أن يرى الجثمان مسجّى.

من محمَّد الجواد
إلى الإمام العَسكري

لم يكن غياب الإمام الثامن، عليّ الرّضا، سنة ٢٠٣ هـ / ٨١٨ م. مجرّد موت إمام في مسار تاريخ الشيعة، بل كان أكثر بكَثير.

فإنّ غياب عليّ الرّضا، إضافة إلى ما عناه من فقدان الأمل الشيعيّ بالخلافة، عنى أيضًا تضعضع شأن الإمامة، ولو إلى حين. وعندما يفقد الشيعة بعضًا من شأن الإمامة التي جعلوها لهم، أصلاً، بديلاً عن القيادة والمرجعيّة اللتَين فقدوهما بفقدانهم مركز الخلافة، فذلك يعني التضعضع والتيه.

والسبب في كلّ ذلك، أنّ الابن البكر للإمام الراحل: محمّدًا، كان في السابعة من عمره، عندما مات أبوه. وإذا كان التقليد يقضي بأن تؤول الإمامة إلى الابن البكر للإمام الراحل، فلم يكن بدٌّ من أن يكون ذلك الطفل بالذات، ذو السنوات السبع، هو الإمام.

وعندما كان الخليفة المأمون يراسل أقرباءَه العبّاسيّين وسواهم من الثائرين عليه في بغداد بأنّه عيّن حفيد عليّ وليًّا للعهد، وكان مضمون رسالته أنّ "عليًّا الرّضا مات، وأنّهم إنّما نقموا ببيعته، أمّا وقد مات، فلم يعد عندهم من حجّة في عدم الدخول في

طاعته"[1]، كان الشيعة ينظرون في أمر الإمامة؛ وكان الطفل محمّد آنذاك في المدينة؛ وبعد عودة الخليفة المأمون بوقت قصير إلى بغداد، واستعادته السيطرة التامّة عليها، وعودته عن تبنّي الأخضر، بالعودة إلى اللواء واللباس الأسودَين[2]، نُقل الإمام الطفل إلى بغداد. ويُروى أنَّ أوّل مواجهة بين الخليفة المأمون والإمام الطفل، قد جرت بعد وقت قصير من حمل الإمام إلى بغداد، إذ كان يلعب مع أترابه في الطريق، وكان الخليفة يمرّ مسرعًا مع حرسه، فاختفى رفاق الإمام في أركان البيوت، أمّا هو، فبقي واقفًا، فكان أن توقّف المأمون وخاطبه مندهشًا لجرأته، فجاء ردّ الإمام الطفل:

> يا أمير المؤمنين: إنّ الطريق ليست ضيّقة عليك وعلى رجالك وعليّ أنا، وأنا لم آتِ بما يغضبك ولهذا فلست أخشاك، وأنت لست من يؤذي بريئًا[3].

كان لا بدّ من أن يدع هذا الموقف الجريء من قِبَل الطفل تأثيرًا في قلب الخليفة، الذي سيحاول، مرّة أخرى، أن يفيد من العلاقة العائليّة على الأقلّ، مع أحفاد عليّ بن أبي طالب ﵇، ليُبقي على ولاء الشيعة له، وذلك بتزويج محمّد بن عليّ، من ابنته زينب[4]. وإن كانت هذه شقيقة أمّ مَن سيتزوّجها.

وفي تدبير آخر من هذا القبيل، استعمل المأمون أحد أحفاد عليّ بن أبي طالب ﵇: عبيد الله ابن الحسن بن عبيد الله، واليًا على الحرمَين[5]؛ كما أنّه أمر بلعن

---

١ ـ راجع: ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ٢٠٣؛ السيوطي، مرجع سابق، ص٢٠٧.

٢ ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ٣٥٧؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٥٣ ـ ٤٥٤؛ السيوطي، مرجع سابق، ص٢٠٧.

٣ ـ كونسلمان، مرجع سابق، ص٩٤.

٤ ـ راجع: المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ٢٨؛ كونسلمان، مرجع سابق، ص٩٥؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٥٤.

٥ ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ٣٥٨.

معاوية على المنابر[1]. وعندما جرّم قاضي المأمون ببغداد: الوليد الكنديّ، رجلاً اتُّهم بشتم أبي بكر وعمر، فحكم عليه بالضرب وبالتطواف على جمل، غضب المأمون، وأمر بسجن القاضي سجنًا مؤبّدًا[2].

كلّ هذه الإجراءات، جعلت الشيعة يرتاحون إلى خلافة المأمون، أو على الأقلّ، يستريحون في خلال عهده الذي كانت نهايته بموته سنة ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م، إذ لم تطالعنا المدوّنات بأيّ ظهور أو خروج شيعيّ يُذكر في هذه الحقبة من التاريخ. وقد تزامن موت الخليفة المأمون ونهاية خلافته، إلى حدّ ما، مع موت الإمام التاسع: محمّد بن عليّ، الملقّب بالجواد[3]، الذي توفّي في السنة التالية لموت المأمون (٢١٩ هـ/ ٨٣٤م)، دون أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره[4]. إلاّ أنّ حلم المأمون بخلق أسرة توحّد بين العبّاسيّين والطالبيّين لم يتحقّق، ذلك أنّ زينب التي زوّجها من الإمام الفتيّ محمّد الجواد، لم تنجب، وبذلك مات الإمام، ومات الخليفة، دون أن "يكون الأخير جدًّا لامرىء من سلالة رسول الله ﷺ وعليّ بن أبي طالب عليه السلام"[5]. كما تمنّى يوم زفّ ابنته للإمام.

أمّا مسألة قول المأمون ببعض آراء المعتزلة الدينيّة، خاصّة في ما يتعلّق "بخلق القرآن" فهي وإن كانت قد شغلت الخلافة في السنوات الأخيرة من عهد المأمون إلى

---

١ ـ راجع: المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ٤٠ ـ ٤١؛ السيوطي، مرجع سابق، ص٣٠٨.

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٦٨ ـ ٤٦٩.

٣ ـ الشيرازي محمّد المهدي الحسيني، هكذا الشيعة (النجف،١٣٨٣ هـ) ص٣٠٨.

٤ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ٥٢؛ دُفن محمّد الجواد مع جدّه موسى الكاظم في ما عُرف بعد ذلك باسم الكاظميّة التي أصبحت من العتبات المقدّسة عند الشيعة.

٥ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٥٤.

حدّ خطير، بالنظر للإجراءَت التي اتّخذها الخليفة ضدّ مَن لا يقول بهذا الرأي من الفقهاء والعلماء[1]، فهي لم تؤثّر في علاقة الخليفة بالشيعة.

وبانتقال الخلافة إلى العبّاسيّ الثامن، محمّد بن هارون الرّشيد: المعتصم، الذي كان أميًّا، قوّض هذا الأخير أركان الدولة العبّاسيّة بإدخال الجنود الأتراك إلى قيادتها العسكريّة، وإن كان قد تمكّن من القضاء على الزّط، الذين عاثوا فسادًا بين البصرة وبغداد، فأجلاهم إلى قيليقية، وقضى على حكم بابك في أذربيجان، وأنزل بالبيزنطيّين هزيمة نكراء واحتلّ عموريّة، وبنى سامرّاء، فقد بقي الشيعة على شيء من الهدوء، ذلك أنَّ المعتصم لم يبدّل كثيرًا في نهج السياسة الذي اتّبعه المأمون.

بينما كان المأمون على فراش الموت، وفي ختام وصيّته الشفويّة إلى وليّ العهد، أخيه، محمّد أبي إسحاق المعتصم، قال المأمون وهو يعاني سكرات الموت:

> "يا أبا إسحاق! عليك عهد الله وميثاقه، وذمّة رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، لتقومنّ بحقّ الله في عباده، ولتؤثرنّ طاعة الله على معصيته، إذ أنا نقلتها من غيرك إليك".

- قال المعتصم: "اللهمّ نعم!" فاستأنف المأمون بصعوبة:

> هؤلاء بنو عمّك من ولد أمير المؤمنين عليّ، صلوات الله عليه، فأحسن صحبتهم، وتجاوز عن مُسيئهم، واقبل من مُحسنهم، ولا تغفل صلاتهم في كلّ سنة عند محلّها، فإنّ حقوقهم تجب من وجوه شتّى[2]...

---

١ ـ راجع: اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٦٨؛ السيوطي، مرجع سابق، ص٣٠٨ ـ ٣١٢؛ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ٤٢٣.

٢ ـ ابن الأثير. الكامل، مرجع سابق، ٦: ٤٣٠ ـ ٤٣١.

غير أنّ أولّ ما لاقاه الشيعة في عهد الخليفة الجديد، أنّ زوجة الإمام، بنت المأمون، لمّا قدمت معه من المدينة إلى المعتصم، سَمّمت له[1]. ومن الصعب تبرئة الخليفة من مثل هذا العمل، وإن لم يكن هناك أيّ إثبات على تورّطه فيه. لكنّ معاملة المعتصم للشيعة وأحفاد عليّ ﷺ، منذ تولّيه الخلافة، لم تتّسم بالعداء، وإن كانت فاترة بعض الشيء.

مرّة أخرى، يتسنّم منصب الإمامة الشيعيّة طفل. فلقد كان عمْر عليّ، الابن البكر لمحمّد الجواد، خمس سنوات حين مات والده. وهكذا بدأت الإمامة العاشرة للشيعة كما بدأت التاسعة: على يد طفل. وهذا ما جعل البحّاثين يميلون إلى اعتبار أنّ الخلفاء العبّاسيّين، إنّما كانوا يرومون من خلال اغتيال الأئمّة في عهد طفولة أبنائهم الأبكار، ضعضعة الشيعة. وهذا ما حصل فعلاً في بداية عهد الخليفة العبّاسيّ الثامن: المعتصم، والإمام الشيعيّ العاشر: عليّ الهادي. بيدَ أنّ هذا الواقع، لم يكن سوى إيذان بتقهقر دولة العبّاسيّين من جهة، وبسطوع نجم الشيعة من جهة ثانية. وإنّ هذا الإمام الذي بدأ عهده طفلاً، سوف يُعايش سبعة خلفاء عبّاسيّين، هم: المعتصم، والواثق، والمتوكّل، والمنتصر، والمستعين، والمعتزّ، والمهتديّ؛ هذا الأخير، هو وحده الذي عايش إمامة عليّ الهادي، وبقي من بعده خليفة، وإن لسنة واحدة.

جلّ ما ورد في المدوّنات عن معاملة المعتصم للشيعة، أنّه عمد إلى التضييق على بعض أحفاد عليّ بن أبي طالب ﷺ، وعلى إخافتهم، ممّا جعل أحد أحفاد الحسين: محمّد بن القاسم، العابد الزاهد الورع إلى أبعد حدّ، يهرب من الكوفة إلى خراسان،

---

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ٥٢؛ وهناك رأي يقول بأنّ الإمام محمّد الجواد مات في عهد الواثق، المرجع السابق: ص ٧٧.

بسبب التهديدات التي جاءَته من المعتصم. وبالرّغم من أنّ محمّدًا قد تنقّل بين مدن فارسيّة عديدة، فقد تمكّن المعتصم من القبض عليه بواسطة عملائه، فحبسه، ثمّ قتله بالسم. وقد اتّبع محمّدًا بعض فرق الزيديّة التي اعتبرت أنّه لم يمت، وأنّه حيّ يُرزق، و"سيخرج ليملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جورًا، وأنّه مهديّ هذه الأمّة؛ وقولهم فيه كقول الكيسانيّة في محمّد ابن الحنفيّة، وقول السبعيّة (الإسماعيليّة) في إسماعيل بن جعفر"[1]. لكنّ أمر تضييق المعتصم على محمّد بن القاسم، ليس مؤكّدًا، ذلك أنّ بعض المراجع يضع مسألة هذا الطالبيّ في باب "الظهور... والدعوة إلى نفسه بالخلافة"، ويذكر أنّ المعتصم عامله بالحسنى لمّا سجنه، وأنّ أنصار الطالبيّ هرّبوه من السجن، ولم يعد يُعرف عنه شيء"[2].

بعد حكم استمرّ ثماني سنوات وثمانية أشهر[3]، مات المعتصم، وخلفه ولّي عهده، ابنه هارون، ولقَبه: الواثق.

قال الواثق بما قاله أبوه المعتصم، مقولة عمّه المأمون، في خلق القرآن، وتشدّد في ذلك. وكان يقرّب إليه أتباع المعتزلة[4].

وكان المعتصم، قبل أن يموت، قد أحضر الإمام الصغير من المدينة إلى عاصمته الجديدة: سامرّاء، بعد الانتهاء من بنائها. وعندما أرسل الخليفة قائد حرسه سنة ٨٣٦م،

---

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ٥٢ ـ ٥٣؛ قابل: اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٧١ ـ ٤٧٢.

٢ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ٤٤٢.

٣ ـ لُقّب المعتصم بالمثمّن، لأنّه: ثامن الخلفاء العبّاسيّين، والثامن من ولد العبّاس، وثامن أولاد الرّشيد، وولد سنة ٧٨ هـ، وعاش ثمانيًا وأربعين سنة، وبرجه العقرب وهو ثامن برج، وفتح ثمانية فتوح، وقتل ثمانية أعداء، وخلف ثمانية صبيان، وثمان إناث، ومات لثمان بقين من ربيع الأول، وقد ملك ثمان سنوات وثمانية أشهر وثمانية أيّام (السيوطي، مرجع سابق، ص٣٣٤.)

٤ ـ السيوطي، مرجع سابق، ص ٣٤١؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ج ٢ ص٤٨٢.

إلى المدينة المنوّرة ليحضر عليًّا الهادي، كان عمْر الصبيّ قد قارب الثماني سنوات. ويروي قائد حرس المأمون: يحيى بن حرثمة تفاصيل تلك الحادثة فيقول:

"كان علَيَّ أن أعود بعليّ بن محمّد إلى سامرّاء حتّى يبلّغ الخليفة بما يفعله بالمدينة، وعندما وصلت إلى المدينة، انفجر أهل بيته بالنحيب والعويل الذي لم أسمع بمثله من قبل، فحاولتُ أن أهدّىء من روع المنتحبين مؤكّدًا لهم بأن ليس لديّ أمر بإيذاء عليّ بن محمّد؛ وعندما بحثت في بيته لم أعثر إلاّ على مصحف وكتب دعاء. وأخذت عليًّا كما أُمرت، وقد أكبرته كثيرًا. وذات يوم بعد أن مرّ علينا أكثر من أسبوع في الطريق، وعند شروق الشمس، عجبت لارتداء عليّ عباءَته ولربطه ذيل حصانه عاليًا، بالرّغم من أنّ السماء كانت صافية والشمس مشرقة على الصحراء، ولكن لم يمضِ وقت طويل حتّى تجمّعت السحب، وهطل المطر عاصفًا، فالتفت عليّ إليّ وقال:
- أعرف أنّك تعجب لهذا، وربّما تعتقد أنّ لي علاقة بانقلاب الجوّ، ولكنّ الأمر ليس كذلك، إنّما أنا عشت في الصحراء وأعرف الريح التي تسبق المطر، فأنا قادر على شمّ المطر، وهكذا تأهّبت في الوقت المناسب لانقلاب الجوّ". ومنذ ذلك الحين، وعليّ الهادي يعيش في سامرّاء، وقد بقي هناك طوال عهد الواثق[1].

وإذ كان الإمام الشيعيّ العاشر، طوال عهد الواثق الذي لم يدم أكثر من خمس سنوات وتسعة أشهر، صبيًّا، لم يتجاوز عمره في نهاية عهد الواثق الثامنة عشرة، لم يسجّل التاريخ أيّ حدث يُذكر له طوال هذه المدّة، وقد يكون هذا ما جعل لقبه: الهادىء. ولقد سار الواثق على خطى عمّه المأمون في إرضاء أحفاد عليّ وإكرامهم، حتّى قيل إنّه "ما أحسن أحد إلى آل عليّ بن أبي طالب ﵇ ما أحسن إليهم الواثق الذي

١ - راجع: كونسلمان، مرجع سابق، ص ٩٩ - ١٠٠؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ١٧٠.

ما مات وفيهم فقير"[1]. ولم يقتصر كرم الواثق على آل أبي طالب، لكنّه، على ما يبدو، أجزل العطاء لسائر الهاشميّين؛ ولمّا توفّي الواثق، بقيت نساء أهل المدينة زمناً يخرجن كلّ ليلة إلى البقيع، فيندبنه ويبكين حزناً عليه، لِما كان يكثر من الإحسان إلى أهل المدينة[2].

بموت الواثق سنة ٢٣٢ هـ / ٨٤٧ م، وانتقال الخلافة إلى أخيه، جعفر بن المعتصم: المتوكّل على الله، الخليفة العبّاسيّ العاشر، تبدّلت الأحوال الإيجابيّة التي سادت علاقة الشيعة بالخلافة طوال ثلاثين سنة، مذ عيّن المأمون الإمام الشيعيّ الثامن: عليًّا الرّضا، وليًّا لعهد الخلافة. وقد سار خلفاء المأمون: المعتصم والواثق، على خطى المأمون في إكرام أحفاد عليّ ومداراتهم، وفي القول بأن القرآن مخلوق. غير أنّ المتوكِّل، أبدل في نهج التعاطي هذا، وعادت بعهده الاضطرابات إلى الوسط الشيعيّ من جديد.

ما إن آلت الخلافة إلى المتوكّل، حتّى أمر "بترك النظر والمباحثة في الجدال بشأن القرآن، وبترك ما كان عليه الناس في أيّام المعتصم والواثق والمأمون، وأمر الناس بالتسليم والتقليد، وأمر شيوخ المحدِّثين بإظهار السنّة والجماعة"[3].

لم يكن قد مرّ زمن طويل على تولّيه الخلافة، عندما أمر المتوكّل بانتقال الإمام الشيعيّ العاشر، عليّ الهادي، من المدينة، بعد أن كان الإمام قد انتقل إليها من سامرّاء إثر موت الواثق. أمّا سبب طلب الخليفة العبّاسيّ العاشر إلى الإمام الشيعيّ

---

١ ـ السيوطي، مرجع سابق، ص ٣٤٢؛ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ٣١.

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٨٣؛ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ٣١.

٣ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ٨٦؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٨٤؛ السيوطي، مرجع سابق، ص٣٤٦.

العاشر، الانتقال من المدينة، فهو، على ما يبدو، "شيوع كلام عن أنّ قومًا يقولون إنّه الإمام"[1].

من شأن هذا التدبير وما رافقه من تأويل أن يعني: إلغاء الإمامة الشيعيّة، أو على الأقلّ، محاولة إلغائها من قِبَل المتوكّل. وليس هذا ببعيد أبدًا، لأن المتوكّل اضطّهد، عمومًا، كلَّ من لا يتَّبع السنّة، وأنزل أشدّ الشروط العمريّة قساوة بأهل الذمّة[2]؛ وكان المتوكّل "شديد البغض لعليّ بن أبي طالب عليه السلام ولأهل بيته، وكان يقصد من يبلُغه عنه أنّه يتولّى عليًّا وأهله، بأخذ المال والدم"[3]، حتّى إنّه "كان يبغض مَن تقدّمه من الخلفاء: المأمون، والمعتصم، والواثق، في محبّة عليّ عليه السلام وأهل بيته"[4]. وقد بلغ كره المتوكّل لعليّ بن أبي طالب عليه السلام، أنّه كان من جملة ندمائه، عبادة المخنّث، الذي كان يقلّد عليًّا عليه السلام، إذ "يشدّ على بطنه، تحت ثيابه، مخدّة، ويكشف رأسه، وهو أصلع، ويرقص بين يدي المتوكّل، والمغنّون يغنّون، إشارة إلى عليّ عليه السلام: قد أقبل الأصلع البطين، خليفة المسلمين؛ والمتوكّل يشرب، ويضحك"؛ وعندما اعترض المنتصر، إبن المتوكّل، على سلوك أبيه هذا، قائلاً له: "يا أمير المؤمنين، إنّ الذي يحكيه هذا الكذّاب ويضحك منه الناس هو ابن عمّك، وشيخ أهل بيتك، وبه فخرك، فكُلْ أنت لحمه إذا شئتَ، ولا تطعم هذا الكلبَ وأمثاله منه" قال المتوكّل للمغنّين: "غنّوا جميعًا: غار الفتى لابن عمّه، رأس الفتى في حرّ أمّه"[5].

---

١ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٨٤.

٢ ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ٥٢؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٨٧.

٣ ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ٥٥؛ كونسلمان، مرجع سابق، ص١٠٢.

٤ ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ٥٦.

٥ ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ٥٥.

وتذكر المدوّنات أنّ جماعة ممَّن أشتهروا ببغض عليّ عليه السلام "كانوا ينادمون المتوكّل ويجالسونه، ويخوّفونه من العلويّين، ويشيرون عليه بإبعادهم، والإعراض عنهم، والإساءَة إليهم، ولم يبرحوا به حتّى ظهر منه ما كان، فغطّت هذه السيّئة جميع حسناته"[1].

أمر المتوكّل بهدم قبر الحسين بن عليّ عليه السلام، وما حول القبر من المنازل والدور، وبأن يُستعمل مكان القبر للزراعة، وبأن يُمنع الناس من إتيان المكان، ومَن خالف الأمر بزيارة المكان المقدّس، قُبض عليه وسُجن وعُذّب[2]. وكان المتوكّل إذا شكّ بولاءِ أحدهم للشيعة، أو بتشيّعه، امتحنه، حتّى إذا ما تأكّد له ذلك، أنزل فيه عقاب الموت؛ فعندما اتّصل بالمتوكّل النحويُّ الشهير يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السِّكّيت، سأله الخليفة: "أيّ أحبّ إليك المعتزّ والمؤيّد (وهما ولدا الخليفة) أو الحسن والحسين؟" فذكر النحويّ الحسن والحسين، بما هما أهل له، فما كان من المتوكّل إلاّ أن أمر جنده من الترك بدوس بطن النحويّ حتّى قضى نحبه[3].

ومن أخبار اضطهاد المتوكّل لأحفاد عليّ عليه السلام، أنّه اتّهم أحدهم: يحيى بن عمر حفيد الحسين، بأنّه جمع إليه الناس ببعض النواحي، فأُخذ، وحُبس، وضُرب[4].

وعندما كان يبلغ المتوكّل عن إقدام أحدهم على سبّ أبي بكر وعمر وعائشة وحفصة وعثمان، كان يأمر بإعدامه[5].

---

١ - ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ٥٦.

٢ - ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ٥٥؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ١٣٥؛ السيوطي، مرجع سابق، ص٣٤٧.

٣ - ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ٩١؛ السيوطي، مرجع سابق، ص٣٤٨.

٤ - ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ٥٣.

٥ - ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ٧٩.

سعى المتوكّل إلى النَّيل من الإمام الشيعيّ: علـيّ الهادي، بشتّى الوسائل، إلاّ أنّ حكمة الإمام الذي لم يخرج يومًا على هدوئه رغم المصاعب والتحدّيات، قد حالت دون تمكّن الخليفة منه. وبحجّة أنَّ في بيت الإمام سلاحًا، بعد أن كان المتوكّل قد أمر بانتقال الإمام من المدينة إلى سامرّاء ليبقى تحت بصره، وجّه إليه ليلاً جنودًا من المرتزقة الأتراك وغير الأتراك، ولمّا داهموه، ولم يجدوا "سوى مِدْرَعة من شَعر عليه، وكان بيته خاليًا حتّى من بساط، وأرض البيت رمل وحصى، وعلى رأس الإمام ملحفة من الصوف وهو متوجّه إلى ربّه يترنّم بآيات من القرآن الكريم في الوعد والوعيد"، لم يكن من الجنود إلاّ أن أخذوا ما على الإمام، وحملوا هذا الأخير إلى المتوكّل في جوف الليل، فمثل بين يدَيه، والمتوكّل يشرب وفي يده كأس. فلمّا رآه أعظمه وأجلسه إلى جانبه؛ وإذ لم يكن في منزله سلاح وكتب... ولا حالة يتعلّل عليه بها، ناوله الكأس الذي في يده، فقال عليّ: "يا أمير المؤمنين! ما خامر دمي ولحمي قط، فاعفني منه". ـ فعفاه، إلاّ أنّه فرض عليه أن ينشده شعرًا، ورغم ممانعته في بادىء الأمر، وإذ لم يرَ الهادي بدًّا من ذلك، أنشد الخليفة شعرًا جاءَ فيه:

أَين الوجوه التي كانت منعّمةً	من دونها تُضرب الأستار والكللُ
فأفصَح القبر عنهُم حينَ ساءَلهُم	تلكَ الوجوهُ عليهَا الدُّود يقتَتِلُ

أراد الهادي أن يذكّر الخليفة بالموت، وهو مرعب الملوك والجبابرة؛ وعندما أنشد الإمام أبياته، تيقّن الحضور أنّه سائر إلى هلاك لا محالة؛ فأشفقوا عليه، بانتظار ردّة فعل الخليفة، ولكنّ الذي حصل، هو أنّ المتوكّل قد بكى طويلاً، حتّى بلّت دموعه لحيته، وبكى معه الحاضرون، ثمّ أمر برفع الشراب، وقال للإمام:

"يا أبا الحسن، أعليك دَين؟" ـ قال: "نعم، أربعة آلاف دينار". فأمر المتوكّل بدفعها إليه وردّه إلى منزله مكرّمًا[1].

غير أنّ هذه المنّة، لم تكن هي المطلوبة من قِبَل الإمام وشيعة عليّ ﷺ، الذين وجدوا أنفسهم مرّة أخرى في مجال الاضطهاد والجور اللذَين سادا طوال عهد المتوكّل، الذي دام أقلّ من خمس عشرة سنة بقليل، والذي انتهى سنة ٢٤٧ هـ/ ٨٦١م باغتياله على أيدي قادته الأتراك وباشتراك ابنه البِكر: المنتصر، الذي سيبايَع له من بعده بالخلافة، وهو ذلك الذي كان قد لام أباه لتصرّفاته غير اللائقة مع بني أبي طالب. وكان المتوكّل، ثالث خليفة عبّاسيّ يموت في عهد إمامة عليّ الهادي.

كان عهد المنتصر قصيرًا، بحيث لم يتجاوز الأشهر الستّة. وقد تضاربت الأخبار حول ظروف موته، إنّما الثابت أنّ للجنود الأتراك الذين كانوا قد سيطروا على البلاط، ضلعًا في قتله[2].

والثابت أيضًا، أنّ المنتصر قد رفع عن العلويّين ظلم أبيه المتوكّل، فأزال عن آل أبي طالب ما كانوا فيه من الخوف والمحنة، وأنهى عهد منعهم من زيارة قبر الحسين، وردّ على آل الحسن والحسين فَدَك، وأطلق أوقاف آل أبي طالب، وترك التعرّض لشيعتهم، ودَفع الأذى عنهم[3]. حتّى إنّه قيل إنّ المنتصر كان قد خطّط لقتل أبيه المتوكّل بسبب تصرّفاته القبيحة، وكان أقبح تصرّفاته مع الشيعة وأوليائهم،

---

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ٩٥؛ كونسلمان، مرجع سابق، ص ١٠٢.

٢ ـ راجع: السيوطي، مرجع سابق، ص٣٥٧؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ١٣٢ ـ ١٣٤؛ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ١١٥ ـ ١١٦.

٣ ـ السيوطي، مرجع سابق، ص ٣٥٨؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ١٣٥؛ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ١١٦.

وقد شاور المنتصر جماعة من الفقهاء في قتل أبيه، وأعلمهم بتصرّفاته وبمذاهبه، فأشاروا بقتله[1].

بانتقال الخلافة من المنتصر، إلى ابن المعتصم، عادت الاضطرابات لتعمّ الأمبراطوريّة الإسلاميّة، وليكون للطالبيّين فيها وجود.

أمّا السّبب الأساس في تلك الاضطرابات فكان استشراء أمر الأتراك الذين باتوا يسيطرون على الخلافة تمامًا، فيقتلون الخليفة متى شاؤوا، وينصّبون مَن يناسبهم، ويملون عليه الأحكام. فبعد قتلهم المتوكّل بالاشتراك مع ابنه المنتصر، قتلوا المنتصر، وعيّنوا المستعين، دون أن يكون للأُسر العربيّة الإسلاميّة العريقة أيّ تأثير على مجرى الخلافة. وسرعان ما تنكّر الأتراك للمستعين بسبب إقدامه على قتل أو نفي بعض قادتهم، فخاف المستعين عاقبة انقلاب الأتراك عليه، وهرب من عاصمة خلافته: سامرّاء، إلى بغداد، فسارع الأتراك إلى خلعه، وتعيين ابن المتوكّل، محمّد أبي عبد الله: المعتز بالله، ذي الثمانية عشر عامًا، خليفة مكانه. وقد جهّز هذا الأخير جيشًا لمحاربة المستعين في بغداد، وبعد قتال استمرّ أشهرًا، سقط فيه عدد كبير من الضحايا، خلع المستعين نفسه، غير أنّ هذا ما لم يمنع من قتله بعد أشهر. وكانت مدّة ولاية الخليفة العبّاسيّ الثاني عشر: المستعين، حوالى أربع سنوات (٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ / ٨٦٢ ـ ٨٦٦ م).

هذه السنوات من منتصف القرن الثالث للهجرة، شهدت أكثر من ثورة طالبيّة في أكثر من مكان، إضافة إلى الاضطرابات التي عمّت غالبيّة مناطق الأمبراطوريّة الإسلاميّة، والتي معها بدأ نجم الخلافة العبّاسيّة بالأفول.

---

١ ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ١١٥.

أهمّ تلك الثورات الشيعيّة، كان ما جرى منها سنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م على يد يحيى بن عمر، حفيد عليّ عليه السلام من سلالة ابنه الحسين، وهو المكنّى بأبي الحسين.

قام أبو الحسين بثورته بالكوفة، وقد انضمّ إليه الزيديّون من الشيعة، إضافة إلى عامّة الشيعة والأعراب والناقمين على الأتراك، بيدَ أنّ هؤلاء قد تمكّنوا بعدِ قتال من قمع الثورة وقتل حفيد عليّ عليه السلام وكبار أنصاره[1].

في الوقت نفسه، ظهر بطبرستان حفيد آخر للحسين، هو الحسن بن زيد[2]، فثار على رأس أهل طبرستان على عاملها العبّاسيّ، وسرعان ما بايعه أهل الديلم وكلار وشالوس والرويان وجبال طبرستان ومنها أصمغان وقادوسيان. ثمّ دخل آمل وطرد عاملها العبّاسيّ، فكثر جمعه، وبذلك دخل سارية حيث استولى الحسن على مخلّفات العامل العبّاسيّ الذي فرّ منها مع عياله. ولمّا سيطر الحسن على طبرستان، وجّه إلى الريّ قريبه الذي يحمل اسمه أيضًا: حسن بن زيد، فملكها، واستعمل عليها رجلاً من العلويّين اسمه محمّد بن جعفر. إلاّ أنّ الريّ لم تبقَ طويلاً تحت سيطرة الحسن بن زيد، الذي تمكّن من إحكام قبضته على طبرستان. فكانت هذه الثورة الشيعيّة الوحيدة الناجحة من بين عدّة ثورات طالبيّة جرت في الحقبة نفسها.

ففي الكوفة، ظهر أحد أحفاد الحسين، واسمه الحسين بن أحمد، واستخلف بها أحد أحفاد الحسن، واسمه محمّد بن جعفر المكنّى بأبي أحمد، وبعد وقت قصير تمكّن المعتزّ من التغلّب على هذه الثورة.

---

١ - ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ١٢٦ - ١٣٠؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ١٤٧؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٩٧.

٢ - ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ١٣٠ - ١٣٤.

في الوقت نفسه، قامت ثورة علويّة في نينوى، باءَت بالفشل.

وفي قزوين، ثار حفيدٌ حسينيّ، هو الحسين بن أحمد الملقّب بالكركيّ، فسيطر عليها.

وبمكّة، ظهر إسماعيل بن يوسف، وهو من أحفاد الحسن، فنهب أموال العبّاسيّين هناك، وأخذ كسوة الكعبة، وما كان في الكعبة وخزائنها من ذهب وفضّة ومال، وأخذ من الناس نحوًا من مائتَي ألف دينار، وخرج منها بعد ما نهبها وأحرق بعضها بعد خمسين يومًا من الثورة. ومن هناك انتقل إلى جدّة، حيث قام بثورة مماثلة[1].

هذه الثورات، من شأنها أن تنبىءَ عن مدى الكبت الذي عاناه الشيعة عامّة، وآل أبي طالب خاصّة، طوال حكم العبّاسيّين، وقد تفاقم مع سيطرة الأتراك على الخلافة، فأضحى الطالبيّون والشيعة في وضع لا يُطاق.

في هذه الأثناء، بقي الإمام العاشر: عليّ الهادي، هادئًا، ولم يُعرف عنه أنّه أقدم على قيادة أو تدبير أيّ نزاع. واستمرّ حفيد الحسين على نهجه المتعاطي بأمور الدين دون سواها، في عهد خلافة المعتزّ (٢٥٢ ـ ٢٥٥ هـ / ٨٦٦ ـ ٨٦٩ م) الذي خلف المستعين بعد أن خلع هذا الأخير نفسه. والمعتزّ، وهو الخليفة العبّاسيّ الثالث عشر، وابن الخليفة العاشر: المتوكّل، يَدين بخلافته هو الآخر للقادة الأتراك الذين أوصلوه إلى سدّتها، وعندما حاول التخلّص منهم بالتجائه إلى الجند المغاربة، عزلوه وقتلوه وأحلّوا محلّه المهتدي بن الواثق، الذي سيلاقي المصير نفسه في ما بعد.

---

١ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ١٦٤ ـ ١٦٦؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ١٨٠، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٧٢، ٣٧٣ وما بعدها؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٩٧ ـ ٤٩٨.

قبل ذلك التاريخ، وفي خضمّ هذه الأحداث القلقة، مات الإمام الشيعيّ العاشر: عليّ الهادي سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨م، وهو بسامرّاء، فبعث المعتزّ بأخيه أحمد بن المتوكّل ليمثّله في الجنازة، وقد صلّى أحمد على الفقيد الكبير في الشارع المعروف بشارع أبي أحمد، ولكنّ الحشد العظيم من الناس الذين اجتمعوا بالمناسبة، وكثر بكاؤهم ونحيبهم، جعل الدولة تردّ النعش إلى دار الإمام، حيث دُفن، وعمره أربعون سنة، وله من الذكور ولدان: الحسن، وجعفر. وقيل إنّ الإمام العاشر قد مات هو الآخر، مثل أبيه، مسمومًا[1].

وبموت عليّ الهادي، تنتقل إمامة الشيعة إلى ولده البكر، الإمام الحادي عشر: الحسن العسكري.

---

١ ـ راجع: اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٥٠٣؛ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ١٨٩؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ١٦٩ ـ ١٧٠.

الفَصلُ الثَّانِي

المَهدِيّ المُنتَظَر

الإمَامُ العَسْكَريّ؛ توقُّعُ المَهدِيّ؛

الإمَام المَهـديّ والغَيبَةُ، والرَّجعَة؛

وفَـــاة الإمام العَسكَريّ؛ غَيبَـــةُ المَهـدِيّ؛

المَرجعيَّة الشيعيَّة في زمَنِ الغَيبَة.



الإِمَامُ العَسْكَرِيّ

عند وفاة الإمام العاشر: عليّ الهادي، سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م. كان له ولدان هما: الحسن، وجعفر[١]. وكان من الطبيعيّ أن تؤول الإمامة، بعد وفاته، إلى ابنه البكر: الحسن.

كان عمْر الحسن يومذاك ثلاثًا وعشرين سنة. فهو قد وُلد بالمدينة سنة ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م، وجاء سامرّاء مع أبيه حين استدعاه المتوكّل، وسكن وإيّاه في محلّة تُعرف بالعسكر، لذلك لُقّب بالعسكريّ.

بدأ الإمام الشيعيّ الحادي عشر إمامته في وقت كانت الدولة الإسلاميّة بحالة غير مستقرّة. فالمرتزقة، من الأتراك وسواهم، الذين استقدمهم العبّاسيّون في الأساس، ليشكّلوا حرس الخلافة، "كانوا قد غدوا أشدّ نفوذًا من الخليفة نفسه، واستطاعوا، بين الحين والحين، أن يحملوا الخليفة صاغرًا على ما يشاؤون"[٢]. حتّى إنّ عددًا من الخلفاء العبّاسيّين قد اضطر إلى الهرب منهم، ونادرًا ما تمكّن هؤلاء الخلفاء من النجاة من بطش الأتراك الذين أصبحوا قادرين على اغتيال الخليفة الذي لا يعمل بإرادتهم وعلى

---

١ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٥٠٣.

٢ - حتّي، تاريخ سوريّة ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ١٨٥.

أن يستبدلوا به مَن يلائم هواهم من بني العبّاس. ولم يعد هؤلاء الأتراك يخشون سوى نفوذ أبناء سلالة الرسول ﷺ، أي، أحفاد عليّ عليه السلام وفاطمة، وبخاصّة أولئك الأئمّة منهم، فلم يبقَ سوى هؤلاء ممّن بوسعه أن يشكّل خطرًا على سلطتهم، وهم المرتزقة الذين لا يستندون في سلطتهم إلى أيّة شرعيّة دينيّة[١].

توقُّـــعُ المَهدِيّ

في الوقت نفسه، شاع بين الناس ما زاد في قلق العسكر التركيّ: "سيكون للإمام الحادي عشر ابن، هو المهديّ، الذي سيقود البشريّة عبر الطريق الصحيح نحو رحمة الله وجنّته"[٢]. وذلك استنادًا إلى أحاديث منسوبةٍ إلى الرسول ﷺ، منها ما رواه الترمذيّ[٣]، وأبو داود[٤]، من رواية أمّ مسلمة: "لا تذهب الدنيا حتّى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي"؛ ومنها الحديث الذي رواه ابن مسعود[٥]: "لو لم يبقَ

١ ـ راجع: كونسلمان، مرجع سابق، ص١٠٣ ـ ١٠٤.

٢ ـ المرجع السابق.

٣ ـ **الترمذيّ محمّد بن عيسى** (٢٠٩ ـ ٢٧٩ هـ / ٨٢٤ ـ ٨٩٢ م): إمام ومحدّث، كانت له رحلات واسعة في خراسان والعراق والحجاز في طلب الحديث، وله في ذلك كتاب "الجامع الصحيح" أو "السنن"، يمتاز بملاحظاته النقديّة على رجال الإسناد وتبيينه مواضع الخلاف بين المذاهب، من كتبه: "العلل"، "الشمائل النبويّة".

٤ ـ **أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني** (ت ٢٧٥ هـ / ٨٨٩ م): إمام أهل الحديث في زمانه، أصله من سجستان، استقرّ في البصرة وتوفّي فيها، رحل وجمّع وصنّف وخرّج، أخذ عن الإمام ابن حنبل وسمع الكثير عن مشايخ الشام ومصر والجزيرة وخراسان والعراق، له كتاب "السنن" معدود من الكتب الستّة، جمع فيه ٤٨٠٠ حديث في الشؤون الفقهيّة.

٥ ـ **ابن مسعود عبد الله** (ت ٣٢ هـ / ٦٥٢ م) صحابي هُذَلي، خدم النبيّ ﷺ مدّة حياته، سادس مَن أسلم، أوّل مَن جهر بالقرآن في مكّة، هاجر إلى الحبشة، أحد المبشّرين بالجنّة، ممّن أتقنوا تلاوة القرآن. روى عن النبيّ ﷺ.

من الدنيا إلاّ يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتّى يخرج فيه رجل منّي أو من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما مُلئت جورًا وظلمًا"؛ وفي سنن أبي داود: "ولو لم يبقَ من الدهر إلاّ يوم لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملأها عدلاً كما ملئت جورًا"؛ ومنها أيضًا أنَّ الرّسول ﷺ "نظر إلى الحسن[1] وقال: إنّ ابني سيّد سيخرج من صلبه رجل يسمّى باسم نبيّكم يشبهه في طقسه ولا يشبهه في الخلق يملأ الأرض عدلاً "؛ وفي سنن الترمذيّ وأبي داود: "المهديّ من عترتي من ولْد فاطمة"؛ وزاد أبو داود: "يملك الأرض سبع سنين"[2].

وقد حدث في تلك الأثناء ما جعل الناس يتوقّعون أن يكون المهديّ، ابن الإمام الحسن العسكريّ بالذات، ذلك أنّهم كانوا يتناقلون كلامًا منسوبًا إلى الإمام الثامن: عليّ الرّضا، قال فيه "بعدي سيكون ابني محمّد بن عليّ النقيّ[3]، إمام المؤمنين، ويلي عليّ بن محمّد حسن بن عليّ، ويكون ابنه هو المهديّ المنتظر"[4].

لقد كانت فكرة المهديّ، إضافة إلى ما تمثّله من اعتبارات دينيّة، ذلك القبس الذي من شأنه أن يعِد الناس بالتحرّر من ظلم ذلك الواقع القاسي الناتج من قساوة الخلفاء، ومن ثمّ من ظلم عسكرهم وقد أصبحوا الحاكمين استبدادًا بأمرهم. ذلك أنّ الأمل بظهور المهديّ، كان أملاً بتحقيق العدالة وإزالة الجور، فالمهديّ هنا، هو الأمل المنقذ

---

١ - ... إلاّ أنّ الحسن العسكري وولده محمّدًا المهديّ هما من سلالة الحسين وليس الحسن.

٢ - راجع: طعيمة د. صابر، الشيعة معتقدًا ومذهبًا، المكتبة الثقافيّة (بيروت،١٩٨٨) ص ٥٨ - ٦١؛ وابن موسى الحسن، فرق الشيعة (استنبول،١٩٣١) ص١٩ - ٢٠.

٣ - كان للإمام العاشر لقبان، الأوّل: عليّ الهادي، والثاني: عليّ النقيّ، أي أنّ عليًا النقيّ هو نفسه عليّ الهادي.

٤ - راجع: كونسلمان، مرجع سابق، ص ١٠٥ - ١٠٦.

المرسل من العالم المقدّس[1].

أمام هذا الواقع، كان على القوّاد الأتراك أن يراقبوا الإمام الحادي عشر بيقظة وحذر، خاصّة لجهة الحمْل، فإن مجرّد حمْل امرأة من الإمام الحادي عشر، كان يعني خطر مجيء المهديّ المنتظر، مع كلّ ما كان يشكّله ذلك عليهم وعلى سلطانهم من خطر.

هنا، تورد الروايات أنّ الإمام العاشر، عليّ الهادي، كان قد زوّج ابنه الحسن، سرًّا، أميرة بيزنطيّة، تعدّدت القصص المتواترة حول ظروف وصولها إلى بيت سليل الرسول ﷺ. ويمكن اختصار جوهر مضمونها على الشكل التالي:

كان للإمام العاشر، عليّ الهاديّ، صديق اسمه بشر بن سليمان، كلّفه الإمام ذات يوم بشراء جارية لابنه الحسن، فأعطاه كتابًا "بلغة النصارى" وصرّة فيها ٢٢٠ دينارًا، وطلب إليه أن يقصد ميناء دجلة ببغداد، وأن يقف هناك حيث ترسو سفن الشام، وعندما يرى السفينة التي يملكها عمرو بن يزيد، سيجد عليها فتاة تغطّي جسدها بقطعتَين من الحرير، وهي تتكلّم بلغة النصارى، صائحة لاعنة كلّ مَن يحاول لمسها...

وقال الإمام لرسوله: "إذا ما تعرّفت على هذه الجارية، أعطها الكتاب ودعها تقرأه".

ويروي صديق الإمام الذي نفّذ المهمّة ما حدث في ميناء بغداد فيقول إنّه عندما تعرّف على الفتاة، وأعطاها الخطاب، قرأته في الحال. وكانت وهي تطالعه تجهش

---

١ ـ راجع: العيّاش سامي، الإسماعيليّون في المرحلة القرمطيّة، دار ابن خلدون (بيروت،١٩٨١) ص٤٠ ـ ٤٢.

بالبكاء. ثمّ قالت للنخّاس: "بعني لهذا الرجل وإلاّ قتلت نفسي". وتمّ الاتّفاق على أن يدفع رسول الإمام مبلغ ٢٢٠ دينارًا ثمن الجارية. ورافقت هذه الرجل برضى تام، لا بل بسعادة، وهي تقبّل كتاب الإمام وتضعه على صدرها. وأثناء الرحلة الطويلة من بغداد إلى سامرّاء، روت الجارية حكايتها الغريبة لصديق الإمام، فقالت إنّها أميرة من بنات قيصر بيزنطيا، وأمّها تنتسب إلى سيمون (سمعان)، أحد حواري عيسى؛ وقد أراد جدّها القيصر أن يزوّجها لابن أخيه، فتمّت جميع التحضيرات التي تليق بأعراس أبناء القياصرة، وكانت الفتاة قد بلغت عامها الثالث عشر.

في موعد العرس، حضر إلى البلاط سبعمائة نبيل من الأمبراطوريّة، وأربعة آلاف فارس، ورجال البلاط. وكان القيصر يجلس على عرش مزيّن يتقدّمه أربعون درجة، وقد رُصّع بالماس. وبجوار القيصر، جلس ابن أخيه العريس، وكانت تماثيل القديّسين موضوعة بقرب جدران القاعة.

وبخلال الاحتفال، وقف القيصر وأمر بفتح الإنجيل، وما أن تمّ ذلك حتّى ارتفع مقعد العريس عن الأرض، فوقع الرجل أرضًا، وكذلك سقط عدد من التماثيل وتحطّم، فعمّ الفزع المكان؛ وقد تطيّر الحاضرون من هذه الظاهرة. إلاّ أنّ القيصر أصرّ على إتمام الزواج، فأُعيد ترتيب المكان، وأُعيد الاحتفال من بدايته، وعند الوصول إلى فتح الإنجيل، حلّ الفزع بالقوم مرّة أخرى إذ سقط مقعد العريس وتحطّمت التماثيل بوقوعها أرضًا، وعجز العريس عن الجلوس مجدّدًا على مقعده؛ وهنا ركب الخوف النبلاء والفرسان وأهل البلاط، وسادهم ما يشبه الجنون، حتّى فرّوا من المكان، أمّا القيصر فقصد مخدعه وهو كسيف الخاطر.

وروت الأميرة ـ الجارية أنّها في تلك الليلة، رأت في حلمها عيسى عليه السلام وجميع حواريه، يقفون في المكان الذي حصلت فيه أحداث العرس، وظهر محمّد ﷺ أمام

عيسى عليه السلام، وجاء بعده عليّ عليه السلام، وبعد عليّ عليه السلام جاءَ أحفاده الأئمة يحفّهم النور، فعانق عيسى عليه السلام محمّدًا صلى الله عليه وآله الذي قال له: "يا روح الله، لقد أتيتُ في طلب حفيدة حواريك سيمون (سمعان) لحفيدي حسن بن عليّ الإمام الحادي عشر"؛ فنظر عيسى عليه السلام إلى سيمون (سمعان) وقال: "النبل والمجد حلاّ هنا ليوحّدوا بين نسبك الشريف والنسب الشريف لمحمّد". فوافق سيمون (سمعان) على زواج الأميرة البيزنطيّة من حسن بن عليّ، ثم صعد الجميع إلى منصّة صُنعت من نور.

وروت الأميرة - الجارية أنّها بعد ذلك الحلم، لم تجد الشجاعة لترويه لأيّ كان. وقد انقطعت عن الطعام، وعن الخمر، ولم يمضِ وقت طويل، حتّى أصابها الهزال، وسرعان ما مرضت ووهنت، ولم تستعِد بعض عافيتها إلاّ بعد انتزاعها من القيصر قرارًا بإطلاق سراح المسلمين الأسرى لدى الأمبراطوريّة البيزنطيّة؛ وروت الأميرة البيزنطيّة التي صارت جارية أنّها استعادت بعد ذلك قوّتها تمامًا، إذ ظهرت عليها في الحلم فاطمة ابنة الرسول صلى الله عليه وآله، ومعها مريم العذراء (عليها السلام)، وقد ألحّتا عليها بالدخول في دين الإسلام وبأن تشهد: أن لا إله إلاّ الله وأن محمّدًا رسول الله وعليًّا وليّ الله... فلم تتردّد لحظة واحدة، وشهدت هذه الشهادة التي، كما قالت، تلتها عليها فاطمة ومريم. وكما قالت، صار وجود الحسن بن عليّ، بعد هذا الحلم، يملأ لياليها، وشعرت بقربه، فكان ابن الإمام يرقد بجوارها بجسده وروحه. وقد حقّق الحسن، ابن الإمام العاشر، أمنية أبيه بالزواج بها. وقبل نهاية الرحلة من بغداد إلى سامرّاء كان بشّار بن سليمان قد عرف خاتمة حكاية الجارية التي اشتراها بتكليف من الإمام العاشر، وقالت الجارية: "... وإذ أضحيت زوجة لابن الإمام، لم أستطع البقاء في بيزنطيا، فأردت الرحيل إلى بلاد زوجي، لذلك ارتديت ملابس الرجال، وانضممتُ إلى فرقة من الجنود كانت ذاهبة إلى بلاد المسلمين، غير أنّي وقعت في الأسر بخلال

هجوم شنّه الفرسان المسلمون، وعندما رفضت أن أتجرّد من ملابسي مثلما تجرّد سائر الأسرى، اكتُشف أمري، وإذ عرف المسلمون الذين أسروني بأني امرأة، عاملوني باحترام، ولكنّهم جعلوني جارية".

وتقول الحكاية إنّ الإمام العاشر كان راضيًا تمامًا عن رسوله بشّار بن سليمان. وفي أوّل لقاء للإمام بمنزله في سامرّاء مع الفتاة البيزنطيّة، أعجب بها، وسألها: "أتفضّلين ألف دينار أم بشرى طيّبة"؟ فاختارت الأميرة البيزنطيّة البشرى، فقال لها الإمام العاشر: "كزوجة لابني، ستلدين ابنًا، من خلاله يسود العدل الأرض، وسيُصطفى ابنك ليكون مخلّص الدنيا"[1].

مع شيوع هذه الروايات في سامرّاء، أصبح الإمام الحادي عشر مراقَبًا بشكل دقيق من قِبَل العسكر، حتّى إنّه لم يعد بوسعه أن يقرُب نساءَه دون مراقبتهم. وقد غاب عن هؤلاء أنّ البيزنطيّة كانت قد حملت من الحسن العسكريّ، وأنّ المهديّ لا بدّ مولود منها.

الإمَام المَهديّ
والغَيبَةُ، والرَّجعَة

يقول الشيعة بأنّ هذه المرأة البيزنطيّة قد ولَدت في سامرّاء قبل وفاة الحسن العسكريّ بأربع أو خمس سنوات. وتُروى أخبار كثيرة عن هذا الطفل، فيذكرون أنّه تكلّم عند ولادته، فشهد الشهادتَين وصلّى على الأئمّة، ثمّ هبطت طيور من السماء

---

١ ـ راجع: كونسلمان، مرجع سابق، ص ١٠٦ ـ ١٠٩.

وخفقت بأجنحتها عند رأسه، فنادى الإمام العسكريّ واحدًا منها، فدفع إليه المولود وقال: "خذوه فأرضعوه وردّوه إلينا كلّ أربعين يومًا"؛ فأخذه الطائر وصعد به السماء، ثمّ أمر الإمام باقي الطيور بمثل ذلك، فطاروا وراءَه، ثمّ قال: "استودعتُك الذي استودَعَت أمّ موسى"[1].

كان الشاهد على كلّ ما جرى من قِبَل هذا الطفل، عمّته حليمة، التي روت أيضًا أنّه وُلد مختومًا، ولم يُربط بأمّه بحبل سُرّي، وعلى الذراع اليمنى للمولود قرأت هذه الكلمات:

ظهر الحقّ على الأرض وزُهق الباطل ولم يعد له مكان على الأرض.

وقد سجّلت الروايات تعجُّب العمّة حليمة من أمر الطفل، فكانت تراه كلّ أربعين يومًا، فتعجب كلّ مرّة من نموّه ونضجه السريعَين، وإذ سألت أخاها الإمام عن سرّ ذلك النموّ السريع، أجابها "بأنّ الطفل من الأئمّة، كلّما أتى عليه شهر كان كمن أتت عليه سنة؛ وأنّه يتكلّم في بطن أمّه، ويقرأ القرآن، ويعبد ربّه عزّ وجلّ، وتعلّمه الملائكة وتنزل عليه صباح مساء". ولمّا سألت حليمة أخاها عن الطائر الذي أخذه قال: "إنّه روح القدس، يهدي الأئمّة ليؤدّوا رسالته عزّ وجلّ، وبعضهم يؤتيهم العلم"[2].

وتقول الروايات الشيعيّة إنّه عندما كان الإمام العسكريّ سنة ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م، في حال النزاع[3]، وكان المهديّ، الذي أطلق عليه والده اسم محمّد، في الرابعة من

---

١ ـ راجع: طعيمة، مرجع سابق، ص٥٨.

٢ ـ طعيمة، مرجع سابق، ص ٥٨ ـ ٥٩؛ كونسلمان، مرجع سابق، ص ١١٢ ـ ١١٣.

٣ ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ٢٧٤؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ١٩٩.

عمره، وإذ كان العسكريّ يجتهد لشرب الدواء، ويده ترتعش بصورة جعلت القدح يصطكّ بأسنانه، وضع الإمام الدواء جانبًا، وطلب من خادمه أن يذهب ويحضر له الطفل الذي يدعو، فدخل الخادم الغرفة التي أشار عليه الإمام بدخولها، ورأى الطفل يصيح بالدعاء، رافعًا سبابته إلى السماء. وعندما انتهى الطفل من دعائه، ابتسم، وظهرت أسنانه.

وأمام الإمام المحتضر، وقف الطفل ليسمع كلمات أبيه:

سيكون لك البيت والله قريبًا. وقريبًا سأكون بين يدي الله. أعطني أنت الدواء لأشربه.

وهنا توقّف الإمام عن الارتعاش. ثمّ قال للطفل:

جهّزني للصلاة.

سرعان ما أخذ الصبيّ منشفة الإمام وقام بالوضوء، ومسح رأس أبيه وقدمَيه بالطيب. بعد ذلك، قال الإمام المتأهّب لمغادرة الدنيا:

يا بنيّ، أنت سيّد كلّ زمان، أنت المهديّ الهادي، أنت على الأرض دليل وجود الله. أنت آخر الأئمّة، طاهرًا تشملك كل الفضائل، وقد بشّر رسول الله ﷺ بمجيئك وتنبّأ باسمك. وهذا العِلم أخذته عن آبائي وستأخذه أنت عنّي.[1]

---

١ ـ كونسلمان، مرجع سابق، ص ١١٣ ـ ١١٤.

وفَاة الإمام العَسكَريّ

بعد هذه الكلمات، مات الإمام الحادي عشر. وقد تُوزع في سبب موته، بين قائل بأنّه جاءَ إثر مرض طبيعيّ، وقائل بأنّه نتيجة سمّ دُسَّ له بإرادة الخليفة العبّاسيّ المعتمد[1].

بموت الإمام العسكريّ، أصبح ابنه محمّد المهديّ الإمام الثاني عشر عند غالبيّة الشيعة، وهم الذين عُرفوا بالاثنَي عشريّة، أو بالقطْعيّة، بينما تنازع الباقون من الشيعة في "المنظر من آل النبيّ ﷺ بعد وفاة الإمام العسكريّ، فافترقوا إلى عشرين فرقة"[2].

فعندما توفّي الإمام الحادي عشر، حاول أن يصلّي عليه أخوه جعفر، وطبقًا للتقاليد، يكون منصب الإمامة للذي قام بهذه الصلاة. غير أنّ محمّدًا، وقد كان في الرابعة من عمره، أمسك بيد عمّه وهو يهمّ بالصلاة وأزاحه جانبًا، ثمّ قام هو بأداء الصلاة، مثبّتًا بذلك أنّه الإمام. بيدَ أنّ هذا لم يقضِ على طموح جعفر، وتذكُر المدوّنات أنّه بعد موت الإمام العسكريّ بأيّام قليلة، جاءَ حُجّاج من المدينة الإيرانيّة قُمّ إلى سامرّاء ليعرفوا مَن الذي ستؤول إليه الإمامة بتكليف من الله ﷻ، ويبدو أن جعفرًا قدّم نفسه لهؤلاء على أنّه الإمام الشرعيّ، وعندما أثاروا موضوع التقليد الذي يقضي بانتقال الإمامة من الأب إلى الابن، ردّ جعفر بأنّ الله ﷻ هو الذي يقرّر بقاء التقليد أو

---

١ ـ **المعتمد على الله**: هو أحمد بن جعفر المتوكّل، الخليفة العبّاسيّ الخامس عشر ٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ/ ٨٧٠ ـ ٨٩٢م، ولد بسامرّاء ٢٢٩هـ/ ٨٤٣م، كان أخوه الموفّق الحاكم الفعليّ فانتصر على الزنج وحارب البيزنطيّين، أعاد المعتمد العاصمة إلى بغداد سنة وفاته، توفّي مسمومًا ودُفن في سامرّاء.

٢ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ١٩٩.

زواله. وإذ لم يشأ الحُجّاج تصديق جعفر إلاّ في حال إثباته أنّ الله ﷻ أراد حقًّا تكليفه بزعامة آل بيت الرسول ﷺ من خلال علامة واضحة، وكانت تلك العلامة، تتمثّل في أن يكون لدى الإمام المقدرة على معرفة أسمائهم ومقدار المال الذي يحمله كلّ منهم؛ غضب جعفر وحِجّته أنّ أيّ إمام لم يتعرّض لمثل هذا الامتحان، وطالب الحجّاج الإيرانيّين بأن يخضعوا له، لأنّه هو وحده الذي بوسعه أن يتقلّد منصب الإمامة بأمر الله كخليفة لأخيه الحسن، وحجّته في ذلك أنّ الإمام الحسن بن عليّ عليه السلام، وهو الإمام الثاني، قد خلفه أيضًا أخوه الحسين؛ إلاّ أنّ هذه الحجّة لم تُقنع الحُجّاج؛ وفي هذه اللحظة، دخل غلام إلى حيث كان الجمع، وأعلن لحُجّاج قمّ أنّ سيّده كلّفه بذكر أسماء الرجال ومقدار الأموال التي يحملها كلّ منهم، ودهش الحُجّاج لصحّة ما سمعوا، وأصرّوا على معرفة هذا السيّد الذي كلّف الغلام بهذا الأمر، ولكنّ جعفرًا حاول منع حصول ذلك بقوله للحُجّاج:

"يا أهل قمّ، إنّكم أهل الإيمان فهل تُخدَعون بحيلة شيطان؟".

وقبل أن ينهي جعفر كلامه، رأى الحُجّاج، بوضوح وجلاء أمامهم، صبيًّا في حوالى الرابعة من عمره، وسمعوه يقول:

"يا جعفر لماذا تطلب ما هو حقّ شرعيّ لي"؟

هذا المشهد، بحسب الرواية، لم يستغرق أكثر من برهة، اختفى بعدها طيف الطفل؛ فخرج أهل قمّ من بيت الإمام الحادي عشر وهم حيارى، وتنتهي الرواية إلى أنّه بعد خروجهم، قام جعفر بالبحث عن الصبيّ في البيت بلا جدوى. وقد افترض بعض البحّاثين أنّ أفراد العائلة، لا بدّ من أنّهم قاموا بإخفاء الصبيّ خوفًا من مؤامرات عمّه جعفر، وقد كان بيت الإمام الحادي عشر في سامرّاء مبنيًّا فوق أقبية متشعّبة وسراديب كان يلجأ إليها الإمام متخفّيًا بخلال ملاحقة عملاء أصحاب السلطة له، وكان

الصبيّ يعرف سرّ هذه الأنفاق[1]. وقد اعتبر بعض مراجع الشيعة أنّ محمّدًا المهديّ كان عمره يومذاك ستّ أو سبع سنوات[2].

غَيبَة المَهدِيّ

هنا يبدأ سرّ غيبة الإمام الذي لا يعتبره الشيعة ميتًا، إنّما هو "حيّ يُرزق يعيش في الخفاء، وبأمر الله سيرجع في نهاية الزمن". واختفاء الإمام الثاني عشر، لا يعني أنّه صعد إلى السماء، فهو يعيش بين الناس، يتّصل ببعضهم، وكثيرون يؤمنون بإمكان مخاطبته. "ويقول المجلسيّ[3] إنّ مَن يريد من الرافضة الاتّصال بالمهديّ، فعليه أن يكتب على رقعة من الرقاع صيغة معيّنة ثمّ يضعها عند قبر أحد الأئمّة، أو يجعلها في طين نظيف ثمّ يرميها في البحر أو في بئر عميقة، وبهذه الطريقة تصل رقعته إلى الإمام الغائب فينظر فيها"[4].

ويروي مؤرّخو الشيعة الكثير عن ظهور المهديّ للناس في بعض الأوقات والمناسبات، ومنها أنّه يظهر لبعض المؤمنين عند حاجتهم إليه أو أنّهم يرونه بعد الصلاة.

---

١ ـ كونسلمان، مرجع سابق، ص ١١٢ ـ ١١٦.

٢ ـ طعيمة، مرجع سابق، ص٥٩.

٣ ـ **المجلسيّ محمّد الباقر** (١٠٣٧ ـ ١١١٠ هـ / ١٦٢٧ ـ ١٧٠٠ م): شيخ الاسلام في أصفهان، وُلد وتوفّي في أصفهان، على يده تمّت غلبة التشيّع على التصوّف في إيران، أمر بإجلاء الصوفيّة عن العاصمة أصفهان وذلك بموافقة الشاه حسين الصفوي ١١٠٦ هـ / ١٦٩٦ م، اشتهر بكتابه "بحار الأنوار".

٤ ـ طعيمة، مرجع سابق، ص٥٩.

على أيّ حال، فإنّ غيبة المهديّ قد بدأت حين وفاة والده الإمام الحسن العسكريّ، سنة ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م؛ ولا تزال. ثمّ إنّ هذه الغيبة، تُقسم في اعتبار الشيعة إلى غيبتَين: الغيبة الصغرى، والغيبة الكبرى.

أمّا الغيبة الصغرى، فقد استمرّت حوالى سبعين سنة، بقي خلالها الإمام الغائب دائم الصلة بقواعده وأصحابه عن طريق وكلائه ونوّابه والموثوقين من أصحابه الذين كانوا يشكّلون همزة الوصل بينه وبين الناس المؤمنين بخطّه، وقد شغل مركز النيابة عن الإمام في هذه الحقبة أربعة ممَّن أجمعت تلك القواعد على تقواهم وورعهم ونزاهتهم التي عاشوا ضمنها، وهم، على التوالي: عثمان بن سعيد العمري، ثمّ محمّد بن عثمان بن سعيد العمري، ثمّ أبو القاسم الحسين بن روح النوبختي، وكان آخرهم أبو الحسن عليّ بن محمّد السّمريّ.

مارس هؤلاء الأربعة مهام النيابة على التوالي، وكان كلّما مات أحدهم، خلفه الآخر، وذلك "بتعيين من الإمام الغائب". وكان النائب، من هؤلاء الأربعة، يتّصل بالقواعد ويحمل أسئلتهم إلى الإمام، ويعرض مشكلاتهم عليه، ويحمل إليهم أجوبته شفويًّا أحيانًا، وتحريريًّا أحيانًا أخرى. وقد لاحظ المؤمنون أنّ التوقيعات والرسائل كانت تَرِد من الإمام المهديّ بخطّ واحد وأسلوب واحد طيلة نيابة النوّاب الأربعة التي استمرّت حوالى سبعين عامًا، انتهت بنهايتها الغيبة الصغرى[1].

أمّا الغيبة الكبرى، فتبدأ منذ ذلك التاريخ (حوالى ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م) ولن تنتهي إلاّ بظهور المهديّ، في آخر الزمان، ليخلّص البشريّة. ويربط المعتقد بين رجعة الإمام الثاني عشر، ونشوب حرب الجهاد، ويقسمها المعتقد إلى درجات مختلفة:

---

١ ـ طعيمة، مرجع سابق، ص٧٤ ـ ٧٥.

فقبل رجعة الإمام وظهوره، يُنتظر أن يأتي عليّ عليه السلام، أوّل الأئمّة، وسيحمل عليّ عليه السلام خاتم سليمان وعصا موسى، وبهذا يتمّ التعرّف على زوج ابنة الرسول ﷺ، وسيقوم بجمع جيوشه على ضفّة الفرات عند الكوفة، حيث بشكل متوالٍ، يتجمّع حول عليّ عليه السلام الأئمّة الذين خلفوه، ويقول المعتقد بانتصار الإمام الأوّل على الشرّ الذي لن يستسلم بسهولة، فإنّ خصم عليّ عليه السلام سيكون الشيطان الذي يقود جيشًا قويًّا جبّارًا.

ويذهب المعتقد إلى افتراض أنّ أتباع الشيطان سيكونون أكثر عددًا من أتباع عليّ عليه السلام، إذ في النهاية سيحارب مع الشيطان كلّ من أيّده، ولو مرّةً واحدة، خلال التاريخ المديد للبشريّة؛ وإذا كان النجاح سيحالف هذا الجيش الشيطانيّ في بداية الأمر، فإنّ نهاية أكبر معارك التاريخ وأقساها سوف تكون بانتصار جيش عليّ عليه السلام، بعون السّماء، على الشيطان، فيظهر محمّد ﷺ في سحابةٍ على رأس جيش من الملائكة، وإذ يرى الشيطان محمّدًا ﷺ يهرب مع جنده، فيقتله محمّد ﷺ برمح معه منْ نور، ويُفني جيشَه، فيفقد الشرّ سلطانه إلى الأبد، وتقوم الساعة.

وفي المعتقد الشيعيّ أنّه في يوم الحساب، سيرجع إلى هذه الدنيا فريقان:

أحدهما مَن علت درجته في الإيمان وكثرت أعماله الصالحاتَ وخرج من الدنيا على اجتناب الكبائر والموبقات، فيُريه الله دولة الحقّ ويعطيه من الدنيا ما كان يتمنّاه؛ والآخر مَن بلغ في الفساد وانتهى في خلاف المحقّين إلى أقصى الغايات وكثر ظلمه لأولياء الله واقترافه السيّئات.

وسيكون جزء من عقاب الأشرار أنّهم سيرون حسن ثواب المؤمنين والأخيار، ثمّ يبدأ عذابهم الأبديّ.

وسوف يشارك في الحكم على هؤلاء، الإمام المهديّ، الذي سينادي الموتى من قبورهم، بادئًا بأفضل الأخيار، وسيكون الحسين على رأسهم، وأسوأ الأشرار، وسيكون على رأسهم يزيد بن معاوية، وسيلقى يزيد عذابًا أبديًّا، هو ومَن معه، من الذين سيطر الشرّ على إرادتهم.

أمّا الأموات الذين لم يتطرّفوا في خيرهم أو شرّهم، فيظلّون راقدين في قبورهم حتّى إذا ما انتهى عقاب الأشرار وثواب الأخيار، حوكم هؤلاء محاكمة جماعيّة.

وأمّا الذين انضمّوا إلى شيعة عليّ عليه السلام قولاً وفعلاً فلن تمسّهم النار [1].

وقد استدلّ على هذا التصور علماء الشيعة، ومنهم أبو عليّ الطبرسي [2] في تفسير للآية:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [3].

أبرز مَن تحدّث عن هذا المعتقد من أهل الشيعة، الشريف المرتضى [4]، الذي نقل عنه أحمد أمين [5] في كتابه "ضحى الإسلام"، والشيخ محمّد بن محمّد بن النعمان،

---

١ ـ طعيمة، مرجع سابق، ص٨٤؛ كونسلمان، مرجع سابق، ص١١٦ ـ ١١٨.

٢ ـ **أبو عليّ الطبرسي** (ت ٥٤٨ هـ / ١١٣٥م): مفسّر يُعرف بالطبرسي الكبير صاحب التفسير، له "مجمع البيان في تفسير القرآن" وهو أشهر التفاسير عند الشيعة.

٣ ـ النمل: ٨٣.

٤ ـ **الشريف المرتضى على بن الحسين** (٣٥٥ ـ ٤٣٦ هـ / ٩٦٦ ـ ١٠٤٤م): فقيه الشيعة في عصره. وُلد وتوفّي في بغداد، شاعر مجيد ومؤلّف مكثر. كان أوحد أهل زمانه علمًا وكلامًا وحديثًا وشعرًا، وكان مثالاً للثقافة الكاملة. من مؤلّفاته: "الأمالي".

٥ ـ **أحمد أمين** (١٨٨٦ ـ ١٩٥٤): وُلد في القاهرة، من أعضاء المجمع العلميّ العربيّ، أسّس الجامعة الشعبيّة، من مؤلّفاته: "فجر الإسلام" و"ضحى الإسلام" و"ظهر الإسلام".

الفقيه الشيعيّ الملقّب عندهم بالشيخ المفيد[1]. ومحمّد بن الحسن الحرّ العامليّ[2]. وابن بابويه[3]، وسواهم.

خلاصة قول هؤلاء في الرّجعة أنّها تعني عندهم "بأنّ الله سيُرجع قسمًا من الأموات إلى الحياة الدنيا، وذلك عند خروج المهديّ المنتظر، ولن يرجع إلاّ مَن علت درجته في الإيمان، أو مَن بلغ الغاية من الفساد، ثمّ يصير الجميع بعد ذلك إلى الموت.

وتقوم عقيدة الرجعة أساسًا على الاعتقاد بأنّ الرّسول ﷺ والحسن والحسين وباقي الأئمّة، وكذلك بعض خصومهم كأبي بكر وعمر وعثمان، يرجعون إلى الدنيا، ويُعذَّب مَن اعتدى على الأئمّة وغصب حقوقهم، فيُصلب أبو بكر وعمر على شجرة زمن المهديّ بعد أن يُضربا بالسياط.

والقصد من هذه الرجعة أن ينتقم المهديّ من أعداء أهل البيت الذين يشاهدون من ظهور كلمة الحقّ وعلوّ كلمة أهل البيت ما أنكروه عليهم. ويعتمد الشيعة الرّافضة بقولهم بالرجعة على الآية:

﴿وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[4].

---

١ ـ **محمّد بن محمّد بن النعمان الملقّب بالشيخ المفيد** (ت ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م): فقيه الشيعة في عصره، نشأ وتوفّي في بغداد، من ألقابه أيضًا "ابن المعلّم"، مؤلّف مكثر، من مؤلّفاته كتاب "الارشاد" الذي تحدّث فيه عن معتقد الرجعة.

٢ ـ **الحرّ العامليّ محمّد بن الحسن** (١٠٣٣ ـ ١١٠٤ هـ / ١٦٢٣ ـ ١٦٩٢ م): فقيه شيعيّ وُلد في مشغرة ـ لبنان وتوفّي في مشهد الرّضا بإيران، رحل من جبل عامل وأقام في إيران فاشتهر فيها، من مؤلّفاته: "أمل الأمل" وكتاب "الوسائل" في الحديث، وعليه معوّل مجتهدي الشيعة حتّى اليوم.

٣ ـ **إبن بابويه محمّد بن عليّ القمّي** (توفّي ٣٨١ هـ / ٩٩١ م): عالم شيعيّ لُقّب بالصدوق، وُلد في قمّ وتوفّي بالريّ، مؤلّف مكثر، أشهر كتبه: "من لا يحضره الفقيه" وهو أحد كتب الشيعة الكبرى في علم الحديث.

٤ ـ من الآية ٧ من سورة القصص؛ راجع: طعيمة، مرجع سابق، ص٧٩ ـ ٨٥.

المَرجعيَّة الشيعيَّة
فـي زمَـنِ الغَيبـَة

منذ بدء الغيبة الكبرى للإمام الثـاني عشـر فـي النصـف الأول مـن القـرن العاشـر الميلادي، فقد الشيعة الإثنا عشريّة مرجعيّتهم الموثوقة في هذه الدنيا. ويتّفـق البـاحثون على أنّ الشيعة ترى أنّه يستحيل وجود حكومة مثاليّـة فـي غيـاب الإمـام المهـديّ، وإنّ أحسن ما يمكـن التوصّـل إليـه فـي مثـل هـذه الحـال، هـو إقامـة حكـم بموافقـة جمهـور العلماء، برغم أنّ مثل هذه الحكومة ليست مثاليّة قطّ[1].

---

١ ـ نصر د. سيّد حسين، الإسلام أهدافه وحقائقه، الدار المتّحدة للنشر (بيروت، لا.ت.) ص ٩٩؛ راجع: مفرّج طوني، حرب الردّة، دار الجريدة (بيروت،١٩٧٩) ص ١٠١ ـ ١٠٦.



الفَصلُ الثَّالِث

دُوَلُ الشّيعَـة

فِي زَمَنِ العبَّاسِيّين؛

دَوَلــة الأدارسَة؛ دَوَلَةُ العَلويّين فِي طَبرستَان؛

ثورات شيعيَّة في جُملَةِ أقطار؛

دَولــةُ البُويهيّين؛ دَولــةُ الحَمدانيّين.

فِي زَمَنِ العبَّاسِيِّين

بينما تمكّن أئمّة الاثنَي عشريّة من المحافظــة علـى الحدّ الأدنـى مـن التعـايش مـع الخلفاء العبّاسيّين وقادتهم الأتـراك، رغـم التضييـق الجـائر الـذي مارسـه هؤلاء علـى الشعب عامّة، وعلى الشيعة خصوصًا، فقد شهدت الأمبراطوريّة الإسلاميّة طوال العهد العبّاسيّ حركات ثوريّة شيعيّة في مختلف أقاليمها، ما أدّى أحيانًا إلى نشوء دول شيعيّة مختلفة الأصول في حقبات مختلفة ولمدد كانت تقصر أو تطول بحسب الظروف.

كان من بين هذه الدول:

دولة الأدارسة في المغرب (٧٨٨ ـ ٩٨٤م).

دولة العلويّين في طبرستان (٨٦٤ ـ ٩٢٨م).

دولة البُوَيهيّين التي سـادت أصفهـان وشـيراز وكرمـان (٩٣٢ ـ ١٠٥٥م) وبغـداد (٩٤٥م).

دولة الحمدانيّين في بعض أنحاء الشام (٨٩٢ ـ ٩٩١م).

إضافة إلى الخلافة الفاطميّة (٩٠٩ ـ ١١٧١م) التي قامت أوّل أمرها في تونس، ثمّ أخضعت الشمال الأفريقيّ كلّه، ثمّ مصر، ثمّ امتـدّت حدودهـا إلـى شـواطـىء الأطلسـيّ وبسطت نفوذها على بلاد الشام وفلسطين ولبنان.

دَولَــــــة

الأدَارسَة

في السنة الأولى من عهد الخليفة العبّاسيّ الرابع: الهـادي[1]، ثـار بالمدينـة الحسـين بن عليّ بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب ﵇، ومعه جماعة من أهل بيتـه. وكان سبب هذه الثورة تضييق العبّاسيّين على آل أبي طـالب وسـواهم مـن الهاشـميّين. وإذ تمكّن الثائرون من طرد عامل العبّاسيّين من المدينة، كانت ردّة فعل الخليفة عنيفة، فشنّ حملة على الحجاز قُتل بنتيجتها الحسين وجماعة من أهل بيته وأصحابه، وجُمعت رؤوسهم، فكانت تزيد على المائة، وكان مقتلهم بموضع يقال له "فخ"، على مسافة ثلاثة أميال من مكّة.

نجا من آل الحسن الذين ناصروا أخاهم الحسين في هذه الثـورة، إدريـس بـن عبـد الله بن الحسن، الذي فرّ من "فخّ" إلى مصر، وكان على بريدهـا يومـذاك رجـل يتشيّع لأهل البيت، اسمه واضح، وهو مولّى صالح بن منصور. وعندما علم واضـح بلجـوء الطالبيّ إلى مصر، قصده في مخبئه، وعرض عليه خدماته.

رحّب إدريس ببادرة الرّجل المتشيّع، وطلب منه أن يحمله على الـبريد إلـى أرض المغرب. وقد تجاوب واضح مع رغبة حفيد الحسن، فلحق إدريس بـالمغرب الأقصـى، ونزل بمدينة "وليلى"[2]، وكان فيهـا عـامل للعبّاسـيّين اسـمه إسـحاق بـن محمّـد بـن عبـد الحميد، فأجار هذا إدريسَ، وأكرمه، وخلـع طاعـة العبّاسـيّين ووالاه. واجتمعت قبـائل

---

١ ـ **الهادي**: هو موسى بن محمّد المهديّ، الخليفة العبّاسيّ الرابع ١٦٩ ـ ١٧٠هـ/ ٧٨٥ ـ ٧٨٦م، وُلد بـالريّ ١٤٤هـ/ ٧٦١م، حـاول إكراه أخيه الرشيد على التنازل عن ولاية العهد فقتل في دار الحريم بالموصل بتحريض من أمّه الخيزران.

٢ ـ **وليلى**: مدينة في المغرب الأقصى (مراكش)، وهي التي عُرفت أيضًا باسم "قصر فرعون".

البربر[1] إلى حفيد الحسن، فبايعته ودخلت في طاعته. وهكذا بدأ نشوء دولة الأدارسة في المغرب الأقصى، بينما اقتصّ الخليفة العبّاسيّ الخامس: هارون الرّشيد[2]، من عامل البريد في مصر لنقله إدريس إلى المغرب، فأعدمه وصلب جثّته انتقامًا[3].

عمّرت دولة الأدارسة الشيعيّة في بلاد المغرب أقلّ من قرنَين بقليل (٧٨٨ ـ ٩٨٤م) دولة مستقلّة[4]. وقد خلف إدريسَ في حكمها ابنه المسمّى هو أيضًا إدريس، بعد أن تمكّن الأوّل من السيطرة على المناطق المغربيّة التي كانت أكثريّة أهلها على دين اليهوديّة والمسيحيّة، فأجبرهم على اعتناق الإسلام الشيعيّ، وشملت فتوحاته سهل "تادلا" الواقع بين أطلس الأعلى والمحيط الأطلسيّ، والذي يخترقه نهر أمّ الربيع فيروي أراضيه الخصبة ومدينة التلمسان الواقعة اليوم في الجزائر وسهلها، هذا السهل

---

١ ـ **البَربَر** BERBÈRES: إسم يُطلق على سكّان أفريقيا الشماليّة، من برقة إلى المحيط، الذين كانوا يتكلّمون لهجات أعجميّة قبل استعرابهم أو لا يزالون، يرجع أصلهم إلى فئات عرقيّة مختلفة استقرّت في البلاد قبل الميلاد وعرفت بعض الازدهار (مملكة نوميديا، مملكة موريتانيا) اختلط بهم الفينيقيّون واليونان اختلاطًا عابرًا، لم يرتاحوا تمامًا إلى حكم روما ولا إلى الدين المسيحيّ فمالوا إلى التمرد مع الأوّل وإلى البدع مع الثاني (دونانيّة)، سهّلوا غزو الفاندال لأفريقيا ولم يسالموا البيزنطيّين، دخل أكثرهم الإسلام مع عقبة بن نافع ورافقوا الجيش العراقيّ في فتوحاته إلى إسبانيا بقيادة أحدهم طارق بن زياد، تبعوا الخوارج وأعلنوا العصيان على العبّاسيّين، توزّعوا ممالك وسلالات فكان منهم الأغالبة والرستميّون والمرابطون والموحّدون ثمّ زالت دولهم في أواخر القرن الثالث عشر، فاختلط أهل المدن منهم بالعرب واعتصم الآخرون في جبال الأوراس والأطلس وفي الريف وبلاد القبائل والصحراء حيث لا يزالون حتّى اليوم وقد حافظوا على عاداتهم ولهجاتهم.

٢ ـ **هارون الرشيد**: الخليفة العبّاسيّ الخامس (١٧٠ ـ ١٩٣هـ./ ٧٨٦ ـ ٨٠٩م.)، إبن المهدي والخيزران، وُلد بالريّ وتوفّي بسناباذ من قرى طوس (إيران)، جاء إلى الخلافة بعد اغتيال أخيه الهادي، حارب البيزنطيّين وهو لا يزال حاكمًا على المقاطعات الغربيّة وبلغ أبواب القسطنطينيّة، ثمّ حمل مرّات عليهم في أيّام خلافته، أقرّ الأمن في المقاطعات الفارسيّة وبين البربر في شمالي أفريقيا، اتّصل بملك فرنسا شارلمان، ازدهرت في عهده التجارة والآداب والعلوم ولعِب البرامكة دورًا هامًّا في عهده قبل أن يوقع بهم.

٣ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ٩٠ ـ ٩٤؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٠٤ ـ ٤٠٥؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

٤ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربيّ، نشر دار الثقافة (بيروت،١٩٦٩) ص١٤٤.

الغنيّ بالينابيع والكروم والبساتين. وبنى إدريس الأوّل في مدينة تلمسان مسجدًا متقنًا، خلّد اسمه بحفره في صفحة منبره.

لاحقت غضبة الخليفة العبّاسيّ الخامس: هارون الرشيد، إدريسَ إلى بلاد المغرب، فأرسل إليه إدريسَ الشمّاخ اليماميّ، مولّى المهديّ، الذي تظاهر بالتشيّع لأهل البيت، فقرّبه إدريس منه ورفع منزلته حتّى قيل إنّه آثره على نفسه وأنزله في بيته. ثمّ شكا إدريس إليه ألمًا في أسنانه، فصنع الرشيد لإدريس دواء مسمومًا وأشار إليه أن يداوي فمه به عند طلوع الفجر، معطيًا لنفسه مجال الفرار خلسة أثناء الليل[1]. وهكذا تمكّن الرشيد بواسطة عميله أن يغتال إدريس بن عبد الله في قصره بـ"وليلى" سنة ١٧٦ هـ / ٧٩٢م، ولم يكن قد وُلد بعد ابنه الوحيد، الذي كانت حاملاً به جارية بربريّة اسمها كنزة.

كان لإدريس الأوّل مولّى مخلص يُدعى راشد، أقدم، عند موت إدريس، على جمع رؤساء البربر ووجوه الناس، واقترح عليهم انتظار وضع الجارية، "فإنْ ولدت ذكرًا أحسنّا تربيته حتّى يبلغ مبلغ الرجال، وبايعناه تمسُّكًا بدعوة أهل البيت وتبرّكًا بذريّة الرسول ﷺ، وإنْ كان أنثى نظرتم لأنفسكم". وقرّ الرأي على ذلك، وناب مولّى إدريس عنه حتّى وُلد للجارية طفل ذكر، فسمّاه راشد: إدريسَ، وأنشأه تربية تليق بمقامه، فأقرأه القرآن حتّى حفظه وهو ابن ثماني سنوات، ثمّ علّمه الحديث والسنّة والفقه واللغة، ورواه الشعر وأمثال العرب، وعرّفه أيّام الناس والملوك، ودرّبه على ركوب الخيل ورمي السهام. ولمّا بلغ إدريس الثاني الحادية عشرة من عمره، بايعته الرعيّة.

---

[1] ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٦: ١٢٠؛ قابل: اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٠٥.

نشأ إدريس الثاني ليكون رئيس دولة، وقد كان ما نشأ من أجله. وإذ استقام حكمه، وفدت عليه العرب من أفريقيا والأندلس ملتفّين حوله. ومع هذا الإقبال البشريّ، قرّر إدريس الثاني إنشاء مدينة فاس، فبدأ بإنشاء المساجد والمدارس والأسواق، وأصدر تعميمًا إلى الرعيّة جاء فيه أنّه كل مَن بنى موضعًا أو غرسه فهو له، فازدهر الغرس والبناء سريعًا، وزاد إقبال المستوطنين حتّى شمل الفرس. وفي أوّل خطبة له في مسجد فاس، قال إدريس الثاني:

اللَّهمّ إنّك تعلم أنّي ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة، ولا مفاخرة، ولا رياء، ولا سمعة، ولا مكابرة؛ وإنّما أردت أن تُعبد بها، ويُتلى بها كتابك، وتُقام بها حدودك، وشرائع دينك، وسنّة نبيّك، ما بقيت الدنيا. اللهمّ وفّق سكّانها للخير، وأعنهم عليه، وأكفهم مؤونة أعدائهم، وأدرر عليهم الأرزاق، وأغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق، إنّك على كلّ شيء قدير[1].

وهكذا، انتقلت عاصمة دولة الأدارسة من وليلى إلى فاس، تلك المدينة الجديدة الرائعة الخصبة، التي يشقّها نهر دائم التدفّق إلى نصفَين، وتتشعّب منه جداول تجري في الدور والحمّامات والشوارع والأسواق، وفي أكثر بيوتها تتفجّر العيون.

فقد كانت نموذجًا عن فردوس...

وطّد إدريس الثاني أركان الدولة التي أسّسها والده، ووسّع نطاقها بعد أن أخضع لها بعض المناطق المجاورة. وقد عاش نحوًا من ستّ وثلاثين سنة، إذ توفّي في سنة ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م، تاركًا اثنَي عشر ولدًا ذكرًا.

---

١ ـ مغنيّة الشيخ محمّد جواد، دول الشيعة في التاريخ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات (كربلاء،١٩٦٥) ص١٦ ـ ١٧.

خلف إدريس الثاني ابنُه البكر: محمّد. فقسّم هذا الأخير دولة الأدارسة على إخوته الراشدين، وأعطى كلاً منهم إمارة، وأبقى القُصّار في عهدته.

بوفاة محمّد سنة ٢٢١ هـ / ٨٣٥ م، آلت القيادة إلى ابنه عليّ الذي حكم الدولة حتّى وفاته سنة ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م. فخلفه أخوه يحيى الذي وسّع سلطان الدولة، وقد شهدت بعهده الممتدّ حتّى سنة ٢٦٤ هـ ٨٧٧ م، نموًّا وازدهارًا ملحوظَين. ولكنّ ابنه الذي خلفه، واسمه هو الآخر يحيى، قد أساء السيرة وانصرف إلى اللهو والعبث، ما ألّب عليه أهل فاس، ففرّ إلى الأندلس حيث لاقى حتفه. ولم يستطع ابن عمّه عليّ بن عمر أن يسيطر على الدولة بعد أن استولى على الحكم إثر اعتزال يحيى الثاني، إذ كان عليه أن يفرّ بسبب ثورة الخوارج عليه. فحاول يحيى الثالث، وهو حفيد إدريس الثاني، أن يستعيد استقرار الدولة، غير أنّ دولة الأدارسة كانت قد أصبحت عرضة لزحف الفاطميّين الذين تمكّنوا من فرض سيادتهم على القسم الشرقيّ منها، بينما فرض أمويّو الأندلس سيادتهم على قسمها الغربيّ، وانتهت بذلك دولة الأدارسة الشيعيّة في حوالى العام ٩٨٤م.

ترك الأدارسة الشيعة في المغرب آثارًا جليلة، إضافة إلى نشرهم الإسلام فيها، إذ ازدهرت العلوم في عهدهم، وتحضّر أهل البوادي، ونشأت المدن الواسعة، وانتشرت المساجد والمدارس، وعمّ العدل والأمن في الجزء الأكبر من عهدهم بشكل قلّما عرفت مثله دول الإسلام في تلك الحقبة من التاريخ[١].

---

١ ـ للمزيد من أخبار دولة الأدارسة، راجع: "الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى".

دَولَةُ العَلَويِّين

فِي طَبرستَان

ذكرنا في الفصل السابق خبر ظهور الحسن بن زيد بن محمّد بن اسماعيل ابن زيد بن الحسن بن الحسين بن عليّ عليه السلام بن أبي طالب بطبرستان، ومبايعة أهلها له، وسيطرته عليها نحوًا من تسعة عشر عامًا. وكان ظهور الحسن بن زيد في سنة ٢٥٠هـ / ٨٦٤ م.

جاء ظهور الحسن بن زيد في طبرستان إثر جور العامل العبّاسيّ فيها، وتململ أهلها الذين كانوا على استعداد للسير في أيّ حركة تناهض الحكم القائم. وكان أهل طبرستان وأهل الديلم قد تراسلوا على التعاون والتعاضد من أجل التخلّص من نير الوالي العبّاسيّ سليمان بن عبد الله بن طاهر. وما أن تجاوب الحسن بن زيد مع دعوة أهل طبرستان والديلم لقيادتهم، حتّى انضمّ إلى هؤلاء في مبايعته أهل كلار وشالوس والرميان من المناطق المجاورة لطبرستان والديلم، ثم انضمّ إلى هؤلاء سكّان الجبال والوهاد المجاورة.

جرت الحرب بين الثائرين بقيادة حفيد عليّ عليه السلام، وبين رجال العامل العبّاسيّ بقيادة محمّد بن أوس البلخيّ في مدينة آمل بسهل مازاندران جنوبيّ بحر قزوين، فتمكّن الحسن من دخول المدينة بعد قتال شديد. وإذ عمل المنتصرون في نهب المدينة، انضمّ إليهم عدد كبير من روّاد القتال والمغانم. فأعاد الحسن تنظيم فرقه، وشنّ هجومًا على العامل العبّاسيّ سليمان ابن عبد الله في مدينة سارية، وبعد قتال شديد بدأ أصحاب زيد بالدخول إلى المدينة، ففرّ العامل العبّاسيّ، تاركًا عياله وأمواله وراءَه. بيدَ أنّ الحسن، الذي استولى على الأملاك، أمر بإرسال النساء والأولاد في مركب إلى سليمان الذي لجأ إلى مدينة جرجان جنوب شرقيّ بحر قزوين.

وقيل إنّ سليمان قد انهزم اختيارًا لأنّه كان متشيّعًا لأهل البيت.

ولمّا سيطر الحسن على طبرستان، وجّه جندًا إلى الريّ بقيادة قريب له اسمه هو الآخر حسن بن زيد، فاستولى عليها، وجعلها تحت إمرة رجل من الشيعة اسمه محمّد بن جعفر. ويبدو أنّ محمّدًا هذا قد أساء السيرة، فكرهه أهل الريّ، وتخلّوا عنه، ما مكّن الجند العبّاسيّ من أسره بعد دحر جيشه، فاضطر الحسن إلى أن يوجّه عسكره من جديد بقيادة رجل إسمه واجن، إلى الريّ، فتمكّن واجن من استعادتها بعد قتل القائد العبّاسيّ ودحر جيشه.

كلّ هذه الأحداث جرت في سنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م. إذ كان عهد الخليفة العبّاسيّ الثاني عشر: المستعين[١]. بيدَ أنّه في السنة التالية لهذه الأحداث، أمر الخليفة العبّاسيّ عاملَ طبرستان، سليمان بن محمّد، بأن يستعيد طبرستان، وزوّده بجيش كبير من أجل هذه الغاية. فاضطرّ الحسن بن زيد إلى التخلّي عن طبرستان للديلم، فدخل العامل العبّاسيّ طبرستان وراح يتقبّل اعتذار أهلها، فصفح عنهم، ونهى أصحابه عن القتل والنهب والأذى. ومن شأن هذا التصرّف أن يدلّ على صحّة تشيّع سليمان.

في هذه الأثناء، جرت أحداث أخرى بالكوفة، حيث نشبت الثورة على يد طالبيّ آخر، هو الحسين بن أحمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسن بن عليّ عليه السلام بن أبي طالب، الذي سمّى واليًا عليها، طالبيًّا آخر، هو محمّد بن جعفر بن حسين بن جعفر بن الحسن بن الحسن بن عليّ عليه السلام بن أبي طالب، وأجلى عنها عامل العبّاسيّين أحمد بن نصير الخزاعيّ. ولمّا وجّهت الخلافة جنودها لاستعادة الكوفة، دافع عنها أهلها

---

١ ـ **المستعين بالله** (٢٤٨ ـ ٢٥٢هـ/ ٨٦٢ ـ ٨٦٦م): هو أحمد بن محمد بن المعتصم، الخليفة العبّاسيّ الثاني عشر، وُلد بسامرّاء ٢١٩هـ/ ٨٣٤م، بايعه الأتراك بعد وفاة المنتصر وما إن انتقل إلى بغداد للتخلّص منهم حتّى خلعوه ونفوه إلى واسط حيث قُتل.

العلويّون دفاعًا مستميتًا، وأبادوا الفرقة المهاجمة، بيدَ أنّ القائد العبّاسيّ، عاد وهاجمها بفرقة أخرى، حتّى دخلها، وأحرقها انتقامًا، فهرب منها حفيد عليّ ﷺ، بعد أن سيطر القائد العبّاسيّ عليها تمامًا.

ثـورات شيعيَّـة
في جُملَّةِ أقطَار

في هذه الأثناء، ثار علويٌّ آخر في نينوى، مجهول الهويّة لدى المؤرّخين، ولكنّ ثورته باءَت بالفشل، رغم إزعاجه الدولة العبّاسيّة، التي كان عليها أيضًا أن تواجه ثورة حفيد آخر لعليّ ﷺ في قزوين وزنجان، هو الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن محمّد ابن إسماعيل الأرقط ابن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ المعروف بالكركيّ، بعد أن طرد العامل العبّاسيّ وسيطر على الناحية.

وفي مكّة، ظهر إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ ﷺ بن أبي طالب، فانتهب منزل العامل العبّاسيّ فيها ومنازل أصحاب السلطان، وقتل الجند وجماعة من أهل مكّة، واستولى على كلّ مال طالته يده بما في ذلك الأموال العائدة إلى الكعبة. وبعد أن نظّف الثائر الطالبيّ مكّة من الأموال والذهب والفضّة، أحرق بعضها وسار إلى المدينة، فتوارى عاملها، وبقي رجال إسماعيل محاصرين مكّة حتّى أذاقوا أهلها الأمرَّين. وقد جاءَت هذه الثورة انتقامًا طالبيًّا لِما لقيه أحفاد عليّ ﷺ من جور وذلّ ومهانة على أيدي العبّاسيّين. وقد سار هذا الطالبيّ إلى جَدّة وفعل بها ما فعله بمكّة، دون أن تتمكّن منه قوى الخلافة. إنّما العكس قد حصل، إذ خلع الخليفة العبّاسيّ الثاني عشر: المستعين، نفسه من الخلافة، فخلفه المعتزّ بن

المتوكّل[1] ثمّ إنّ الثائر الطالبيّ، إسماعيل بن يوسف، قد مات في السنة نفسها بعد أن فعل كلّ ما فعل.

وبينما هذه الأحداث تتفاعل، تمكّن الحسن بن زيد العلويّ من استعادة طبرستان بسهولة.

وكان الخليفة المعتزّ قد خُلع على أيدي قادته الأتراك (٢٥٥ هـ / ٩٦٥ م) وخلفه المهتدي[2].

بينما كانت ثورة الزنج[3] قد بدأت، كما عمّت الاضطرابات بغداد والموصل والبصرة والكوفة.

وقبل أن يُتمّ الخليفة المهتدي سنة من حكمه، خلعه الأتراك كما خلعوا سلفه المعتزّ، وجعلوا مكانه أحمد بن المتوكّل، ولُقّب بالمعتمد على الله*.

وبينما أوضاع الخلافة على هذه الحال من التردّي ظهر في الكوفة عليّ بن زيد، واستولى عليها، وأزاح عنها نائب الخليفة، واستقرّ بها. وتمكّن العلويّ من صدّ هجوم عنيف شنّه عليه جند الخلافة، بيدَ أنّه تنحّى عنها لمّا علم بتسيير حملة

---

١ ـ **المعتزّ بالله** (٢٥٢ ـ ٢٥٥هـ/ ٨٦٦ ـ ٨٦٩م): هو محمّد بن جعفر المتوكّل، الخليفة العبّاسيّ الثالث عشر، وُلد بسامراء ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م، توصّل إلى الخلافة بفضل القادة الأتراك بعد عزل المستعين، حاول التخلّص منهم بالتجائه إلى الجند المغاربة فعزله الأتراك وقتلوه.

٢ ـ **المهتدي بالله** (٢٥٥ ـ ٢٥٦ هـ/ ٨٦٩ ـ ٨٧٠م): هو محمّد بن هارون الواثق، الخليفة العبّاسيّ الرابع عشر، وُلد بسامراء ٢٢٢هـ/ ٨٣٧م، سعى عبثًا إلى إصلاح أخلاق البلاط الفاسدة، عجز عن دفع مرتّبات الجند فقُتل.

٣ ـ **الزنج**: إسم القبائل الزنجيّة التي تقطن ساحل أفريقيا الشرقيّ، أطلق مؤرّخو العرب الإسم على العبيد المنتفضين الذين أثاروا الرعب في القسم الأسفل من العراق ١٥ سنة (٢٥٤ ـ ٢٧٠هـ/ ٨٦٨ ٨٨٣م) وكانت ثورة أو فتنة الزنج على جانب كبير من الأهميّة، نشبت بزعامة صاحب الزنج علي بن محمّد بن عيسى المعروف بالبرقعي وبمعاونة القرامطة.

كبرى لقتاله، ولكنّ الخليفة عاد وتمكّن منه بعد حين عندما عاد إلى سامرّاء، فأرسل مَن قتله هناك.

وسط هذه الفوضى، وسّع الحسن بن زيد مجال سيطرته، فقصد جرجان، واستولى عليها، رغم محاولة أمير خراسان محمّد بن طاهر الدفاع عنها، ولكنّه بقي في حال نزاع مع الخلافة العبّاسيّة التي كان عمّالها يشنّون على دولته الهجمات المتقطّعة، وكان الحسن ينتصر حينًا، وينهزم لبعض الوقت حينًا آخر، فينتقل إلى أرض الديلم ليعود فيحرّر طبرستان ويسودها. وبقي على هذه الوتيرة حتّى وفاته سنة ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م، بعد أن أسّس دولة شيعيّة وقادها طوال تسع عشرة سنة وثمانية أشهر، فتولّى مكانه أخوه محمّد بن زيد. وكان الحسن، إضافة إلى حنكته الحربيّة والسيّاسيّة، عالمًا بالفقه وبالعربيّة، وملمًّا بالشعر، وكان مميّزًا بفضيلة الجود[1].

إستتبّ الأمر لخليفة الحسن: محمّد بن زيد، فحكم الدولة العلويّة مدّة سنتَين بلا قلاقل تُذكر. وكان محمّد فاضلاً، أديبًا، شاعرًا، عارفًا، حسن السيرة، بإجماع المؤرّخين. وتدلّ سيرته على أنّه كان متسامحًا، وكانت له نظرته الخاصّة والواقعيّة إلى الأمور. ويوم استأذن عليه جماعة من المكفوفين، قال: "أدخلوا... فإنّه لا يحبّنا إلاّ كلّ كسير أعور"!

في السنة الثانية لحكم محمّد، تعرّضت الريّ لهجوم عنيف من القادة الأتراك العاملين تحت الراية العبّاسيّة. وكان العهد للخليفة العبّاسيّ الخامس عشر: المعتمد على الله* (٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م - ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م)، فقُتل من جيش ابن زيد ستّة آلاف

---

١ - راجع: ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ١٣٠ - ١٣٤، ١٦٣ - ١٦٧، ١٧٧، ٢٠٣، ٢٢٨، ٢٣٥، ٢٣٩ - ٢٤٠، ٢٤٨، ٢٦٨ - ٢٦٩، ٢٨٨، ٣٣٥، ٤٠٧ - ٤٠٨؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ١٥٣، ١٨٠؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٩٨؛ مغنيّة، دول الشيعة، مرجع سابق، ص ٢٤.

رجل، وأُسر ألفان، وغنم الأتراك من خيرات الريّ ما لم يروا مثله، على حدّ تعبير من رووا. وفرّق الأتراك عمّالهم في مناطق الريّ.

بعد ثلاث سنوات (٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م) أرسل العبّاسيّون حملة إلى جرجان، أزالت عنها حكم محمّد بن زيد. وإذ سار محمّد إلى أستراباد، حاصره الجند العبّاسيّ مدّة سنتَين، حتّى شهدت المدينة قلّة ومجاعة. وإذ تمكّن محمّد من الفرار بعد سنتَين، انتقل إلى سارية، فتبعه الجيش العبّاسيّ، فانتقل إلى طبرستان، ثمّ إلى أرض الديلم. وبقي محمّد ملاحقًا من قِبَل الجيش العبّاسيّ إلى أن مات وليّ عهد الخليفة المعتمد: الموفّق بالله، سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م، ذلك أنّ الموفّق، وهو طلحة بن جعفر المتوكّل، إذ كان وليًّا للعهد بعهد أخيه المعتمد، كان الحاكم الفعليّ، فظهر ضعف المعتمد عن القيام بأعباء الدولة. والموفّق، هو الذي تمكّن من القضاء على ثورة الزنج سنة ٨٨٣ بمعاونة لؤلؤ.

في هذه الأثناء، كان محمّد بن زيد قد عاد إلى الديلم، وكان قائد الحملة العبّاسيّة التي انتزعت منه طبرستان والريّ وجرجان وغيرها من النواحي: رافع بن هرثمة، وكان مقيمًا في الريّ، فراسل محمّدًا عارضًا عليه الصلح مقابل إعادتها إليه. وهكذا استعاد ابن زيد الجزء الأهمّ من الدولة العلويّة لحكمه.

غير أنّ مشكلة من نوع آخر قد واجهت الدولة العلويّة بعد سنتَين (٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م) إذ غارت المياه في الريّ وطبرستان، حتّى عزّت المياه على الناس، وغلت الأسعار، واستمرّ الشحّ سنتَين متتاليتَين[1].

---

١ ـ راجع: إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ٤١٨، ٤٥٧، ٤٦٥، ٤٦٧، ٤٧٤، ٥٠٤، ٥٢٧؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ٢٦٦؛ مغنيّة، دول الشيعة، ص٢٤ ـ ٢٨.

رغم ذلك، فقد تمكّن محمّد، سنة ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م، من إرسال اثنَين وثلاثين ألف دينار إلى أحد أتباعه في بغداد، لتُوزّع على أهل البيت من الطالبيّين في بغداد والكوفة والمدينة. ويبدو أنّ محمّدًا كان يرسل قرابة هذا المبلغ من المال للغاية نفسها في كلّ عام. وفي سنة ٢٨٧ هـ / ٩٠٠م، قُتل محمّد بن زيد في إحدى المعارك الحربيّة وهو يحاول استرداد جرجان، إذ كانت دولته قد استقرّت على طبرستان والديلم. وقد قتله والي خراسان محمّد بن هارون، واستولى على دولته. ولكنّ الخليفة العبّاسيّ السابع عشر: المكتفي[1] أسر ابن هارون بعد ثلاث سنوات من قتل هذا الأخير محمّد بن زيد، وكان سبب أسره أنّه استقلّ عن الخلافة ولم يذعن لتهديداتها. وعادت طبرستان، وجرجان، والديلم، والريّ إلى الحكم العبّاسيّ.

بقيت طبرستان حوالى ثلاثة عشر عامًا خارج إطار الحكم الشيعيّ، إلى حين ظهور الحسن بن عليّ بن الحسن بن عمر بن عليّ بن الحسين بن عليّ ﵇ بن أبي طالب المعروف بالأطروش، وبالناصر الكبير، وبالناصر للحقّ. وكان الأطروش عالمًا وشاعرًا ومؤلّفًا من أئمّة الشيعة الزيديّة، نشر الإسلام بين أهل الديلم على شواطىء بحر قزوين، فذهبوا مذهب التشيّع، واعتنقوا الزيديّة تحديدًا.

ظهر الأطروش في سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م، بعد أن كان قد قضى سنوات يدعو الناس إلى الإسلام في بلاد الديلم. وإذ أساء العامل العبّاسيّ معاملة شيعة الديلم، قادهم الأطروش في هجوم عنيف شنّه على عاصمة طبرستان: آمل، واستولى على مجمل طبرستان والريّ، واستعاد السيطرة الشيعيّة على المناطق التي خضعت لحكم الحسن

---

١ ـ **المكتفي بالله:** هو علي بن أحمد المعتضد، الخليفة العبّاسيّ السابع عشر ٢٨٩ هـ / ٩٠٢م ـ ٢٩٥ هـ / ٩٠٨م، ولد ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م، خلف المعتضد، حارب الطولونيّين والقرامطة، لم يتمكّن من وقف تقدّم البيزنطيّين، توفّي ببغداد.

بن زيد وابنه محمّد. فانتقمَ بذلك لأقاربه من أهل بيت عليّ عليه السلام، وهو مَن كان قد قاتل مع محمّد بن زيد، فأُصيب بضربة سيف على رأسه، ما سبّب له الصّمم، فلُقّب بالأطروش. وذكر المؤرّخون أنّ الحسن بن عليّ الأطروش، عدل في حكمه، ولم يرَ الناس مثله في عدله وحسن سيرته وإقامته الحقّ.

إستمرّ حكم الحسن بن عليّ الأطروش لطبرستان، ومحيطها أربع سنوات، انتهت بوفاته سنة ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م[١].

خلف الحسن بن عليّ الأطروش في حكم طبرستان، صهره الحسن بن القاسم العلويّ الملقّب بالداعي. وهو مَن كان قد أعانه على استعادة طبرستان قبل أربع سنوات، وأظهر في القتال بطولة نادرة.

حاول الداعي توسيع رقعة دولته العلويّة، فأرسل، في سنة ٣٠٨ هـ / ٩٢٠م، عامله على الديلم: ليلى بن النعمان الديلمي، على رأس جيش بقصد الاستيلاء على نيسابور، ولكنّ ليلى قُتل، وباءَت المحاولة بالفشل.

إستمرّ حكم الداعي لطبرستان والديلم والريّ وجوارها حتّى سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨م، إذ تمكّن قادة العبّاسيّين الأتراك من انتزاعها منه، وقتْله بخلال هجوم عنيف شنّوه عليه، وقد تخلّى عنه جنوده لِما كان يأمر به من استقامة، ولمنعهم من تعاطي الخمور ومن ظلم الرعيّة، حتّى باتوا يبغضونه[٢].

---

١ ـ راجع: إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٨١ ـ ٨٦، ١٠٥؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ٣٠٨، ٣٧٣ ـ ٣٨٥؛ مغنيّة، دول الشيعة، مرجع سابق، ص٢٨ ـ ٢٩.

٢ ـ راجع: إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٨٢، ١٠٥، ١٢٤؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ٣٠٨، ٣٨٣ ـ ٣٨٥؛ مغنيّة، دول الشيعة، مرجع سابق، ص٢٩ ـ ٣٠.

بمقتل الحسن بن القاسم الملقّب بالداعي، انتهت دولة العلويّين في طبرستان التي دامت زهاء خمسين سنة. وكان انتقام الأتراك من شيعة طبرستان رهيبًا، إذ قتلوا قادتهم، واعتقلوا كبارهم، وسلبوا أغنياءَهم، فندم بعضهم على تخلّيه عن الداعي، واضطرّ البعض الآخر إلى التخلّي عن تشيّعه لأهل البيت وعن مذهب الزيديّة.

دَولـــــةُ البُوَيهيِّين

تعدّدت الروايات حول نسب آل بُوَيْه، بين قائلة بأنّهم ينتسبون إلى سلالة الملك يزدجرد بن هرمز من ملوك الفرس، وقائلة بأنّهم من سلالة شهريار آخر ملوك الفرس، ولكن ما من خلاف على أنّهم من سلالة ملوك فارس، وعلى أنّ الجدّ الأوّل لهذه الأسرة، هو أبو شجاع بُوَيه من سكّان الديلم، وكان رجلاً متوسّط الحال، ماتت زوجته تاركة له ثلاثة أولاد، اعتنى بتربيتهم وسط الفقر والعوز.

والأولاد الثلاثة هم: أبو الحسن عليّ، وأبو العليّ حسن، وأبو أحمد. وقد تنبّأ أحد المنجّمين لأبي شجاع بأنّ أولاده الثلاثة سيملكون الأرض ومَن عليها، ويعلو ذكرهم في الآفاق، ويولد لهم جماعة ملوك. فظنّ الرجل أنّ المنجّم يسخر منه، فأمر أطفاله بصفعه، فصفعوه.

كان ذلك في بداية القرن الرابع للهجرة.

بيدَ أنّ نبوءة المنجّم لم تكن كاذبة تمامًا. فقد صدق الجزء الأكبر منها، وإن لم يملك البوَيهيّون الأرض ومَن عليها، إنّما هم ملكوا دولةً شيعيّة أخرى، دامت أكثر من

١٢٠ سنة (٩٣٢ ـ ١٠٥٥) طالت أصفهان وشيراز وكرمان، وأحيانًا بغداد. وغدا أمير المؤمنين ألعوبة بيد البوَيهيّين إلى أن غلبهم السلطان السلجوقيّ طغرل بك[1] سنة ١٠٥٥.

بدأ الشبّان الثلاثة كفاحهم بانضمامهم إلى حركة شيعيّة زيديّة في بلاد الديلم، بقيادة بعض أنصار الدولة العلويّة التي انتهى أمرها بمقتل الحسن بن القاسم الداعي، وكان على رأس تلك الحركة رجل ديلميّ اسمه مارداويج. ولقّب أبو الحسن عليّ نفسه بعماد الدولة، وأبا عليّ الحسن بركن الدولة. وسرعان ما احتلّ الرجلان وأخوهم عليّ مكانة مرموقة عند مارداويج، الذي قلّد كلاً منهم ناحية من نواحي الديلم، وكانت ناحية أبي الحسن أحمد: الكَرْج[2].

أحسن الإخوة الثلاثة حكم المناطق التي وُلُّوا عليها، حتّى أحبّهم الناس، وانضووا تحت ألويتهم. وسرعان ما راحوا يتعاونون على الحكم، والقتال، فاستولوا على أصبهان، ما أقلق الخليفة العبّاسيّ من جهة، وأرعب مارداويج نفسه من جهة أخرى، فشنّ هذا الأخير حملة على أصبهان اتّقاها البويهيّون بالانتقال إلى أرجان[3] واحتلالها، ثمّ راحوا يشنّون الغزوات على النوبندجان وكازرون وغيرهما من بلاد فارس، حتّى

---

١ ـ **طغرل بك** (ت١٠٦٣): هو طغرل إبن ميكائيل بن سلجوق، قائد سلجوقيّ ومؤسّس السلالة السلجوقيّة، قضى على البويهيّين ودخل بغداد ١٠٥٥ فخلع عليه الخليفة القائم العبّاسيّ لقب السلطان وملك الشرق والغرب، قهر البساسيري الذي احتلّ بغداد وخطب للخليفة الفاطمي المستنصر، وأعاد الخليفة العبّاسي ١٠٦٠.

٢ ـ **الكَرْج**: هي **جيورجيا** GÉORGIE ، تقع شرقيّ البحر الأسود في جنوب غربيّ الإتحاد السوفياتيّ سابقًا، كانت من جمهوريّاته، عاصمتها تفليس.

٣ ـ **أرجان**: مدينة قديمة في إيران، على الطريق بين شيراز والعراق، احتلّها العرب ٦٣٨، كانت في القرون الوسطى شهيرة بصناعة الحرير.

جنوا أموالاً كثيرة، وباتوا قبل نهاية ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م. في وضع قياديّ ممتاز. وفي بداية السنة التالية، استولوا على شيراز حربًا.

بعد هذا التقدّم السريع، أُطلق على أبي الحسن أحمد من أبناء بويه لقب معزّ الدولة، وكلّفه أخواه بالسير إلى كرمان[1]، وامتلاكها، وزوّداه بجيش ومال لهذه الغاية. وبخلال سيره، استولى على السيرجان، وعلى بمّ وجيرفت، رغم إصابته بجروح بليغة، منعته من الوصول إلى كِرمان. غير أنّه في السنة التالية (٣٢٦ هـ / ٩٣٧ م) قاد حملة على الأهواز فاحتلّها. وبعد سنتَين، تمكّن أخوه ركن الدولة من استعادة أصبهان. وفي ٣٣٠ هـ / ٩٤١م، سار ركن الدولة وأخوه عضد الدولة البويهيّان إلى الريّ واستوليا عليها وأخضعاها لدولة البويهيّين. وبعد سنتَين سقطت واسط بيد أخيهما الثالث معزّ الدولة، الذي في ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م، استولى على بغداد، سلمًا، إذ أمر الخليفة العبّاسيّ الثاني والعشرون: المستكفي[2]، بعدم مقاومته. بل إنّ هذا الخليفة العبّاسيّ هو الذي ثبّت له لقب معزّ الدولة، وثبّت لأخوَيه لقبَي عماد الدولة وركن الدولة، وأمر أن تُضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم. ويظهر من ذلك أنّ المستكفي (٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م. - ٣٣٤ هـ / ٩٤٥م) قد استعان ببَني بوَيه على القادة الأتراك الذين كانوا قد سيطروا على الخلافة. بيدَ أنّ معزّ الدولة أطاح المستكفي بعد حين، فخلفه المطيع (٣٣٤ هـ / ٩٤٦ م - ٣٦٣ هـ / ٩٧٤م) ومنذ ذلك الحين، سيطر

---

١ - **كِرمان:** مدينة وإقليم قديم في إيران، يقع جنوب غربي صحراء لوط، بين مكران وفارس، شرع بفتحه الربيع بن زياد قائد أبي موسى الأشعري وأتمّه ابن مسعود السلمي بعد أن أبادت الثلوج الحملة الأولى ٦٤٩، ومدينة كرمان هي قاعدة الإقليم الثامن لإيران اليوم.

٢ - **عبد الله المستكفي بالله:** إبن المكتفي، الخليفة العبّاسيّ الثاني والعشرون ٣٣٣ - ٣٣٤هـ/ ٩٤٤ - ٩٤٥م، كان ألعوبة بأيدي القادة الأتراك، عندما اعترف بمعزّ الدولة البويهي سلطانًا على بغداد عزله معزّ الدولة وسمل عنيه، مات سجينًا.

البوَيهيُّون على الخلافة العبّاسيّة سيطرة تامة، فلم يبقَ للخليفة وزير، إنّما كان له كاتب، يدبّر إقطاعه وإخراجاته لا غير. وكان من أعظم الأسباب في ذلك "أنّ أهل الديلم كانوا يتشيّعون ويغالون في التشيّع، ويعتقدون أنّ العبّاسيّين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقّيها...

ويبدو أنّ معزّ الدولة قد استشار جماعة من خواصّ أصحابه في إخراج الخلافة من العبّاسيّين والبيعة للمعزّ لدين الله العلويّ، أو لغيره من العلويّين، ولكنّ خواصّه نصحوه بعدم الإقبال على مثل هذه المخاطرة".

تسلّم معزّ الدولة العراق بأسره، ولم يبقَ للخليفة منه شيء، "إلاّ ما أقطعه معزّ الدولة ممّا يقوم ببعض حاجته". ففي ٣٣٦ هـ / ٩٤٨م، احتلّ معزّ الدولة البصرة، وفرض ضريبة على الموصل.

في هذه الأثناء، سار أخوه ركن الدولة إلى طبرستان فملكها، وكذلك فعل بجرجان.

ولمّا توفّي عماد الدولة أبو الحسن عليّ بن بوَيه بمدينة شيراز في ٣٣٨ هـ / ٩٥٠م، بسبب قرحة مزمنة في كليته، سلّم القيادة إلى ابن أخيه ركن الدولة، واسمه فناخسرو، ولقبه عضد الدولة. بيدَ أنّ "إمارة الأمراء" قد انتقلت من عماد الدولة، بفارس، إلى أخيه ركن الدولة.

في هذه الحقبة، أضحت الخلافة العبّاسيّة، واقعًا، بيد البويهيّين بعد أن أحكم معزّ الدولة قبضته على مركزها بغداد، وأصبح القادة الأتراك يعملون بأمرته مع جنودهم. وقد أظهر معزّ الدولة تشيّعًا رسميًّا، بعد أن بنى دارًا عظيمة له في المدينة التي جعلها مركز حكمه. فقبل نهاية سنة ٣٥٣ هـ / ٩٦٣م، أمر في الثامن عشر من ذي الحجّة، "بإظهار الزينة في البلد، وأُشعلت النيران بمجلس الشرطة، وأُظهر الفرح، وفُتحت

الأسواق بالليل، كما يُفعل ليالي الأعياد، وقد فعل ذلك فرحًا بعيد الغدير، يعني غدير خمّ[1]، وضُربت الدبادب والبوقات، وكان يومًا مشهودًا". وكان قبل سنة من ذلك التاريخ، قد أمر العامّة ببغداد بأن يكتبوا على المساجد العبارة التّالية:

لعن الله معاوية بن أبي سفيان، ولعن مَن غصب فاطمة رضي الله عنها فدكا، ومَن منع أن يُدفن الحسن عند قبر جدّه عليه السلام، ومَن نفى أبا ذرّ الغفاريّ، ومَن أخرج العبّاس من الشورى.

وإذ كادت هذه الكتابة أن توقع فتنة مذهبيّة في بغداد لمّا قام بعضهم بـ "حكّها" ليلاً، وقد عزم معزّ الدولة على إعادة كتابتها، أشار عليه مستشاروه بأن يستبدل بالعبارة أخرى أقلّ إثارة، فاقتنع بالنصيحة، وأحلَّ مكانها عبارةً "لعَنت الظالمين لآل رسول الله ﷺ، واكتفت بلعن معاوية دون سواه".

وعندما حلّ العاشر من محرّم (عاشوراء)، أمر معزّ الدولة الناس أن "يغلقوا دكاكينهم، ويبطّلوا الأسواق والبيع والشراء، وأن يظهروا النياحة، ويلبسوا قبابًا عملوها بالمسوح، وأن يخرج النساء منثّرات الشعور، مسودّات الوجوه، قد شققن ثيابهنّ، يدرن في البلد بالنوائح، ويلطمن وجوههنّ على الحسين بن عليّ عليه السلام، ففعل الناس ذلك، ولم يكن للسنّة قدرة على المنع منه لكثرة الشيعة، ولأنّ السلطان معهم".

ولم يمضِ وقت طويل حتّى استولى معزّ الدولة على عُمان التي ظهرت دراهمها سنة ٣٥٥ هـ / ٩٦٥م، واسمه على دنانيرها.

---

١ ـ **غدير الخمّ**: نبع في واد قريب من جحفة على الطريق بين مكّة والمدينة، يقول الشيعة إنّ النبيّ ﷺ توقّف عنده أثناء عودته من حجّة الوداع وسمّى عليًّا عليه السلام خليفة له.

إلاّ أنّ معزّ الدولة مات أثناء محاولته الاستيلاء على واسط، فاضطرّ قادته إلى أن يصالحوا واليها عمران بن شاهين دون الاستيلاء على هذه المنطقة العراقيّة الواقعة بين البصرة والكوفة، ومدينتها التي أسّسها الحجّاج بن يوسف الثقفيّ قبل مائتَين وستّين سنة من ذلك التاريخ[١].

هذا الجبّار الذي دوّخ العبّاسيّين والأتراك، أحد الإخوة العصاميّين الثلاثة من أبناء بوَيه، قد قضت عليه جرثومة، ما فرّقت بين صعلوك وسلطان، فمات بمرض الزحار سنة ٣٥٦ هـ / ٩٥٦م، بخلال حربه على واسط. ولمّا شعر بدنوّ أجله، قفل عائدًا إلى قصره ببغداد، وهناك، سارع إلى التصدّق بأكثر ماله، وأعتق مماليكه، وردّ شيئًا كثيرًا على أصحابه.

وكان معزّ الدولة، قبل ذلك التاريخ بثلاث سنوات، قد عيّن ابنه بختيار وليًّا لعهده، وسلّم جميع ماله إليه، وأوصى قادته به، وهكذا خلف بختيار والده، وتكنّى بعزّ الدولة.

خالف عزّ الدولة، على ما يبدو، جميع وصايا أبيه، القائلة بوجوب طاعة عمّه ركن الدولة واستشارته في كلّ ما يفعله، وبطاعة عضد الدولة ابن عمّه لأنّه أكبر منه سنًّا وأقدم بالسياسة، ووصّاه بتقرير كاتبيَه أبي الفضل العبّاس بن الحسين وأبي الفرج محمّد بن العبّاس لكفايتهما وأمانتهما، ووصّاه بالديلم والأتراك وبالحاجب سبكتكين... فذهبت كلّ هذه الوصايا أدراج الرياح، وانصرف عزّ الدولة إلى اللهو واللعب ومعاشرة النساء والمساخر والمغنّين، وجافى كاتبَي أبيه وحاجبه الأمين فقاطعوه، ونفى

---

١ ـ راجع: إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٢٦٤ ـ ٢٧٢، ٢٧٥ ـ ٢٧٨، ٣٢٤ ـ ٣٢٦، ٣٤٠ ـ ٣٤٣، ٣٦٠، ٤١٧، ٤٥٠ ـ ٤٥٢، ٤٦٩ ـ ٤٧٠، ٤٨٢ ـ ٤٨٤، ٥١٠ ـ ٥١٢، ٥٣٤، ٥٤٢ ـ ٥٥٨، ٥٦٥ ـ ٥٧٤؛ مغنيّة، دول الشيعة، ص٣٤ ـ ٤٠؛ السيّد مير عليّ، مختصر تاريخ العرب (١٩٣٨) ص٢٦٠ وما يليها.

كبار الديلم عن مملكته طمعًا بإقطاعاتهم وأموالهم وأموال المتّصلين بهم، فكان عليه بعد ذلك أن يواجه نقمة هؤلاء ونقمة الأتراك. وسرعان ما نشبت الفتنة في بغداد بين السنّة والشيعة، وأصبحت المدينة عرضة للنهب والسلب وفقدان الأمن. وبقي عزّ الدولة بختيار لا يهتمّ إلاّ بنفسه. واضطرّه الضعف والقلّة إلى الركون للدسائس، فزاد وضعه سوءًا مع قادته وحلفائه ورعيّته، ممّا أدّى إلى ثورة قادتِه الأتراك عليه سنة ٣٦٤ هـ / ٩٧٤م، فناصر سنّة بغداد هؤلاء القادة لأنّهم كانوا سنّة، بينما ناصر شيعتها عزّ الدولة، فوقعت الاضطرابات وسُفكت الدماء بغزارة. وبدأ السنّة يظهرون الغلبة على الشيعة يومًا بعد يوم. ولم تنفع محاولات ركن الدولة، عمّ عزّ الدولة، في نجدة ابن أخيه، أمّا ابن عمّه: عضد الدولة، فراح يتحيّن الفرص للانقضاض عليه طمعًا بحكم العراق. وبالفعل، فقبل نهاية هذه السنة، كان وضع عزّ الدولة قد قارب الانهيار تمامًا، فسار ابن عمّه عضد الدولة نحو العراق، متظاهرًا بنجدته، غير أنّه في الواقع، كان قاصدًا إزاحته والاستيلاء على إمارته.

تمكّن عضد الدولة من دخول بغداد بعد عبور الفرات وتغلّبه على الأتراك وأعوانهم السنّة، فانتزع الخليفة العبّاسيّ الطائع[1] من بين أيديهم، وكانوا قد اتّخذوه رهينة، وأعاده إلى دار الخلافة، واستقرَّ في قصر ابن عمّه، دون أن يُظهر نيّته بالاستيلاء على العراق خوفًا من أبيه ركن الدولة، فراح يحرّض جند ابن عمّه عليه، ويحرّضه، في الوقت نفسه، عليهم وعلى إخوته، إلى أن رأى عزّ الدولة: بختيار، نفسه عاجزًا عن الحكم، فاستعفى، وآلت القيادة إلى ابن عمّه الداهية: عضد الدولة.

---

١ ـ **الطائع لله:** هو عبد الكريم بن المطيع، الخليفة العبّاسيّ الرابع والعشرون ٣٦٣ ـ ٣٨١هـ/ ٩٧٤ ـ ٩٩١م، وُلد في بغداد ٣١٧هـ/ ٩٢٩م، تزوج ابنة عضد الدولة البويهي فتعزّز في عهده نفوذ البويهيّين الذين عزلوه وسجنوه فتوفّي سجينًا.

كان لهذا التطوّر فعل بدء التناحر في الدولة البويهيّة بسبب الصراعات السلطويّة التي ستنشأ بين أفراد الأسرة البويّهيّة. وقد أدرك أحد الأشقّاء الثلاثة مؤسّسي الدولة، وهو الوحيد الباقي على قيد الحياة: ركن الدولة، أدرك خطورة ما بدأ يجري، وإذ بلغه ما فعله ابنه عضد الدولة، "ألقى نفسه عن سريره إلى الأرض وتمرّغ عليها، وامتنع عن الأكل والشرب عدّة أيّام، ومرض مرضًا لم يشفَ منه باقي حياته". وفي خلال مرضه، أمر ركن الدولة ابنه عضد الدولة بإعادة العراق إلى ابن عمّه (ابن شقيق ركن الدولة) بختيار عزّ الدولة، فانصاع عضد الدولة على مضض، وراح ابنا العمّ ينتظران موت شيخ البويهيّين ركن الدولة، ليتناقما.

وبالفعل فمع مستهلّ سنة ٣٦٦ هـ / ٩٦٧م، مات ركن الدولة، مستخلفًا على ممالكه ولده عضد الدولة، وجعل الولايات لأبنائه الآخرين، موصيًا إيّاهم بالاتفاق وترك الاختلاف.

وصف المؤرّخون هذا العصاميّ البويهيّ الجليل بأنّه كان حليمًا واسع الكرم، كثير البذل، حسن السياسة لرعاياه وجنود، رؤوفًا بهم، عادلاً في الحكم بينهم، وكان بعيد الهمّة، عظيم الجدّ، متحرّجًا من الظلم، مانعًا أصحابه منه، عفيفًا عن الدماء، يرى حقنها إلاّ في ما لا بدّ منه؛ وكان يحامي عن أهل البيوتات، ويجري عليهم الأرزاق، ويصونهم من التبذّل، وكان يقصد المساجد الجامعة، في أشهُر الصيام، للصلاة، وينتصب لردّ المظالم، ويتعهّد العلويّين بالأموال الكثيرة، ويتصدّق بالأموال الجليلة على ذوي الحاجات، ويليّن جانبه للخاصّ والعامّ.

ما أن تسنّم عضد الدولة عرش الدولة البويهيّة بعد موت أبيه، حتّى سار إلى العراق لينتقم من ابن عمّه عزّ الدولة، وليحقّق أمنيته القديمة بالاستيلاء على بلاد الرافدين، فلاقاه عزّ الدولة إلى الأهواز، حيث كانت الواقعة، فدارت الدوائر على عزّ

الدولة. فاحتلّ عضد الدولة البصرة بسهولة، وفي السنة التالية، استولى على بغداد، ثمّ أمر بقتل ابن عمه عزّ الدولة بعدما قبض عليه في إحدى المعارك[1].

تُمثّل شخصيّة هذا القائد شخصيّة القادة الطموحين الأفذاذ، الذين لا يدعون أي مانع أو عائق أو حائل يعوق طموحاتهم. فبعد سيطرته على البلاد التي كان يسودها ابن عمّه، وسّع عضد الدولة السلطنة التي ورثها عن أبيه وعمّيه، حتّى أخضع المناطق الممتدّة من الخزر إلى كرمان وعُمان، ولقّب نفسه بشاهنشاه (ملك الملوك) لأول مرّة في تاريخ الإسلام، وقد بقي هذا اللقب لمَن جاء بعده من ملوك الفرس. وكان يعنى بمعرفة الأخبار وسرعة وصولها، فكانت تصل من بغداد إلى شيراز في سبعة أيّام. وأحكم نظام الجاسوسيّة والمخابرات، حتّى غدت أخبار الدنيا بين يدَيه، بفضل الجواسيس الذين دسّهم بين الملوك، فأصبح الناس في مصر يحترزون من ذكر اسمه. وقد طهّر السبل من اللصوص، ومحا أثر قطّاع الطرق، ومن أعماله أنّه دسّ على اللصوص في إحدى القوافل بغلة تحمل حلوى مسمومة فأكلوا منها وهلكوا؛ فأعاد النظام إلى صحراء جزيرة العرب، وصحراء كرمان بعد أن كانت قد أضحت مُخيفة. فتحقّق الأمن، وأقام للحجّاج سبل المياه على الطريق، واحتفر لهم الآبار، واستفاض الينابيع، وأدار السور على مدينة الرسول ﷺ، وأمر بإعادة بناء دور بغداد وأسواقها، منشئًا ما يشبه مؤسّسة للتسليف العقاريّ عن طريق بيت المال. ثمّ إنّه حضّر كثيرًا من أهل البادية، فزرعوا وعمّروا. وشيّد المستشفيات، وأمر بإدارة أرزاق الأوقاف واستثمارها بعد أن أصلح المساجد، وتجاوزت صدقاته أهل الإسلام إلى أهل الذمّة. كان يتصدّقُ في كلّ جمعة بعشرة آلاف درهم على الضعفاء والأرامل، ويصرف في

---

١ - راجع: إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٣٥٦ - ٣٥٨، ٦١٩، ٦٣٦، ٦٤٩ - ٦٥٢، ٦٦٩ - ٦٧٣، ٦٨٩ - ٦٩٠.

كلّ سنة ثلاثة آلاف دينار ثمن أحذية للحفاة من الحجّاج، وعشرين ألف درهم كلّ شهر لتكفين الموتى. واستحدث ثلاثة آلاف مسجد وخان للغرباء في مملكته، ولم يمرّ بماء جار إلاّ بنى عنده قرية. وكان يُنفق على أهل مكّة والمدينة وطرقهما ومصالحهما مئة ألف دينار كلّ سنة. وكان يبذل مالاً كثيرًا على بناء المصانع، وتنقية الآبار. ويُعطي سكّان المنازل التي في الطرقات ليقدّموا العلف لدواب المسافرين. وكان، إضافة إلى كلّ ذلك، يشجّع العلم والعلماء، ويُجري الأرزاق على الفقهاء والمحدّثين والمتكلّمين والمفسّرين والنحّات والشعراء، إضافة إلى الأطبّاء والحسّاب والمهندسين؛ وأفرد لأهل العلم والاختصاص والحكماء موضعًا بقرب مجلسه، وأنشأ مكتبة تحتوي على كلّ كتاب صُنّف إلى وقته من جميع أنواع العلوم[١].

وهو أوّل مَن أظهر قبر الإمام عليّ عليه السلام بن أبي طالب في النّجف الأشرف وبنى عليه. وقد أوصى بأن يُدفن في جوار عليّ عليه السلام في هذا المشهد الذي بناه. وبالفعل، فقد دُفن عضد الدولة حيث أراد، إذ مات سنة ٣٧٢ هـ / ٩٨٢ م[٢].

بعد أن أتمّ كلّ هذه الإنجازات بخلال ستّ سنوات فقط، ذلك أنّه تسنّم منصب الحكم سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦م، وقد كان عازمًا على القيام بمشروعات كثيرة، عاجلته المنيّة، بسبب مرض الصرع، ولم يتجاوز عمره السابعة والأربعين. وقد شبّهه أهل زمانه من العلماء بالإسكندر[٣]. وممّا قيل عند موته:

---

١ ـ مغنّية، دول الشيعة في التاريخ، مرجع سابق، ص٤١ ـ ٤٥ نقلاً عن: متز آدم، الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجري، تعريب محمّد عبد الهادي أبي ريدة.

٢ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٩: ١٩.

٣ ـ الغنّاوي، الأدب في ظلّ بني بويه (٩٤٩ هـ) ص١٢٧؛ السيّد مير علـيّ، مختصر تاريخ العرب، ص ٢٦٢؛ مغنّية، دول الشيعة، مرجع سابق، ص ٤٦ ـ ٥٦.

لقد شغرت الدنيا بوفاته.

بعد موت عضد الدولة، تفكّكت الدولة البويهيّة بسبب المنازعات التي نشأت بين أفراد الأسرة، وخاصّة بين الأشقّاء. وقد دامت الدولة، وحروبها الداخليّة، حتّى سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥م، بعد تعاقب سبعة ملوك على المملكة الشاسعة التي تركها عضد الدولة، هم:

صمصام الدولة (٣٧٢ هـ / ٩٨٢م - ٣٧٩ هـ / ٩٨٩م)

بهاء الدولة (٣٧٩ هـ / ٩٨٩م - ٤٠٣ هـ / ١٠١٢م)

سلطان الدولة (٤٠٣ هـ / ١٠١٢م - ٤١٦ هـ/ ١٠٢٥م)

جلال الدولة (٤١٦ هـ / ١٠٢٥م - ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣م)

أبو كاليجار (٤٣٥ هـ / ١٠٤٣م - ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤م)

الملك الرحيم (٤٤٦ هـ / ١٠٥٤م - ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥م)

وكانت نهاية دولة البويهيّين على يد طغرلبك السلجوقيّ الذي دخل مدينة بغداد سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥م، واستولى عليها، وقبض على الملك الرحيم، وسجنه في إحدى القلاع، بعد أن دامت الدولة البويهيّة حوالى قرن وربع (٣٢١ هـ / ٩٣٢م، ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥م). وقد ناصر البويهيّون مذهب التشيّع إلى أقصى حدّ، وكان الغالب في بغداد، قبل أن تصبح عاصمة بويهيّة، المذهب السنيّ، بينما غلب فيها بعدهم مذهب التشيّع الذي شهد إذ ذاك انتشارًا ملحوظًا في العراق.

دَولَـــــــةُ

الحَمَدانيِّين

نادرًا ما اعتبر المؤرّخون أنّ الدّولة الحمَدانيّة هـي دولـة شيعيّة بـالمعنى الواضـح للكلمة، وإنْ كان أكثر مؤرّخـي الشـيعة قد صنّفوهـا كذلـك. ولكـنّ الثـابت هـو أنّ هـذه الدولة قد شهدت هجرة جليّة لعلماء الشيعة إليها، وأشـهرهم الشـريف أبـو إبراهيم جدّ بني زهرة، الذي انتقل إلى حلب في عهد سيف الدولـة الحمدانـيّ (٣٠٣ ـ ٣٥٦ هـ / ٩١٥ ـ ٩٦٥م) فتحوّل بعض أهلها من السنّة الحنفيّة إلى التشيّع[١]. وكان المؤذّنـون فـي مساجد المدن الواقعة تحت حكم الحمدانيّين يؤذّنون بحيّ علـى خـير العمـل. وفـي سـنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٤م، ضرب سيف الدولة دنانير جديدة كتب عليها: "لا إله إلاّ الله ومحمّد رسول الله أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب فاطمة الزهراء الحسن والحسين جبريل عليهم السلام"[٢].

وقد اعتبر بعض المستشرقين، ومنهم بروكلمان Brockelman الألمانيّ في "تـاريخ الشعوب الإسلاميّة" أنّ الحمدانيّين إنّما اتّبعوا مذهب التشيّع إرضاء للفاطميّين"[٣]. ولكـنّ من يتعمّق في دراسة الحمدانيّين يجد أنّهم كانوا من الشيعة الاثنَي عشـريّة، وليس مـن الإسماعيليّة التي كانت مذهب الفاطميّين؛ وأوضح دليل على اثنَي عشـريّة الحمدانيّيـن، هو ما جاء في شعر كبير شعرائهم أبي فراس الحمداني (٩٣٢ ـ ٩٦٨) ابن عمّ سيف الدولـة الـذي قلّده إمـارة منبـج؛ فقـد نظـم هـذا الشـاعر الحمدانـيّ قصيـدة ميميّـة

---

١ ـ كرد عليّ محمّد، خطط الشام (دمشق، ١٩٢٥) ص٢٥٨.

٢ ـ مغنيّة، دول الشيعة، مرجع سابق، ص ٩,٣.

٣ ـ بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلاميّة، ترجمة منير البعلبكي (بيروت،١٩٥٤) ص٨٩.

طويلة جعل مقدّمتها مشحونة بالعطف على أهل البيت، وهاجية للعبّاسيّين لأنّهم لم يرُاعوا حرمة آل عليّ ﷺ، ثمّ مدح أئمّة الاثنَي عشريّة. وفي قصيدة ثانية، صرّح بمذهبه الاثنَي عشريّ بوضوح، إذ عدّد فيها الأئمّة الاثنَي عشر على أنّهم أئمّة مذهبه إذ قال:

لست أرجو النجاة من كلّ ما أخشاه إلاّ بأحمد وعليّ
وبنت الرسول فاطمة الطهر وسبطَيه والإمام عليّ
والتقيّ النقيّ باقر علم الله فينا محمّد بن عليّ
وابنه جعفر وموسى ومولانا عليّ أكرم به من عليّ
وأبي جعفر سميٌّ رسول الله ثمّ ابنه الزكيّ عليّ
وابنه العسكريّ والمظهر حقّي محمّد بن عليّ
فيهم أرتجي بلوغ الأماني يوم عرضي على مليكي عليّ

وفي أبيات أخرى، يتوسّل الشاعر الشفاعة بمحمّد وفاطمة والأئمّة الإثنَي عشر:

شافعيّ أحمد النبيّ ومولاي عليّ والبنت والسبطان
وعليّ وباقر العلم والصادق ثمّ الأمين ذو التبيان
وعليّ ومحمّد بن عليّ وعليّ والعسكريّ الداني
والإمام المهديّ في يوم لا ينفع إلاّ غفران ذي الغفران[1]

---

١ ـ الشعكة مصطفى، فنون الشعر في مجتمع الحمدانيّين؛ مغنيّة، دول الشيعة، مرجع سابق، ص ٩٥ ـ ١٠٠.

أسّس الدولة الحمَدانيّة حمَدان بن حمدون شيخ قبيلة تَغلِب من بطون ربيعة بن نزار. وكان هؤلاء من نصارى العرب في الجاهليّة.

كان حمدان أميرًا على قلعة ماردين قرب الموصل من قِبَل العبّاسيّين. وفي عهد المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ / ٨٩٢ ـ ٩٠٢ م) مال حمَدان إلى الخوارج، فسار إليه الخليفة العبّاسيّ وهدم قلعته بعد أن سارع حمَدان بالانتقال إلى قلاع أخرى بقرب الموصل، فتبعه المعتضد حتّى ظفر به بعد مطاردة طويلة[1].

بعد موت المعتضد، ولّى المكتفي سنة ٢٩٣ هـ / ٩٠٥م ابن حمَدان: عبد الله، الموصل، فتمكّن من ضبطها بعد تغلّبه على الأكراد[2].

ونلتقي بابنٍ آخر لحمَدان بعهد المقتدر، هو الحسين بن حمَدان، وقد خرج على طاعة الخليفة العبّاسيّ بالجزيرة. وبنتيجة ملاحقة المقتدر له سنة ٣٠٣ هـ / ٩١٥م، قُبض على الحسين وإخوته وحُبسوا، وقُتل ابن الحسين في آمد إذ هرب مع إخوته إلى هناك، وأُرسل رأسه إلى الخليفة ببغداد، بينما بقي عبد الله متولّيًا الموصل التي راح يحكمها من بغداد، وينوب عنه بالموصل ولده ناصر الدولة[3]، وذلك في أحداث سنة ٣١٤ هـ / ٩٢٦م، إذ يظهر اسم ناصر الدولة لأوّل مرّة في المدوّنات.

بعد أربع سنوات من ذلك التاريخ (٣١٨ هـ / ٩٣٠م) وكان لا يزال العهد للخليفة العبّاسيّ الثامن عشر: المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ / ٩٠٨ ـ ٩٣٢م) عُزل ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان عن الموصل ووُلّيها عمّاه سعيد ونصر ابنا حمَدان، بينما

---

١ ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ٤٦٦، ٤٦٩؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ٣٤٦.

٢ ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ٩٣ ـ ٩٤، ١٦٣.

٣ ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٩٣ ـ ٩٤، ١٦٣.

وُلّي ناصر الدولة ديار ربيعة، ونصيبين، وسنجار، والخابور، ورأس عين، ومعها من ديار بكر ميافارقين، وأرزن، وذلك لقاء مبلغ مقطوع من المال[1]. غير أنّ ناصر الدولة عاد واستولى على الموصل بعد أن قتل رجاله، بأمر منه، أحد عمَّيه الواليَين عليها. حدث ذلك سنة ٣٢٣ هـ / ٩٣٤م، بعهد الخليفة العبّاسيّ الراضي[2].

أحكم ناصر الدولة قبضته على الموصل بعد عدّة وقعات بينه وبين القادة الأتراك في الخلافة العبّاسيّة، حتّى تمكّن منهم، سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤١م، في عهد الخليفة العبّاسيّ الحادي والعشرين: المتّقي (٣٢٩ ـ ٣٣٣ هـ / ٩٤٠ ـ ٩٤٤م) الذي اعتمد لقب ناصر الدولة للحسن بن عبد الله الحمَدانيّ، ولقّب أخاه أبا الحسن عليًّا بسيف الدولة. حتّى إنّ المتّقي جعل ناصر الدولة "أميرًا للأمراء"[3]. وبدا أنّ ذلك قد كان إيذانًا بقرب سطوع نجم الحمدانيّين، إذ منذ ذلك التاريخ، أصبح ناصر الدولة وأخوه سيف الدولة وبعض أقربائهما، يشكّلون القوّة العمليّة في قصر الخليفة وممالكه، خاصة في حروب المتّقي مع البريديّين[4]. إلاّ أنّ القائد التركيّ المملوكيّ توزون، استطاع أن ينتزع بغداد من الحمدانيّين، وأن يطيح الخليفة سنة ٣٣١ هـ / ٩٤٢م، بينما بقيت المناطق الأخرى خاضعة للحمدانيّين[5]، وقد لجأ إليها الخليفة قبل أن يعود إلى بغداد ليُطيحه توزون.

---

١ ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٢١٦.

٢ ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٣٠٩ ـ ٣١٠؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٤: ٣٤٠.

٣ ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٢٥٣ ـ ٢٥٤، ٣٨٢ ـ ٣٨٣.

٤ ـ **البريديّون**: هم ثلاثة إخوة، كان أبوهم صاحب البريد في البصرة، لعبوا دورًا خطيرًا على أيّام المقتدر وخلفائه، حاربهم "ابن رائق، أمير الأمراء" دون جدوى، حاربوا معزّ الدولة البويهي فطردهم من البصرة، أكبرهم عبد الله أحمد (ت٣٣٣هـ/ ٩٤٥م) كان عاملاً على الأهواز فجمع ثروة طائلة في وزارة ابن مقلة، اغتال أخاه أبا يوسف يعقوب ٩٤٣، أمّا الأخ الثالث أبو الحسين فقد أُعدم في بغداد ٩٤٥.

٥ ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ص ٣٤٨، ٣٩٤، ٣٩٦ ـ ٣٩٩.

وبقيت الموصل بأيدي الحمدانيّين حتّى سنة ٣٦٧ هـ / ٩٨٧م إذ انتزعها منهم البويهيّون على يد عضد الدولة.

بينما كان أبناء ناصر الدولة، الذي توفّي سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨م، يتنازعون الموصل، كان شقيق ناصر الدولة: سيف الدولة، يحلم بما هو أهمّ من ولاية أو إمارة، فاتّجه بطموحه نحو حلب، التي كانت تتأرجح بين حكم الخليفة العبّاسيّ في بغداد، والإخشيديّين[١] في مصر ودمشق، وهي على حدود الأعداء الأساسيّين: البيزنطيّين. فراح يتحيّن الفرصة.

ويبدو أنّ هذه الفرصة قد حانت في أواخر سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٤م، إذ سار سيف الدولة بجيشه إلى حلب، وانتزعها من يد والي الإخشيديّين بدون مقاومة تُذكر. ومن حلب، سار سيف الدولة إلى حمص التي استولى عليها هي الأخرى بعد قتال قصير، ولكنّه عجز في هذه الحقبة عن الاستيلاء على دمشق التي امتنعت عليه رغم حصارها لبعض الوقت. وتمكّن سيف الدولة من الإبقاء على سيطرته على حلب وحمص رغم قتاله الطامحين بهما على ثلاث جبهات: العبّاسيّين، والإخشيديّين والبيزنطيّين[٢]. ثمّ بعد وقت قصير، عُقد صلح بين سيف الدولة والإخشيديّين، نصّ على أن تكون حلب وحمص وأنطاكية للحمدانيّين، ودمشق للإخشيديّين، وإذ كان الإخشيديّون من أهل السنّة، كثر التسنّن في دمشق، بينما كثر التشيّع في شمال الشام بعهدهم[٣]. وقد تمكّن

---

١ ـ **الإخشيديّون**: أصلهم من إيران، حكموا سوريا ومصر ٩٣٥ ـ ٩٦٩ في أعقاب الدولة الطولونيّة والقرمطيّة، أنهى الفاطميّون حكمهم باستيلائهم على مصر ٩٦٩، وهم: محمّد بن طغج، أبو القاسم أنوجور بن إخشيد، أبو الحسن علي بن إخشيد، أبو المسك كافور، أبو الفوارس أحمد بن علي.

٢ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ص٤٤٥ ـ ٤٤٦.

٣ ـ كرد عليّ، خطط الشام، مرجع سابق، ١: ٢١٨.

هذا المحارب الفذّ من القضاء على فتن داخليّة كثيرة نشبت بحلب خلال حكمه، فكان يردّ تلك الفتن بيد، ويغزو بلاد الروم ويردّ الهجمات الخارجيّة للطامعين باليد الثانية، وقد استمرّ هذا الوضع على حاله حتّى وفاته سنة ٣٥٦ هـ / ٩٦٥م بمرض الفالج، فملك بلاده بعده ابنه أبو المعالي الشريف الملقّب بسعد الدولة، بعد حروب ومنازعات مع خاله أبي فراس، ثمّ مع حاجبه قرغويه. واستقرّت له الأمور في عهد الخليفة العبّاسيّ، الطائع (٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ / ٩٧٤ ـ ٩٩١م) وقد أكمل سعد الدولة نهج أبيه، وصمد في وجه الروم وهزمهم، حتّى توفّي بالفالج كأبيه سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١م، وهو على أرض المعركة بخلال تمرّد أحد قوّاده الذي انحاز إلى الفاطميّين[١]، إلاّ أنّه كان قد خسر حكم أنطاكية أمام الروم.

خلف سعد الدولة ابنه أبو الفضائل الملقّب بسعيد الدولة، فاضطرّ إلى محاولة الاستعانة بالروم ضدَّ الفاطميّين الذين حاولوا الاستيلاء على ملكه كما فعلوا في عهد أبيه. ولكنّ النجدة البيزنطيّة لم تصل إليه بسبب قطع الطريق عليها من قِبَل الفاطميّين[٢]. وهكذا سقطت المملكة الحمَدانيّة التي كانت تضمّ حلب وحمص، بيد الفاطميّين سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١م.

لا شكّ في أنّ أبرز وجوه الدولة الحمَدانيّة إنّما هو سيف الدولة، الذي حقّق انتصارات عسكريّة باهرة، وقد ازدهرت في عهده الآداب والعلوم، فنبغ في بلاطه المتنبّي وأبو فِراس الحمدانيّ[٣]، وأبو نصر الفارابي الفيلسوف، وإليه قدّم أبو الفرج

---

١ ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٩: ٨٥ ـ ٩٠.

٢ ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٩: ٩٠.

٣ ـ قُتل أبو الفراس على يد أبي المعالي، ابن سيف الدولة، وهو ابن أخت أبو الفراس، بسبب "وحشة وقعت بينهما". ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٥٨٨.

الأصفهانيّ كتاب الأغاني.

أمّا إخوة سيف الدولة، فكانوا قد فقدوا سلطتهم على الموصل إثر منازعات دامية في ما بينهم، ما أدّى إلى إضعافهم وانهيار حكمهم في حوالى سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٧م.

وبزوال الدولة الحمدانيّة، بدأت الإثنا عشريّة بالضعف في بلاد الشام، وفُتح الباب واسعًا أمام الإسماعيليّة التي بلغت أوج انتشارها في عهد الخلافة الفاطميّة.

الخِلافَة الفَاطِميَّة

الأئمَّة المَستُورُون؛

مَسألة أصل عبَيدَ الله المهديّ؛ أبو عبدِ الله الشّيعيّ؛

الخِلافَة الفَاطِميَّة في طَورِهَا الأوّل؛ أبو الحَسَن جَوهَر الصّقّلي؛

الحَاكم بأمر الله؛ إختِفَاء الحاكم؛

إنهيَار الدّولة الفاطميّة.

الأئمّة المستورون

لمّا اختلف الشيعة على مسألة مَن يكون الإمام بعد موت جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ/ ٧٦٥م، وهو الإمام السادس، وقد عدل بعضهم عن الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق، الذي اعتبره سائر الشيعة الإمام السابع، فقال أولئك العادلون عن موسى بإمامة إسماعيل أخي موسى، فعُرفوا بالإسماعيليّة.

وبما أنّ إسماعيل بن جعفر، كان قد توفّي قبل موت أبيه جعفر، فقال هؤلاء بإمامة ابنه محمّد بن إسماعيل، واختلفوا في مَن يكون الإمام السابع: إسماعيل أم ابنه محمّد؟ على أنّهم عُرفوا جميعًا بالإسماعيليّين، وساروا على المعتقد نفسه، واتّبعوا سلسلة الأئمّة نفسها، وهي تتمثّل، بعد إسماعيل ومحمّد، بابن محمّد: جعفر، ثمّ محمّد بن جعفر الملقّب بالحبيب.

وقال الإسماعيليّة، وقد عُرفوا أيضًا بالسبعيّة نسبة إلى الإمام السابع، قالوا بغيبة محمّد بن إسماعيل، واعتبروه المهديّ المنتظر. واتّبع أصحاب هذا القول التقيّة في مسلكهم الدينيّ، وبقي أئمّتهم في حالة من السريّة، عُرفت بحالة الستر، إتّقاء لشرّ الخلفاء العبّاسيّين ومناهضتهم لسلالة أهل البيت، فيما كانت العلاقات بين الخلفاء وأئمّة الاثني عشريّة، أو الإماميّة، من الشيعة، على الوضع الذي جاء تأريخه في الفصول السابقة.

بعد اختفاء محمّد بن إسماعيل الملقّب بمحمّد المكتوم، وهو بعد في الخامسة عشرة من عمره، وقد اختفى في المدينة المنوّرة حيث وُلد، ويقال إنّه هرب خوفًا من غضبة الخليفة العبّاسيّ هارون الرّشيد، واختبأ في مكان بالقرب من الريّ في بلاد فارس، ولم يعرف أحد عنه شيئًا، تفرّق نسله في الشرق والغرب، أمّا الأئمّة الذين جاؤوا بعده في المذهب الإسماعيليّ، فقد جعلوا من بلدة سلَميَّة بين حمص وحماة مخبأً ومقامًا لهم. وتُعرف سلَميَّة اليوم بالسَّلْميّة.

وباعتبار أنّ المهديّ، إنّما هو الإمام الغائب: محمّد المكتوم، وبانتظار ظهور المهديّ هذا[1]، كان كلّما قام إمامٌ تسمّى بمحمّد، والإشارة بذلك إلى محمّد ابن إسماعيل، "والمراد بإسماعيل عبد الله، والمراد بمحمّد كلّ مَن كان في عصره... إلى أن يظهر صاحب الظهور، وهو محمّد، فتزول التقيّة التي بدأت في عهد جعفر الصادق وبأمر منه، وهو الذي، باعتقاد الإسماعيليّة، كتم اسم الإمام بعده إلاّ عن بعض الثقات"[2].

وهكذا اتُّبعت السريَّة التامّة في ستر الأئمّة. وقد بقي هؤلاء الأئمّة على هذه الحال من الستر حتّى ظهور عبيد الله المهدي قبل نهاية القرن الثالث للهجرة، بداية القرن العاشر ميلاديّ.

وبحسب الإسماعيليّة، فإنّ آخر أولئك الأئمّة المستورين كان أحمد، الذي خلف أباه إسماعيل الثاني بن محمّد بن إسماعيل، وبه بدأ الستر.

---

١ ـ هو غير الإمام الثاني عشر المهديّ عند الاثني عشريّة؛ راجع الفصل الثاني من هذا الكتاب.

٢ ـ المهديّ عبد الله، في نسب الخلفاء الفاطميّين (بالاستناد إلى كتاب أرسله المهديّ عبد الله إلى ناحية اليمن) تقديم حسين فيض الله الهمذاني (القاهرة،١٩٥٨) ص ٩ ـ ١٠.

مَسـألة أصـــل

عبَيدَ اللهَ المهديّ

تقول الإسماعيليّة بأنّه كان لآخر الأئمّة المستورين ابن يُدعى أبا محمّد عُبَيْد اللـه، وبأنّ أبا محمّد عبيد الله هذا، إنّما هو المهديّ المنتظر. وبذلك يكون عبيد الله هـو ابن أحمد بن إسماعيل الثاني بن محمّد إسماعيل بن جعفر بن محمّد علـيّ بـن الحسـين بـن عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

غير أنّ هذا النسب قد تعـرّض لكثير مـن التشـكيك ومـن التكذيـب عـبر التـاريخ، خاصة من قِبَل مناهضي الإسماعيليّة من علماء الأنساب المسلمين.

وبينمـا نجـد عنـد مَن يؤكّـدون علـى صحّـة النسب بعض الإسناد، لا نجـد عنــد المشكّكين والمكذّبين ما يمكن الركون إليه.

وقد زعم بعضهم أنّ عبيد الله فارسيّ الأصل، يعود نسبه إلى القدّاح عبد اللـه بـن ميمون بن ريحان المتوفّي بعد سنة ٢٧٦ هـ / ٨٨٩م، صـاحب كتـاب الميزان، الـذي عدُّوه الداعية الأوّل للباطنيّة، ونسبوا إليه "القدّاحيّة"، وقالوا إنّه لُقّـب بـالقدّاح لأنّـه كـان "يعالج العيون ويقدحها".

خلف القدّاح في تزعّـم أتباعـه مـن القدّاحيّـة ابنـه أحمـد الملقّـب بعبـد اللـه، فـراح، بالتعاون مع بعض الأنصار، يبثّ الدعوة الباطنيّة سرًّا، في نواحي العـراق والجزيـرة، ويبشّر بقرب مجيء المهديّ، ويجمع حوله المقاتلين والأنصار. وسرعان ما بثّ الدعاة في بلاد المغرب، وكان من جملة هؤلاء، رجل اسمه أبو عبد اللـه، أرسـله ابـن القدّاح إلى أرض كتامة من المغرب، ليكمل الدعاية التي كان قد بـدأ بهـا رسـولان سـبقاه إلـى هناك، فماتا بعد عمل ناجح استمرّ سنوات.

وتقول روايات أخرى بأنّه لمّا توفّي عبد الله بن ميمون القدّاح، ادّعى أبناؤه أنّهم من أحفاد عقيل بن أبي طالب، وأنّ آباءهم كانوا يسترون نسبهم إتّقاء لشرّ العبّاسيّين. وقد خلف عبد الله ولده محمّد الذي قاد الدعاة، ثمّ خلفه في ذلك ولداه: أحمد والحسين.

وبحسب هذه الروايات أنّ الحسين قد أصبح صاحب الأمر، "والدعاة باليمن والمغرب يكاتبونه ويراسلونه؛ واتّفق أنّه جرى بحضرته حديث النساء بسلميّة، فوصفوا له امرأة رجل يهوديّ حدّاد، مات عنها زوجها، وهي في غاية الحسن، فتزوّجها، ولها ولد من الحدّاد يماثلها في الجمال، فاحبّها وحسن موقعها معه، وأحبّ ولدها، وأدّبه، وعلّمه، فتعلّم العلم، وصارت له نفس عظيمة وهمّة كبيرة. وعندما مات الحسين، لم يكن له ولد، فعهد إلى ابن اليهوديّ الحدّاد، وكان عرّفه أسرار الدعوة... وأعطاه العلامات، وجعله الإمام الوصيّ، وزوّجه ابنة عمّه أبي الشلغلغ، وجعل له اسمًا ونسبًا هو: عبيد الله بن الحسن بن عليّ بن محمّد بن عليّ بن موسى بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسن بن عليّ ﵇ بن أبي طالب". وبحسب أصحاب هذا الرأي يكون أصل عبيد الله يهوديًّا. ويغالي آخرون في التخمين بالنسبة لأصل عبيد الله، فيقولون بأنّ المهديّ الحقيقيّ قُتل في سجن سجلماسة، وإنّ عبيد الله الذي خرج من السجن، كما سيجيء، لم يكن إلاّ يهوديًّا تقمّص شخصيّة الزعيم المنشود، ولعب دور المهديّ المنتظر[1].

---

[1] راجع: MAMOUR P. H., *POLEMICS ON THE ORIGIN OF THE FATIMI CALIPHS* (LONDON,1934) PP.26SEQ., 43SEQ., -SE.; IVAVOW W., *ISMAILI TRADITION CONCERNING THE RISE OF FATIMIDS* (OXFORD,1942). PP. XVII421 XIX, 127SEQ.; ابن خلّكان، وفيّات الأعيان (القاهرة،١٢٩٩هـ.) ١: ٤٨٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نشر جوينبول (ليدن،١٨٥٥) ج ٢ قسم ٢ ص١١٢؛ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٢٤ ـ ٣٧؛ للاستفاضة، راجع: أحمد شرف حسن وطه، عبيد الله المهديّ (القاهرة،١٩٤٧).

جميع هذه الروايات، تبقى اجتهادات غير مبنيّة على أساس يُركن إليه. ومع عدم نكران الغموض الذي يكتنف أصل عبيد الله، فما يجب التذكير به في هذا المجال، هو ذلك الخوف الذي كان مسيطرًا على كلّ مَن ينتسب إلى بيت عليّ ﷺ في تلك الحقبة من التاريخ، التي كان كلّ مَن يتجرّأ فيها على عدم الذمّ بأصل المهديّ، عبيد الله، يعرّض نفسه للقتل[1]. وإذا كان عدد من مؤرّخي السنّة قد أكّد على عدم صحّة النسب العلويّ لعبيد الله، فإنّ مؤرّخين سنّة عظماء، قد أكّدوا على صحّة هذا النسب، ومنهم ابن خلدون، وإبن الأثير[2].

على أيّ حال، فالثّابت أنّ عبيد الله هذا، قد وُلد في سلميّة سنة ٢٦٠ هـ / ٨٧٣م[3]، تلك البلدة المنعزلة الواقعة في بلاد الشام، إلى الجنوب الشرقيّ من حماة، والتي كانت قد غدت في ذلك الزمن، مقرًّا لرؤوس الإسماعيليّة، ومركزًا رئيسيًّا لنشاطهم.

أبو عبدِ الله الشّيعيّ

أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمّد بن زكريّا، المعروف بأبي عبد الله الشيعيّ، الذي أرسله الأئمّة الإسماعيليّون إلى بلاد المغرب لبثّ دعوتهم، كان في أوّل أمره شيعيًّا من الاثنَي عشريّة، لا من السبعيّة ـ الإسماعيليّة. وهو من مواليد صنعاء،

---

١ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٢٤ ـ ٢٥.

٢ ـ راجع: ابن خلدون، كتاب العبر، ٤: ٣١ وما بعدها؛ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٢٤ وما بعدها.

٣ ـ راجع: حتّي، صانعو التاريخ العربيّ، ص ١٤١.

عاصمة اليمن، وكان ذا مواهب وميّزات جعلت منه داعيةً إسماعيليًّا ممتازًا. بدأ دعوته، في حوالى سنة ٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م، بين قبائل البربر، من بني كتامة[١]، وقد قصد التقرّب منهم وهم في مكّة لتأدية فريضة الحجّ في تلك السنة. "فسمعهم يتحدّثون بفضائل أهل البيت، فأظهر استحسان ذلك، وحدّثهم بما لم يعلموه..."، ثمّ ترافق معهم وهم في طريقهم إلى بلادهم، مدّعيًا أنّه ذاهب إلى مصر. ولمّا وصلوا إلى مصر، تمنّوا عليه أن يرافقهم إلى بلادهم ووعدوه بإتّباعه ونصرته "ولم يزالوا حتّى أجابهم إلى المسير معهم، بعد الخضوع والسؤال". وكان وصول إبي عبد الله إلى أرض كتامة في بداية سنة ٢٨٠ هـ / ٨٩٢ م[٢].

عندما وصل أبو عبد الله الشيعيّ إلى أفريقيا الشماليّة، كانت هذه المنطقة من العالم مجزّأة سياسيًّا إلى دويلات، بعضها مستقلّ تمامًا، وبعضها شبه مستقلّ، إضافة إلى توزّع مجموعات قبليّة في مناطق لا تعترف بأيّة سلطة سوى سلطة زعمائها القبليّين.

وسط هذا التجزّؤ، كانت تلك الدويلات على غير مذهب، فبعضها كان شيعيًّا، وبعضها سنّيًّا، وبعضها الآخر من الخوارج. أضف إلى ذلك: التوزّع العرقيّ. فبينما القبائل المحليّة كانت من العرق الحاميّ، كان الحاكمون ومَن هاجر معهم من العرق الساميّ. وبذلك كان الجزء الشماليّ من أفريقيا في حال عدم اسقرار، لا بل في حال من التردّي الاقتصاديّ والاجتماعيّ. وكان الجزء الشرقيّ من أفريقيا تحت حكم

---

١ ـ **بنو كتامة**: قبائل بربريّة، ناصرت الفاطميّين في القضاء على الأغالبة في المغرب خلال القرن العاشر، اعتنق أهلها مذهب الشيعة الذي نشره بينهم أبو عبد الله الشيعيّ.

٢ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ج ٨ ص ٣١ ـ ٣٢.

الطولونيّين[1] السُنَّة (٢٥٥ ـ ٢٩٣ هـ / ٨٦٨ ـ ٩٠٥ م). وكانت عاصمتهم: القطائع، بالقرب من الفسطاس الواقعة بالقرب من بابليّون على الضفّة الشرقيّة للنيل. أمّا القسم الأوسط من شماليّ أفريقيا الذي يشمل تونس وغرب ليبيا وشرق الجزائر، فكان تحت حكم الأغالبة[2] السنّة أيضًا، الذين حكموا المنطقة بين ١٨٥ ـ ٢٩٧ هـ / ٨٠٠ ـ ٩٠٩ م وجعلوا عاصمتها القيروان التي تشكّل اليوم مدينة تونسيّة ومركز ولاية.

وإذا كان الطولونيّون قد احتفظوا بشيء من الذكر للخليفة العبّاسيّ، فإنّ الأغالبة كانوا قد كفّوا عن نقش اسم الخليفة على نقودهم، ما يعني عدم الاعتراف بسلطته.

أمّا المغرب، الذي يشكّل الجزء الغربيّ من أفريقيا، فكان قد أضحى دولة شيعيّة، هي دولة الأدارسة التي مرّ التعريف بها عبر الفصول السابقة، وقد دامت من سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨م، إلى سنة ٣٦٤ هـ / ٩٧٤م[3].

وسط هذه الأحوال، وصل أبو عبد الله الشيعيّ داعية للإسماعيليّة قبل نهاية القرن الثالث للهجرة، والقرن التاسع للميلاد. وبدهاء وذكاء خارقَين، راح يستقطب حوله البربر، دون أن يذكر لهم في البداية أمر المهديّ. وقد انطلق أبو عبد الله مع بني كتامة في أعماله من مكان جبليّ يُعرف بفجّ الأخيار، فقال لهم:

---

١ ـ **الطولونيّون**: نسبة إلى أحمد بن طولون (ت٢٧٠هـ/ ٨٨٤م.): مؤسّس الدولة الطولونيّة ٨٦٨ ـ ٩٠٥، أبوه طولون كان مملوكًا تركيًا أُهدي إلى الخليفة المأمون فأصبح قائد حرس المعتصم، خدم أحمد في طرسوس، نال ثقة لدى المستعين، والي مصر ٨٦٨، استقلّ بالحكم وأنشأ "القاطع" عاصمة له بالقرب من الفسطاس، مدّ سلطانه على سوريا والثغور والموصل، بنى الجامع المعروف باسمه في القاهرة.

٢ ـ **الأغالبة أو بنو الأغلب**: سلالة إسلاميّة حكمت بلاد أفريقيا الشماليّة في عهد الخلافة العباسيّة ٨٠٠ ـ ٩٠٩، كانت عاصمتهم القيروان، مؤسّسهم إبراهيم بن الأغلب وآخرهم زيادالله الثالث عبد الله، كسره أبو عبد الله الشيعيّ داعي الفاطميّين، تركوا آثارًا لبنايات فخمة.

٣ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربيّ، ص١٤٣. ـ ١٤٤.

لقد جاء في الآثار: إنّ للمهديّ هجرة تنبو عن الأوطـان، ينصـره فيهـا الأخيـار مـن أهل ذلك الزمان، قوم مشتقّ اسمهم من الكتمان، فإنّهم كتامة[1].

وبذلك أصبح بنو كتامة "شعب المهديّ المختار"، وغنيّ عن المعالجة إذّاك كيف أنّ قبائل كتامة والته إلى حدّ الفداء.

لم يمضِ وقت طويل حتّى تزعّم أبو عبد الله مناطق شاسعة من تلك التي لم يكن أهلها البربر ليعترفوا بأيّة سلطة قبل مجيئه. وكانت مناطقهم لا تزال على حال البراءَة القياديّة القبليّة وسط تلك الدول المحيطة بها. وقد سبق تلك السيطرة عدّة معارك بين ابي عبد الله وأنصاره الكتاميّين وبين سائر قبائل البربر، وكان النصر دائمًا حليف الداعية الإسماعيليّ، وكانت النتيجة مزيدًا من الاستقطاب والتوسّع، إلى أن بلغ وضعًا ممتازًا لكثرة ما أصبح لديه من أتباع ومقاتلين، ولنوعيّة التنظيم العسكريّ والسياسيّ الذي أجاد تطبيقه، فأصبح مستعِدًّا للانقضاض على الدويلات الأفريقيّة المبعثرة.

بدأ أبو عبد الله تطبيق طموحاته بالدولة الأغلبيّة. وكان قد بلغ عدد أفراد جيشه نحو مائتَي ألف مقاتل بين فارس وراجل. وراحت حصون الأغالبة تسقط تباعًا أمام الجيش البربريّ ـ الإسماعيليّ الظافر، بعد أن كان أبو عبد الله قد باح للناس بأمر المهديّ: عبيد الله.

في هذه الأثناء، كان أمر عبيد الله المهديّ قد شاع في سلميّة، ووصلت أخباره إلى الخليفة العبّاسيّ السابع عشر: المكتفي (٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ / ٩٠٢ ـ ٩٠٨ م.) الذي سارع إلى إرسال الجواسيس لقتله، فهرب عبيد الله ومعه ابنه أبو القاسم نزار،

---

١ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ج ٨ ص ٣٢ ـ ٣٣.

الذي كان يومئذ غلامًا، والذي سيتزعّم الفاطميّين بعد أبيه وسيلقّب بالقائم. واصطحب عبيد الله المهديّ معه خاصتّه ومواليه، واتّجه نحو المغرب، مُتخفيًا بزيّ التجّار.

عندما وصل عبيد الله المهديّ إلى مصر، كان واليها قد تلقّى كتاب الخليفة العبّاسيّ الملحّ في طلب القبض عليه وقتله. وبفضل تشيّع بعض موظّفي الولاية، تسرّبت المعلومات إلى موكب عبيد الله الذي تمكّن من الخروج من مصر مع أصحابه متخفّيًا، ومعه أموال كثيرة، وقد أوسع النفقة على مَن صحبه. بيدَ أنّ العامل المصريّ قد تمكّن من إدراك المهديّ قبل خروجه من أرض ولايته. ولا شكّ في أنّ الأموال لعبت دورها التقليديّ هنا، وأكمل المهديّ وصحبه مسيرهم حتّى وصلوا إلى مدينة طرابلس الغرب، رغم تعرّض قافلتهم لهجمات اللصوص الذين تمكّنوا من السطو على بعض متاعها، ومن جملتها "كتب وملاحم لآبائه، عظم أمرها عليه...".

كان مع المهديّ أخ لأبي عبد الله، اسمه أبو العبّاس، فأرسله من هناك إلى أخيه عبد الله الشيعيّ في أرض كتامة. ولكنّ الحاكم الأغلبيّ في القيروان، قبض على أبي القاسم، قبل أن يصل إلى أخيه. ذلك أنّ الملك الأغلبيّ: زيادة الله الثالث (٢٩١ ـ ٢٩٧ هـ / ٩٠٣ ـ ٩٠٩ م) كان جمع المعلومات الكاملة حول تحرّكات المهديّ وأَصحابه.

في الوقت نفسه، كان المهديّ يتلقّى المعلومات من أبي عبد اللّه الذي لم ينقطع عن مراسلته أبدًا. لذلك فضّل المهديّ الانتقال من طرابلس إلى مكان آخر، بانتظار التمكّن من العبور إلى أرض كتامة. وعندما التقى قافلة في طريقها إلى سجلماسّة، في أقصى الجنوب من مراكش، ذهب معها. وكان والي تلك المدينة من الخوارج، الذين يضمرون العداء لكلّ متشيّع، خاصّة إذا كان يمتّ بأيّ نسب إلى آل البيت. غير أنّ

ذلك الخارجيّ لم يعرف حقيقة أمر عبيد الله ونسبه فأنزله ضيفًا في داره، مقابل الكرم السخيّ لذلك الضيف المميّز. ولكن لم يطل الوقت حتّى أتت ذلك الخارجيّ المعلومات عن حقيقة ضيفه، فسارع إلى اعتقاله وإلقائه في السجن، وأمر بتعذيبه حتّى يبوح بحقيقة شخصه وأهدافه، بيدَ أنّ عبيد الله لم يبح بشيء، كذلك فعل ابنه السجين في زنزانة أخرى.

كان عبيد الله، وهو في سجنه بسجلماسّة، يتلقّى الأَخبار عن تقدّم أبي عبد الله في فتوحاته، وانهيار أسطورة قوّة الأغالبة التي لا تقهر، أمام جيشه الظافر. ولم يمضِ وقت طويل حتّى كانت القيروان، عاصمة الأغالبة، تطلب الاستسلام إلى أبي عبيد الله وجيشه الإسماعيليّ بعد أن أصبح هذا الجيش على مشارف مداخل رقّادة: مقرّ سكن ملوك الأغالبة القريب من العاصمة. وبسقوط القيروان، أصبحت السيطرة الإسماعيليّة على أفريقيا أمرًا محتومًا.

بينما اتّخذ أبو عبد الله الشيعيّ القصر الملكيّ مقرًا له، وراح يتصرّف تصرّف الملوك، وجيشه يتنعّم بنساء المدينة المغلوبة على أمرها وبشرابها وبطعامها، وبتقاسم كنوزها ومغانمها، كان المهديّ لا يزال سجين سجلماسّة. وأعطى أبو عبد الله نفسه الوقت لسكّ نقوده، وقد نقش على وجهها: "بلغت حجّة الله" وعلى قفاها "تشتّت أعداء الله". ونقش على خاتمه ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾[1]. وكتب على رايته: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[2]. وعلى أفخاذ خيله "الحكم لله". وعندما كان يركب كان المنادي يصيح: "إركبوا يا جنود الله". ولم يذكر في صلاة الجمعة أسماء الخلفاء، وإنّما

---

١ ـ النمل: ٧٩.

٢ ـ القمر: ٤٥.

كان يذكر النبيّ محمّدًا ﷺ والحسين وفاطمة.

ونلاحظ هنا أنّ أبا عبد الله قدساير الخوارج، إن في عبارة "الحكم لله" أم في تجاهل عليّ عليه السلام في الدعاء. كما نلاحظ أنّ الاعتبار الإسماعيليّ لسلالة أهل البيت إنّما هو اعتبار لفاطمة وليس لعليّ عليه السلام، وهذا ما سوف يعطي للدولة الإسماعيليّة اسم: الفاطميّة.

كان أبو عبد الله، إثر سيطرته على القيروان، قد أخرج أخاه أبا العبّاس من السجن سالمًا معافى. وبعد انقضاء ثلاثة أشهر على فتح القيروان، توجّه أبو عبدالله جنوبًا لإخراج عبيد الله المهديّ من سجنه، وكلّف أبا العبّاس بتصريف الشؤون بغيابه.

كانت القبائل والمدن الواقعة على طريق أبي عبد الله تعلن له الخضوع دونما مقاومة، باستثناء سجلماسّة، التي حاولت الدفاع، بيدَ أنّها سقطت سريعًا، ولم ينجُ واليها من القتل.

يروي أكثر المؤرّخين أنّ أبا عبد الله، عندما دخل سجلماسّة برجاله منتصرًا، قصد سجن عبيد الله المهديّ، وحرّره منه هو وابنه "فكانت الناس في مسرّة عظيمة كادت تذهب بعقولهم"، وقد عمد عبد الله إلى التطواف بالمهديّ وابنه راكبَين على المطايا، وهو ورؤساء القبائل سائرون حولهما، وأبو عبد الله يقول للناس: "هذا مولاكم" وهو يبكي من شدّة الفرح[1].

إلاّ أنّ بعض المشكّكين بحقيقة المهديّ من المؤرّخين، يذكر أنّ "أبا عبد الله الشيعيّ عندما دخل زنزانة عبيد الله وجده ميتاً، كما وجد في الزنزانة مولًى له يهوديًا،

---

١ ـ راجع: ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٣١ ـ ٤٧؛ حتّي، صانعو التاريخ العربيّ، مرجع سابق، ص ١٤٣ ـ ١٤٧.

فأخذ اليهوديّ وادّعى أنّه المهديّ"[1]. ولكن ليس هناك ما يثبّت صحّة هذا الخبر[2].

منذ ذلك اليوم، زال عهد تستّر الأئمّة الإسماعيليّين، وأُلبس عبيد الله المهديّ الثياب الحريريّة وسط خفقان الرايات الفاطميّة، وقد نشأت بذلك سلالة خلافيّة جديدة، هي السلالة الفاطميّة، وتُعرف أيضًا بالعلويّة وبالعبيديّة، نسبة إلى عبيد الله.

بقي القوم يحتفلون أربعين يومًا في سجلماسّة، بظهور المهديّ، وقد وضعوا على رأسه عمامة تليق بمقامه، وصنعوا له سرادقًا عليه ما سُمّي بعرش السماء، ليجلس المهديّ عليه، وهو السيّد والمولّى الجديد المطاع. وبعد انقضاء كلّ هذا، انتقل المهديّ مع صحبه إلى رقّادة[3] في نهاية شهر ربيع الآخر من سنة ٢٩٧ هـ / ٩٠٩م، فاستقبله أهلها وأهل القيروان ورؤساء البربر مشاة "بين يدَيه، وولده خلفه، ونزل بقصر من قصور الأغالبة، وأصبح اسمه هو المذكور في الخطبة بالبلاد، وتَلقَّب عبيد الله، بالمهديّ أمير المؤمنين"[4]. وبذلك يبدأ عهد الخلافة الفاطميّة.

سرعان ما بدأ عبيد الله بإدارة شؤون دولته بنفسه، ورغم أنّ أبا عبد الله كان قد انتزع هذه الدولة وهيّأ للمهديّ كلّ شيءٍ لترؤّسها، وانتزعه من سجن سجلماسّة بعد حرب قلّ نظيرها بطولةً وإقدامًا وجهادًا، فقد كفّ المهديّ يدي أبي عبد الله وأخيه أبي العبّاس، الذي "عظم عليه الفطام عن الأمر والنهي والأخذ والعطاء" فراح يقبّح سرًّا بالمهديّ في مجلس أخيه أبي عبد الله، الذي حاول نهيه عن ذلك دون جدوى، ولكنّ

---

١ ـ ابن خلّكان، مرجع سابق، ١: ٤٨٧.

٢ ـ راجع: حتّي، صانعو التاريخ العربيّ، مرجع سابق، ص١٤٧.

٣ ـ **رقّادة**: هي اليوم في تونس، أسّسها إبراهيم الثاني الأغلبيّ سنة ٨٧٦ م، وجعلها قاعدة دولة الأغالبة في أفريقيا.

٤ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٤٩.

العكس حصل، إذ تمكّن أبو العبّاس من إقناع أخيه بعقّ المهديّ، ما جعل أبا عبد الله يقول يومًا للمهديّ:

"لو كنت تجلس في قصرك وتتركني مع كتامة آمرهم وأنهاهم، لأنّي عارف بعاداتهم، لكان أهيب لك في أعين الناس".

وإذا كان عبيد الله قد سمع شيئًا ممّا يجري بين أبي عبد الله وأخيه" تأكّد من صحّة الإشاعات إثر بوح أبي عبد الله برغبته. وبالرغم من أنّ جوابه لعبد الله كان لطيفًا، فقد اعتمد الحيطة والحذر والمراقبة... إلى أن اتّصل به ما كان يهيّىء له أبو العبّاس من أجل اغتياله، بمشاركةٍ وتدبير من قِبَل أبي عبد الله، فأمر المهديّ رجاله بقتل أبي عبد الله وأخيه أبي العبّاس. وعندما وضع أحدهم السيف على ذلك الذي صنع للمهديّ دولة، قال له أبو عبد الله:

"لا تفعل يا بنيّ".

فردّ الجلاّد:

"الذي أمرتنا بطاعته أمرَنا بقتلك"... وأنهى السيف ذلك الذي أنهى دولة الأغالبة ومُلك بني مدرار الذين كان لهم مائة وثلاثون سنة منفردين بحكم سجلماسّة، ومُلك بني رستم من تاهَرت وكان لهم مائة وستّون سنة منفردين بحكم تاهرت، واستوعب قبائل البربر، وقدّم كلّ ذلك على طبق من فضّة لرجل آمن به، هو عبيد الله، الذي أصبح المهديَّ أمير المؤمنين. وتمكّن أمير المؤمنين من خنق الفتنة التي ثارت إثر اغتيال أبي عبد الله وشقيقه. واستتبّ الحكم نهائيًّا لعبيد الله[1].

---

١ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٥١ ـ ٥٣.

الخِلاَفـةُ الفَاطِمِيَّـة

في طَورِهَا الأوَّل

كان الذي قتل أبا عبد الله وأخاه أبا العبّاس بـأمر من المهديّ، رجـلاً من كتامـة، إسمه عروبة بن يوسف. وقد أصبح عروبة في ما بعد أحد كبار قادة الفتوحات في جيش المهديّ، وقد تمكّن فعلاً من تحقيق النصر للمهديّ، خاصة في "تاهَرت" عاصمة قبيلة زناتة البربريّة التي دخلها عروبة بعد حصار شديد، فسقطت سنة ٢٩٩ هـ / ٩١١ م، فاستبيحت، وقُتل من أهلها ثمانية آلاف. وقد جعل عروبة تاهَرت مقرًّا له ومنطلقًا لحملاته العسكريّة، لحساب سيّده المهديّ، في أقصى المغرب. بيدَ أنّ عروبة هذا، قد لاقى حتفه على يد عبيد الله، كما لاقى حتفه من قَبل أبو عبد الله الشيعيّ على يد عروبة بأمر من عبيد الله. لذلك وصف أحد كبار البحّاثين المعاصرين شخصيّة عبيد الله المهديّ، بأنّها كانت "مصنوعة من المادّة الصلبة التي صنعت الزعماء والقادة والمغامرين: العزم، والمثابرة، والشجاعة، والإقدام... أمّا العرفان بالجميل فأمر لا شأن له في تكوين هذا الرجل... وكانت القوّة الدافعة والحافز الشديد، حبّه للقوّة والسيطرة، التي هي غاية تبرّر كلّ وسيلة في سبيل الوصول إليها"[١].

ومن تطوّر الأحداث في ما بعد، يتّضح جليًّا أنّ غاية عبيد الله لم تكن دينيّة بقدر ما كانت سلطويّة. فهو لم يصرّ على الأهلين بأن يعتنقوا المذهب الشيعيّ الإسماعيليّ، مع أنّ معظم سكّان المدن كانوا من السنّة. وقد جعل مذهبه مغلّفًا بغشاء رقيق من السنّة ومذاهب شيعيّة أخرى. وبدأ العنصر الدينيّ في الدعوة ينحسر ليحلّ محلّه العلمانيّ، واستحال عبيد الله المهديّ، الزعيم الدينيّ، شيئًا فشيئًا إلى حاكم إداريّ. فقد

---

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ١٥٩.

كان عليه أن يحكم ملكًا شاسعًا يمتدّ نظريًا من برقة[1] إلى مشارف فاس المغرب. فراح يحذو حذو الأغالبة في الحكم وتصريف الشؤون، مستفيدًا من تنظيمهم الذي على رأسه إداريّون وفنيّون وموظّفون مدرّبون، أمّا في المراكز العليا الحسّاسة، فقد أقام إسماعيليّين من جماعته، وبعث إلى الولايات عمّالاً من قبيلة كتامة. أمّا القضاة فكانوا إسماعيليّين. وقد حرص عبيد الله على حسن اختيار عمّاله، ويشهد على ذلك الأعمال العظيمة التي كانوا يقومون بها في خدمة الدولة، والتي لم تقتصر على قمع الحركات الانفصاليّة والقبض على زمام الأمور، بل تعدّت ذلك إلى ما هو أكثر مستقبليّة، إذ تمكّن عمّال طرابلس الغرب من البدء بالتحرّش بمصر التي كانت تتخبّط في حالة من الفوضى السياسيّة. وفي صقلّية، أفلح العمّال في تنظيم الانتقال من حكم الأغالبة إلى الحكم الفاطميّ، وذلك عن طريق المصالحة أحيانًا، أو عن طريق القوّة أحيانًا أخرى. وكانت مهمّة الأسطول الذي انتقل الآن من الأغالبة إلى الفاطميّين، كما كانت أيّام الأغالبة: القيام بغزوات على شواطىء إيطاليّا الجنوبيّة وغيرها من البلدان الأوروبيّة بقصد إزعاجها، وحماية شواطىء أفريقيا الشماليّة من غزوات الروم. ورجّح بعض المؤرّخين أنّ بحّارة الأسطول آنذاك كانوا لا يزالون من مرتزقة الروم[2].

على العموم، لم يكن من السهل على أيّ كان، أن يتمكّن من تثبيت أقدام أمبراطوريّة جديدة في قلب ذلك العالم المتفجّر، مثلما فعل عبيد الله، الذي لم يتوان عن استعمال شتّى أساليب العنف والدسّ والدهاء من أجل صون مملكته الجديدة وتوسيعها.

---

١ ـ برقة: هي المنطقة الشرقيّة من ليبيا، فتحها عمرو ابن العاص ٦٤٢، غنيّة بالأحراج والينابيع والأراضي الزراعيّة، من مدنها الهامّة: بنغازي، طبرق، درنة.

٢ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربيّ، ص١٥٠.

فعلى الصعيد الداخليّ، كان على عبيد اللّه أن يقمع سلسلة من الثورات التي قامت ضدّه لأسباب عدّة، منها النقمة التي قابل بها بنو كتامة عمليّة قتل أبي عبد الله، وقد زعم بعضهم أنّ أبا عبد الله لم يمت، وأنّه لا يزال حيًّا يطلب إليهم "أن يحاربوا الآن مَن كان يطلب إليهم أن يحاربوا من أجله". بينما أعلنت قبيلة أخرى عن ظهور مهديّ جديد، ناسبين المهديّة إلى أحد الأطفال، فسارع عبيد الله إلى إرسال ابنه: "القائم" لقمع تلك الحركة، وقد تمكّن القائم من تخريب مضارب القبيلة وإحراقها وأخذ الطفل مع عدد من الأسرى إلى عاصمة أبيه، حيث قُتلوا جميعًا.

وسط هذا العنف، قامت الفتن الخطيرة في مختلف أنحاء المملكة الجديدة، فهدّدت كيانها الطريّ جدّيًّا، بيدَ أنّ عبيد الله قد تمكّن من التغلّب عليها جميعًا برباطة جأش قلّ نظيرها. وراح، في الوقت ذاته يتطلّع إلى التوسّع شرقًا نحو مصر، وغربًا نحو دولة الأدارسة الشيعيّة، ونحو قرطبة التي كان قد تسنّم عرشها بعد ظهور عبيد الله بقليل، الأمويّ عبد الرحمن الثالث الذي أعلن نفسه هو الآخر، خليفة سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩م، ولأوّل مرّة في التاريخ، انقسم العالم الإسلاميّ إلى ثلاث خلافات متعادية: العبّاسيّة في بغداد، والأمويّة في الأندلس، والفاطميّة في أفريقيا.

أمام هذا الواقع، كان المجال الوحيد للتوسّع أمام الخلافة الأمويّة الأندلسيّة، المجال الجنوبيّ، أي: الدولة الفاطميّة. فكان على عبيد الله أن يحتاط لهذا الخطر. وقد استعمل الأمويّون في الأندلس قبيلة صنهاجة[1] السنيّة لتكون رأس حربة لهم في أفريقيا، تزرع الفتن وتنشر الدمار.

---

١ ـ **صنهاجة**: قبائل من البربر في المغرب ظهرت في القرون الوسطى، جاء ذكرهم في كتاب ديوان العبر لابن خلدون، منهم الطوارق وسكان الهقار والملثّمون وغيرهم ممّن مثّلوا دورًا خطيرًا في حروب المغرب، أسهموا في قيادة دولة المرابطون في القرن الحادي عشر.

سيطر عبيد الله على معظم دولة الأدارسة الذين انكفأوا إلى فاس. وفي الوقت نفسه، سارع إلى البدء ببناء عاصمة جديدة منيعة، اختار لها موقعًا يحيط به البحر من ثلاث جهات، يقع على مسافة سبعين ميلاً جنوبيّ القيروان. وقد جاءَت عاصمته هذه كناية عن حصن منيع يعتصم به عند الحاجة، ومنه يوجّه هجماته على الخارجين عليه، ويوجّه حروبه الخارجيّة. وأَطلق على هذه العاصمة الحصن اسم "المهديّة" نسبة إليه. وقد "جعل لها سورًا محكمًا وأبوابًا عظيمة وزن كلّ مصراع فيها مائة قنطار". وقد أشرف المهديّ شخصيًّا على بناء مدينته المحصّنة، التي احتوت على دار للصناعة، وأهراء للطعام، وخزّانات للمياه، إضافة إلى القصور والدُّور، فلمّا فرغ منها نظر إليها وقال: "اليوم أمنتُ على الفاطميّات"[1].

كانت هذه العاصمة المحصّنة أشبه برأس حربة موجّهة إلى قلب مصر[2]. وكان بناؤها منمًّا عن أنّ مصر، كانت الغنيمة التي تطلّع إليها عبيد الله بشوق، ذلك أنّ وراء مصر إلى الشرق، عدوّه اللدود: العبّاسيّين. وقد كان الحكم في مصر، يومذاك، عبّاسيًّا، وكان مسُودًا بالفوضى والقلق، إذ كانت الفترة انتقاليّة من حكم الطولونيّين إلى الإخشيديّين، أمّا الخضوع للعبّاسيّين فكان إسميًّا، ولم يكن الخليفة العبّاسيّ بدوره مستقلاً تمام الاستقلال، بل كان خاضعًا لرئيس حرس البلاط، القائد التركيّ الخصيّ.

وكان المهديّ قد حاول، سنة ٣٠٢ هـ / ٩١٤م، الاستيلاء على الإسكندريّة، إذ أرسل حملة بحريّة بقيادة رجل يُدعى حُباسة، وما أن نزل الجيش الاسماعيليّ في

---

١ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٩٤ ـ ٩٥.

٢ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربيّ، مرجع سابق، ص١٥٦.

مصر، حتّى أرسل الخليفة العبّاسيّ الثامن عشر: المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ / ٩٠٨ ـ ٩٣٢م)، جيشًا إليها بقيادة مؤنس الخادم لصدّ الهجمة الفاطميّة. وبعد قتال شديد تميّز بالكرّ والفرّ، "انهزم المغاربة أصحاب عبيد الله العلويّ، وقُتلوا وأُسروا، وبلغ عدد القتلى سبعة آلاف مع الأسرى، وهرب الباقون. فلمّا وصلوا إلى الغرب، قَتل المهديُّ قائده حباسة".

بعد خمس سنوات، وكانت مدينة المهديّة قد أُنجزت، أرسل عبيد الله حملة ثانية إلى مصر، بقيادة ابنه أبي القاسم القائم هذه المرّة، "بعد أن جهّز لها جيشًا كثيفًا" فتمكّن ابن عبيد الله من دخول الإسكندريّة التي فرّ منها العامل العبّاسيّ، ومن الإسكندريّة انتقل القائم إلى الجيزة، فملك الأشمونَين[1] وجزءًا كبيرًا من الصعيد، وكتب إلى أهل مكّة المكرّمة يدعوهم إلى الدخول في طاعته، فلم يقبلوا. ومرّة أخرى، سارع الخليفة العبّاسيّ إلى إرسال مؤنس الخادم لقتال القائم الفاطميّ، فنشبت بين القوّتَين معارك بحريّة وبرّيّة قاسية، كان النصر بنتيجتها للقائد العبّاسيّ مؤنس الخادم، الذي لُقّب منذ ذلك الحين بمؤنس المظفّر. أمّا القائم، فعاد إلى أفريقيا مهزومًا بعد أن فقد أكثر رجاله[2].

وهكذا، لم يتسنَّ لعبيد الله أن يحقّق حلمه الكبير، وإن كان هذا الحلم سيتحقّق على يد مَن سيليه، حين تصبح مصر قاعدة الخلافة الفاطميّة. أمّا عبيد الله، فقد مات سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٣م في العاصمة التي أنشأها وعمره أكثر من ستّين سنة بقليل. وقد

---

١ ـ **الأشمونَين**: مدينة قديمة في مصر، محافظة المنيا، كانت تُدعى قديمًا خمونو وهرموبوليس في العهد اليونانيّ، تحوّل عنها مجرى النيل ١٧٢٠، كانت قاعدة الإقليم الخامس عشر في عهود الفراعنة، ومركزًا لعبادة الإله توت، فيها بقايا هياكل من عهدَي الدولتَين الوسطى والحديثة ومن عهد البطالسة.

٢ ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٨٩، ١١٣ ـ ١١٤.

روي أنّ ابنه أبا القاسم، قد أخفى موته لمدّة سنة كاملة، خوفًا من أن يختلف الناس إذا علموا بذلك. ولم يُعلن القائم عن موت أبيه إلاّ بعد أن تدبّر أمور المملكة بشكل كامل، وقضى على كلّ صاحب فتنة محتمل[1].

مهما كان الرأي بعبيد الله المهديّ، ومهما كان أصل هذا الرجل، فما لا يمكن تجاهله هو أنّه استطاع أن يحقّق حلمًا شيعيًّا كان عمره أقلّ من ثلاثة قرون بقليل، بإنشائه خلافة شيعيّة عظيمة، سوف تغيّر، وإنْ إلى حين، شيئًا من مجرى التاريخ. وإذا اعتبرنا بدء الخلافة الفاطميّة مع إعلان المهديّ نفسه أميرًا للمؤمنين، يكون عبيد الله المهديّ، الخليفة الفاطميّ الأوّل قد حكم من سنة ٢٩٧ هـ / ٩٠٩م، إلى سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٣ م، لتنتقل الخلافة من بعده إلى ابنه الوحيد: أبي القاسم الملقّب بالقائم بأمر الله.

أبُو الحَسَن
جَوهَر الصِّقلّي

إذا كان الفاطميّون مدينين لأبي عبد الله الشيعيّ بتأسيس خلافتهم، دعوة وقوّة، في بلاد المغرب، فهم مدينون بالقدر نفسه إلى رجل آخر لا علاقة له بالسلالة الفاطميّة، حتّى إنّه ليس من أصل شيعيّ ولا إسماعيليّ ولا حتّى مسلم ولا عربيّ، هم مدينون له بإنشاء أمبراطوريّتهم العظيمة. هذا الرجل، اسمه جوهر الصقلّيّ، ونادرًا ما ذُكر اسمه كاملاً، إنّما ذُكر غالبًا باسم جوهر فقط. فجوهر هذا، وُلد في أرض الروم مسيحيًّا، وقد

---

١ - ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٢٨٤.

سُبي إلى القَيروان مملوكًا، وراح يترقّى في الوظائف إلى أن غدا فاطميًّا تمكّن من تحقيق ما عجز عنه ثلاثة خلفاء فاطميّين على التوالي، إذ فتح مصر للخليفة الفاطميّ الرابع: المعزّ لدين الله (٣٤١ ـ ٣٦٥ هـ / ٩٥٣ ـ ٩٧٥م) وأسّس فيها مدينة القاهرة التي ستصبح قاعدة الخلافة الفاطميّة، ومن ثمّ أشهر مدن القارّة الأفريقيّة على الإطلاق. كذلك بنى جوهر في القاهرة المسجد الجامعيّ المعروف بالأزهر، وهو أقدم المؤسّسات الإسلاميّة وأعظمها طرًّا في العالم قاطبة. وهو الذي طرد الإخشيديّين من مصر إلى سورية نهائيًّا سنة ٣٥٩ هـ / ٩٦٩م[١].

قبل جوهر، كان قد تعاقب على الخلافة الفاطمية ثلاثة خلفاء بعد الخليفة الأوّل عبيد الله المهديّ، أوّلهم ابنه القائم بأمر الله أبو العبّاس. ورغم أنّ القائم قد أخّر إعلان موت أبيه سنة كاملة ليرتّب له أمور الحكم قبل أن يثور المترقّبون، فما أن آلت إليه الخلافة حتّى اندلعت نار الثورة في بعض أجزاء المملكة، وانحاز بعض زعماء القبائل إلى عبد الرحمن الناصر الأمويّ بالأندلس. كذلك ثار على القائم خارجيّ اسمه أبو يزيد، كان قد اشتهر بعدائه للإسماعيليّة، وقد اجتمع إليه سائر الخوارج، فقويت بهم شوكته، خاصّة بعد أن أخذ عليهم البيعة لنفسه على قتال الإسماعيليّة وسبيهم واستباحة غنائمهم. فحاصر أبو يزيد المهديّة الحصينة حصارًا شديدًا، ما أحلّ البلاءَ والمجاعة في أهلها الذين اضطروا إلى أكل الدواب الميتة. وقد استطاع بعضهم أن يهرب مهاجرًا إلى مصر وطرابلس وبلاد الروم. بيدَ أنّ أصحاب يزيد المحاصِرين، تمكّنوا من القبض على عدد كبير من الفارّين، فكانوا يشقّون بطونهم طلبًا للذهب المهرّب. وراحت الغوغاء تتوافد على أبي يزيد الخارجيّ من كل صوب بهدف النهب وسلب

---

١ ـ راجع: ابن خلّكان، مرجع سابق، ١: ٢٠٩ ـ ٢١٣؛ المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة الملوك، نشر مصطفى زيادة (القاهرة،١٩٣٤) ١: ٣٧٧ وما بعدها؛ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٥٩٠ ـ ٥٩١، ٩: ٩٠.

المغانم. ولمّا تأكّد للخوارج أنّه لم يبقَ في المهديّة ما يُنهب، تخلّوا عن أبي يزيد، الذي فكّ الحصار تاركًا المملكة الإسماعيليّة في وضع من القلّة كان على القائم أن يجتهد للتغلّب عليه.

عندما مات القائم سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٦م، كان أبو يزيد لا يزال يشكّل تهديدًا جدّيًّا للمملكة الفاطميّة، وكان على خلف القائم: المنصور، أن يبدأ ولايته وسط هذا الخطر[١].

كان على إسماعيل، ابن أبي القاسم القائم بأمر الله، أن يفعل، عند موت أبيه، كما فعل أبوه عند موت جدّه، فكتم موت أبيه عن الناس "وأبقى الأمور على حالها، ولم يتسمَّ بالخليفة، ولم يغيّر السكّة، ولا الخطبة، ولا البنود"... ذلك أنّه كان في حالة حرب مريرة مع أبي يزيد الخارجيّ في سوسة، المدينة التونسيّة الواقعة على المتوسّط. وكان أبو يزيد يحاصر تلك المدينة منذ أشهر. وما أن أصبح الأمر لإسماعيل حتّى شنّ هجومًا بحريًّا صاعقًا على المحاصِرين، ما أدّى إلى انهزامهم شرّ هزيمة، بعد أن قُتل من الخوارج عدد كبير، وفرّ أبو يزيد إلى القيروان، فاصطحب عياله ولجأ إلى سبيبة على مسافة يومَين من القيروان. حينها أعلن إسماعيل عن موت أبيه، وتسنّم سدّة الخلافة بعد أن لقّب نفسه بالمنصور.

راح المنصور يتعقّب الزعيم الخارجيّ من مكان إلى مكان متكبّدًا مع جيشه عناءً شديدًا بسبب وعورة المسالك التي سلكوها، وقد أُصيب المنصور بالإعياء والمرض، قبل أن يتمكّن من إدراك أبي يزيد في قلعة كتامة، حيث حصلت معركة يائسة وشديدة العنف والخسائر، سقط بنهايتها أبو يزيد صريعًا بعد أن فرّ أكثر رجاله. وكان انتقام

---

١ ـ راجع: ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٤٢٢ ـ ٤٣٤.

المنصور منه عظيمًا، إذ أمر بسلخ جلده وحشوه تبنًا. وأمر بالكُتُب إلى البلاد بالبشارة. وأصبح من السهل على المنصور في ما بعد أن يتغلّب على بعض الخوارج الذين حاولوا الثورة عليه[1].

تميّز المنصور بشجاعته وفصاحته وحسن تدبيره، إلاّ أنّه لم يتمكّن من توسيع مملكة جدّه بسبب سوء حالها الذي آلت إليه جرّاء ثورة الخوارج، فكان عليه أن يعمل على إعادة إنعاش البلاد، وتقوية الجيش، وإعادة بناء الأسطول. ومن إنجازاته إضافة إلى كلّ هذا، إنشاؤه مدينة المنصوريّة التي جعلها عاصمة ملكه. وينسب المحقّقون إليه الفضل في إعادة القرامطة[2] للحجر الأسود إلى مكّة، بعد أن أمرهم المنصور بوجوب إعادته.

لكنّ عمر هذا الخليفة كان قصيرًا، إذ مات سنة ٣٤١ هـ / ٩٥٣م، وعمره تسع وثلاثون سنة، بسبب مرض أصابه جرّاء تعرّضه للصقيع.

إثر دفن المنصور في قصره، وُلّي الأمر بعده ابنه: معدّ، الذي لُقّب بالمعزّ لدين الله، وكان عمره أربعًا وعشرين سنة[3].

---

١ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٤٣٤، ٤٣٨ ـ ٤٤١.

٢ ـ **القرامطة:** حركة دينيّة سياسيّة إجتماعيّة لا تزال حقيقتها على كثير من الغموض لانقراض أتباعها، تُنسب إلى داعيها الأوّل حمدان قرمط في العراق، أظهرها قويّة في البحرين أبو سعيد الجنّابي ٢٨٥هـ./ ٨٩٩م، ثمّ سيطرت على كثير من البلاد الإسلاميّة، استولوا على مكّة ٩٣٠ ونقلوا منها الحجر الأسود ثمّ ردّوه بعد ٢٢ سنة، انتزعوا دمشق من أيدي الفاطميّين ٩٧٠ وزحفوا إليهم في مصر فهزمهم المعزّ الفاطمي ٩٧٢، انتهى أمر القرامطة على أيدي الأمراء العيونيّين في البحرين ١٠٢٧، ورغم الغموض الذي يلفّ هذه الحركة يبدو أنّها كانت ذات نزعة إشتراكيّة بمفهوم اليوم، أفردنا للقرامطة فصلا خاصًا في الجزء ٢٣ من هذه الموسوعة يمكن الرجوع إليه.

٣ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٤٩٧ ـ ٤٩٨.

تميّز الخليفة الفاطميّ الرابع: المعزّ لدين الله (٣٤١ ـ ٣٦٥هـ/ ٩٥٣ ـ ٩٧٥م) بالثقافة والولع بالعلوم والآداب وحسن التدبير وإحكام الأمور، وقد تمكّن سريعًا من تطويع قبائل البربر التي دانت له وأطاعته على ما بينها من خلاف.

وبعد أن أشاع المعزّ الأمن في مملكته الأفريقيّة، راح يعدّ العدّة لغزو مصر، التي تُعتبر بالنسبة إلى موقعها باب بلاد الشام والعراق والحجاز. وعمل في الوقت نفسه على إنشاء الطرق داخل مملكته، وهيّأ الآبار على طريق مصر، وأقام المنازل على رأس كلّ مرحلة مسير. ولمّا وصلته أخبار وفاة الملك الإخشيديّ كافور سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٧ م، راح يعدّ الجيش والمال لغزو مصر، إذ رأى أنّ فرصة تحقيق الهدف الذي عجز عنه آباؤه قد حانت.

وما أن حلّت سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨م. حتّى كان أبو الحسن جوهر الصقلّيّ على رأس جيش زاحف على مصر تنفيذًا لأمر مولاه.

دخل جوهر مصر بجيشه الإسماعيليّ من دون مقاومة، ذلك أنّ العسكر الإخشيديّ كان قد هرب قبل وصول الإسماعيليّين وفور انتشار نبأ زحف جوهر الذي ما أن حطّ بمصر، حتّى أذّن المؤذّنون بحيّ على العمل[1]، وأُقيمت الدعوة للمعزّ، وبدأ العمل ببناء القاهرة.

بعد وقت قصير، سيّر جوهر حملة إلى بلاد الشام بقيادة جعفر بن فلاح، فأطاح القرامطة والعبّاسيّين والأتراك وامتلك دمشق.

ثم إنّ الروم دخلوا دمشق وسائر مدن المنطقة في السنة نفسها، ففضّل القائد الفاطميّ عدم المقاومة نظرًا لتفاوت القوى.

---

١ ـ إشارة لأتباع المذهب الشيعيّ.

وما أن خرج الروم من دمشق في السنة التالية حتّى سارع القرامطة إلى انتزاعها من يد العامل الإسماعيليّ بعد أن قتلوه. بينما انتقل الخليفة الفاطميّ: المعزّ بأمر الله، إلى الديار المصريّة، ومعه كنوز الخلافة وهيئاتها كاملة، فاستقبله المصريّون بالتبجيل والإكرام، ورحّبوا بنقله مركز خلافته إلى عاصمته المدينة الجديدة التي بناها جوهر: القاهرة.

قبل نهاية سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣م، كان على المعزّ أن يصدّ القرامطة عن مصر بإيقاع الخلاف بينهم وبين حلفائهم إذ هاجموه في عقر ملكه، ولمّا تمّ له ذلك، أرسل حملة في أثرهم إلى بلاد الشام، وبدأت حرب عصابات في دمشق بين المغاربة الفاطميّين من جهة، والقرامطة وأعوانهم من جهة أخرى، عانى منها أهل المدينة معاناة كبرى، لكثرة ما عاث بها المقاتلون جميعًا نهبًا وإحراقًا وسلبًا وتدميرًا، وشهدت دمشق موتًا كثيفًا وفقرًا وجوعًا وبردًا ومرضًا. وقد قيل في تلك الحقبة بأنّها كانت إحدى أقسى الحقبات التي شهدتها دمشق عبر تاريخها.

أمام هذا الواقع المرير، تحرّكت الخلافة العبّاسيّة فأرسلت قائدًا تركيًّا اسمه أفتكين، لينتزع دمشق من أيدي المقاتلين فيها.

دخل أفتكين المدينة بقوّة، وأمر بقطع خطبة المعزّ الفاطميّ، وبأن يخطب للطائع العبّاسيّ. كان ذلك في شعبان ٣٦٤ هـ / ٩٧٤م. وبينما كان المعزّ يتجهّز لشنّ الحرب على القائد العبّاسيّ التركيّ، مات، فيما أكمل أفتكين طرد المغاربة الفاطميّين من صيدا وطبريّا، بعد أن قتل منهم أعدادًا هائلة حتّى كاد يبيدهم.

خلف المعزّ بالله، ولده أبو منصور نزار الملقّب: بالعزيز بالله، فكان الخليفة الفاطميّ الخامس (٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ/ ٩٧٥ ـ ٩٩٦م).

سارع العزيز بالله فور تسنّمه كرسي الخلافة إلى إرسال جوهر، هذه المرّة، ليعالج وضع بلاد الشام، مثلما فعل بمصر [1].

وصل جوهر إلى محيط دمشق في ذي القعدة من سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥م، وأقام على المدينة حصارًا شديدًا، ثمّ بدأ يشنّ الغزوات، حتّى اشتعلت حرب قاسية تكبّد فيها الطرفان عددًا كبيرًا من القتلى، ممّا جعل القائد التركيّ يستنجد بالقرامطة. وخوفًا من أن يقع بين جيشَين، فكّ جوهر الحصار عن دمشق، بينما كان القرامطة في طريقهم إليها من الأحساء. وبتحالف جند الدولة العبّاسيّة والقرامطة، حاصر خمسون ألف جنديّ جوهرًا في عسقلان [2]، حيث انقطعت الإمدادات عن القائد الفاطميّ، وقد كان ممكنًا أن تصله الإمدادات عبر البحر في ما لو لم يكن الزمن شتاءً. وقد عانى جوهر وجيشه التعب الكثير من هذا الحصار، حتّى أكلوا الجيَف. حينها طلب جوهر إلى أفتكين أن يجتمع به، فتقدّم إليه واجتمعا راكبين. فقال جوهر لأفتكين:

"قد عرفت ما يجمعنا من عصمة الإسلام وحرمة الدين، وقد طالت هذه الفتنة، وأُريقت فيها الدماء، ونُهبت الأموال، ونحن المؤاخذون بها عند الله تعالى، وقد دعوتك إلى الصلح والطاعة والموافقة، وبذلت لك الرغائب، فأبيت إلاّ القبول ممّن يُشبّ نار الفتنة [3] فراقب الله تعالى، وراجع نفسك، وغلّب نفسك على هوى غيرك".

---

١ ـ إبن الأثير الكامل، مرجع سابق، ٨: ٥٩٠ ـ ٥٩٢، ٥٩٦ ـ ٥٩٧، ٦١٤ ـ ٦١٦، ٦٢٠ ـ ٦٢١، ٦٤٢ ـ ٦٤٣؛ ابن خلدون، مرجع سابق، ٤: ٥٠ وما بعدها.

٢ ـ **عسقلان**: مدينة كنعانيّة على ساحل فلسطين الجنوبي كانت تُعرف باسم أشقلون، احتلّها الفلسطينيّون فأصبحت إحدى مدنهم الخمس الكبرى، كانت موقعًا عسكريًا في الحروب الصليبيّة، خربها المماليك ١٢٤٧.

٣ ـ إشارة إلى القرامطة الذين منعوا أفتكين عن القبول بالصلح قبل ذلك.

عندما سمع أفتكين هذا الكلام، لم يَسعه إلاّ أن يفكّ الحصار عن جوهر، شريطة أن يعود برجاله إلى مصر، ولم يصغِ لاعتراض القرامطة الذين أرادوا إماتة إخوانهم الإسماعيليّين جوعًا.

عاد جوهر إلى مصر، وشرح الوضع للخليفة، فكان القرار بأن يقود الحملةَ الخليفةُ شخصيًّا إضافة إلى جوهر، وبذلك صدق ظنّ القرامطة الذين نصحوا أفتكين بأن يمتنع عن فكّ الحصار عن جوهر، لأنّه سيعود... لقتالهم.

إلتحم الجيشان في محيط الرملة[1] في المحرّم من سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧م، بعد أن رفض أفتكين عرض الخليفة بأن يبذل له الرغائب والأموال والولايات، وبأن يجعله مقدّم عسكره، والمرجع الأوّل في دولته. وكانت نتيجة المعركة الأولى مقتل نحو عشرين ألفًا من القرامطة وعسكر الخلافة العبّاسيّة. وأُسر أفتكين وحُمل إلى الخليفة الفاطميّ الذي أبى إلاّ أن يكرّمه ويعزّزه ويحمله معه إلى مصر ويجعله من أخصّ خدمه وحجّابه. أمّا القائد القرمطيّ، فانهزم إلى طبريّا، وإذ رفض الاستسلام للخليفة الفاطميّ رغم بذلِه له الوعود بالإكرام، أرسل إليه هذا الخليفة السياسيّ عشرين ألف دينار، وجعلها له كلّ سنة، وسمح له بالعودة إلى الأحِساء آمنًا.

ولمّا أقدم أحد وزراء العزيز على دسّ السمّ لأفتكين في القاهرة بعد سنوات، حزن العزيز، وحبس الوزير الذي اتُّهم بدسّ السمّ، وأخذ منه خمسمائة ألف دينار[2].

---

١ ـ **الرملة**: بلدة في فلسطين شمال شرقي القدس، نشبت بينها وبين بيت جبرين معركة أجنادين ٦٣٤ التي انتصرت فيها الجيوش العربيّة على البيزنطيّين، اتّخذها سليمان بن عبد الملك مقرًّا له ٧١٦، احتلّها الصليبيّون ١٠٩٩، اتّخذها نابوليون الأوّل مقرًّا لقيادته ١٧٩٨، كنيستها، وهي اليوم الجامع الكبير، يرقى عهدها إلى ١٢٩٨.

٢ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٨: ٦٥٦ ـ ٦٦٢؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، نشر أمدورز (ليدن،١٩٠٨) ص ١٨ ـ ١٩.

وبذلك أحكم الفاطميّون قبضتهم على دمشق، وبدأوا حملاتهم على الحجاز. وقبل أن تنتهي سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥م، خُطب للخليفة الفاطميّ بمكّة المكرّمة، بعد أن أرسل إليها جيشًا حاصرها، وضيّق على أهلها، فلقوا شدّة عظيمة قبل أن يعترفوا بسلطة الفاطميّين.

بلغت الخلافة الفاطميّة في عهد العزيز بالله (٩٧٥ ـ ٩٩٦) أوج عزّها وأوسع مداها، فأخضع هذا الخليفة لسلطته المناطق الواقعة بين المحيط الأطلسيّ والبحر الأحمر، إضافة إلى تدخّله المباشر في بلاد الشام والحجاز واليمن، وصولاً حتّى الموصل أحيانًا[١].

وقد أظهر العزيز تعاونًا مع النصارى واليهود، "فولّى عيسى بن نسطور النّصرانيّ كتابته واستناب بالشام يهوديًّا". وكانت جاريته الأثيرة امرأة نصرانيّة عيّن أحد أخويَها رئيس أساقفة في القاهرة والآخر في القدس. وقيل إنّ "النصارى واليهود قد اعتزّوا بوزارة النصرانيّ في قصر الخليفة، ونيابة اليهوديّ في دمشق، وإنّ هذين قد أذلاّ المسلمين، فعمد أهل مصر إلى كتابة قصّة جعلوها في شكل صورة على قراطيس، جاء فيها:

> بالذي أعزّ اليهود بمنشا[٢]، والنصارى بعيسى[٣] بن نسطورس، وأذلّ المسلمين بك ألا كشفت ظلامتي.

واقعدوا تلك الصورة على طريق العزيز، فلمّا رآها أمر بأخذها، فلمّا قرأ ما فيها،

---

١ ـ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، مرجع سابق، ج ٢، قسم ٢، ص١٠؛ ابن خلّكان، مرجع سابق، ٣: ٥٤.

٢ ـ **منشا**: هو اسم اليهوديّ الذي وليّ دمشق، وقد يكون في الأصل منسّى.

٣ ـ **عيسى**: هو الوزير الكاتب النصرانيّ النسطوريّ الذي عيّنه الخليفة في قصره.

ورأى الصورة، علم ما أُريد بذلك، فقبض على النصرانيّ واليهوديّ وأخذ منهما أموالاً كثيرة"[1].

وفي عهد العزيز، إشتدّت حركة الإنشاء والتعمير في مصر، حيث تمّ تجديد قصر الذهب بالقاهرة، وجامع القرافة، وجامع القاهرة، وقصور عين شمس، ودار الصناعة، وقنطرة الخليج، وسواها من الأعمال العمرانيّة.

وعُني العزيز كأبيه المعزّ، بنشر المذهب الشيعيّ، وحتّم على القضاة أن يُصدروا أحكامهم وفق مذهبه. كما حصر المناصب الهامّة بالإسماعيليّين. وأصبح لزامًا على الموظّفين السنّة الذين تقلّدوا المناصب الصغيرة أن يسيروا وفقًا لأحكام المذهب الإسماعيليّ[2].

وعندما مات العزيز سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦م، كان قد مضى خمس سنوات على موت ذلك القائد الفذّ الذي أسّس للفاطميّين أمبراطوريّة، بعد أن كان عبدًا نصرانيًّا ترقّى في سلّم الدولة حتّى غدا الفاتح الأكبر: جوهر. وقد مات جوهر وضيعًا، بعد أن كان العزيز... قد عزله. ولمّا مات العزيز، كان عمر ابنه البكر إحدى عشرة سنة وستّة أشهر... فبان وكأنّ الفاطميّة في خطر.

---

١ ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٩: ١١٦؛ قابل: ابن القلانسي، ذيل تاريخ، مرجع سابق، ص ٣٣؛ ابن تغري بردي، مرجع سابق، ج ٢، ق ٢، ص ٤؛ السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، (القاهرة،١٣٢١هـ) ٢: ١٤.

٢ ـ راجع: مغنيّة، دول الشيعة، مرجع سابق، ص ٧٠ ـ ٧١ بالاستناد إلى: مصر في عصر الدولة الفاطميّة، نقلاً عن اتعاظ الحنفا للمقريزي، ص ١٩٧، وإلى: الحاكم بأمر الله، لمحمّد عبد الله عنان، طبعة ثانية، ص ٨٩.

الحَــــاكم
بأمر الله

حيّرت شخصيّة الحاكم بأمر الله عقـول البـاحثين والمؤرّخيـن، حتّـى خلصـوا إلـى اعتبارها تغرق في التناقضات. فهـو فوضـويّ ومنظّـم، كريـم وبخيـل، شـجاع وجبـان، عاقل ومجنون، سفّاك للدماء ورحيم، متعصّب ومتسامح... وقد بلـغ هـذا التنـاقض حدّ الغرابة في اسمه، فهو حينًا الحاكم بأمر الله، وحينًا الحاكم بأمره، وشتّان بين المعنيَيـن. أمّا اسمه قبل الخلافة، فكان: أبا عليّ منصور.

هذا الخليفة الفاطميّ، بويع بالخلافة، لمّا مات والده (٣٨٦ هـ / ٩٩٦م) وهـو فـي الحادية عشرة من عمره، فتولّى الوصايــة عليـه أستاذه ومربّيـه أرجـوان الخـادم "فقـام بأمره، وبايع له، وأخذ له البيعة علــى النـاس". ومـع ذلـك، مـا كـاد الخليفـة الفتـيّ يبلـغ الخامسة عشرة من عمره، حتّى أمر بقتل أرجوان "لأنّـه كـان يضايقـه"! ذلـك أنّـه أراد الاستقلال بالحكم[1].

والجدير ذكره، أنّ الخلافة الفاطميّة قد بلغت دركًا من التردّي بعـد مـوت العزيـز، بسبب سيطرة قبائل البربر علـى الحكم، "فانبسـطت كتامـة فـي البـلاد، وحكمـوا فيهـا، ومدّوا أيديهم إلـى أمـوال الرعيّـة وحريمهـا، وأرجـوان مقيـم مـع الحـاكم فـي القصـر يحرسه"[2].

---

١ ـ لمزيد من المعلومات حول شخصيّة الحاكم بأمر الله، راجع: ابن خلّكان، مرجع سابق، ٣: ٤ ـ ٧؛ ابن خلدون، مرجع سابق، ٤: ٥٩ ـ ٦١؛ ابن تغري بردي، مرجع سابق، ج ٢ ق ٢ ص ٦٢ وما بعدها؛ السيوطي، حسن المحاضرة، مرجع سابق، ٢: ١٤ ـ ١٥؛ ابن القلانسي، مرجع سابق، ص ٦٦ ـ ٦٧، ٧٩ ـ ٨٠؛ ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد (الجزائر،١٩٢٧) ص ٥٤ ـ ٥٥؛ عنّان عبد الله، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطميّة، مؤسّسة الخانجي (القاهرة، ١٩٥٩) ص١٠٣ وما بعدها.

٢ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٩: ١١٨ ـ ١١٩.

وقد حاول أرجوان بكلّ ما له من سطوة، أن يخفّف من الفوضى والثورات والانتفاضات في أنحاء الأمبراطوريّة الفاطميّة، ولكنّه لم يفلح. فقد استطاع شيخ كتامة وسيّدها: الحسن ابن عمّار، أن يحكم أفريقيا بأمره، بعد أن لقّب نفسه بأمين الدولة، وهو أوّل مَن تلقّب في دولة الفاطميّين. ولو لم يحتقر ابن عمّار عمرَ الخليفة الفاطميّ الجديد، "ذلك الصبيّ ذي السنوات الإحدى عشرة" لكان قتله. فلقد كان متأكّدًا من أنّه لن تقوم لذلك الطفل قائمة، ومن أنّ الخلافة لن تكون إلاّ لكتامة بعد ذلك اليوم. فراح يستعمل الولاة على المناطق، إلى أن دبّت الفوضى في مصر نفسها، لا بل في قصر الخلافة بالذات، بين أرجوان وجماعته من جهة، وابن عمّار وأنصاره من جهة أخرى. في الوقت نفسه، عصى أهل صور وظهر فيهم علاّقة[1]. وعصى المفرّج بن دغفل بن الجرّاح[2]، ونزل على الرملة* وعاث في البلاد. وبدأ الروم يغزون أطراف

---

١ - **علاّقة**: بحّار صوريّ، نهض سنة ٩٩٧ فاستقلّ بصور وضرب النقود باسمه وكتب عليها: "عزّ بعد فاقة الأمير علاّقة"، وإذ بلغه عن تحرّك الفاطميّين باتّجاه صور لتأديبه، اتّصل بالبيزنطيّين، فأرسلوا سفنهم لنجدته، ولكنّ الفاطميّين وجّهوا قوّة برمائيّة من طرابلس إلى صور على رأسها أبو عبد الله الحسين بن ناصر الدولة بن حمدان، فحاصرها برًّا وبحرًا واصطدم بالسفن البيزنطيّة فانتصر عليها، واضطرّ أهل صور إلى الإستسلام، فاحتلّ القائد الفاطميّ المدينة ونهبها وأخذ علاّقة أسيرًا إلى مصر. وكانت نهاية المغامرة بسلخ علاّقة وصلبه وحشو جلده قشًّا عبرة لمَن يعتبر.

٢ - ذكر سعيد الصغير في كتابه "بنو معروف" الدروز، ص٢٣ - ٢٧: في عام ١٠١٢م/ ٤٠٣هـ، أسند الحاكم بامر اللّه ولاية عهده لعبد الرحيم بن الياس بن أحمد بن المهدى باللّه، وولاّه دمشق، فساء السيرة وأباح المحرّم، فبعث الحاكم أحد خواصّه اعتقله وأحضره على أقبح صورة، فأهانه وخلعه من ولاية العهد ولكنّه تظاهر بالتوبة وطلب المغفرة، فأعاده لحكم دمشق فتآمر مع أمير الأكراد (إبن تالشليل) ودفعه لغزو سكان وادي التيم عندما أظهروا ولاءهم للحاكم بأمر اللّه بمذهب التوحيد الذي دعاهم إليه نشتكين الدرزي ٤٠٤هـ، فقتل منهم أمير الأكراد وسبى وأهلك خلقًا كثيرًا، فخشي عبد الرحيم غضب الحاكم عليه، فأنفذ إبن الخرقاني إلى حسان بن المفرّج بن الجراح الطائيّ ليكون معه، فثار الجند عليه وقتلوا الخرقاني بدمشق ونهبوا قصر وليّ العهد، فندب الحاكم مَن سار إلى الشام للإقتصاص منه، لأنّه تولّد من جراء عمله فتن في دمشق وخارجها، فأعلن خضوعه للحاكم، ولكنّه أساء لسكّان دمشق وانتقم من المتّهمين بالفتن ضدّه، فتنكّروا له وأبغضوه واجتمع أهل البلد والجند على كراهيته، وأرسل إليه حمزة بن علي كتاب توبيخ وإنذار بعدم التقرّب بالنسب للحاكم بأمر اللّه.

الأمبراطوريّة ويساندون العصاة. واستقوى الحمدانيّون الذين راحوا يشنّون الغزوات على المدن السوريّة.

رغم أنّ أرجوان قد تمكّن من ضرب كلّ هذه التحرّكات بواسطة قائد فاطميّ شجاع، اسمه: جيش، فقد اضطرّ أرجوان، بعد موت جيش بمرض البواسير، إلى أن يعقد صلحًا مع الرّوم ليتمكّن من حفظ أمن البلاد قدر المستطاع. غير أنّ الحاكم، عندما بلغ الخامسة عشرة من عمره، ثقُل عليه نصح أرجوان، فقتله سنة ٣٨٩ هـ / ٩٩٨م، واستوزر نصرانيًّا اسمه فهد بن إبراهيم، كان يعمل مساعدًا لأرجوان، وجعل الحسين بن جوهر مكان أرجوان، ولقّبه بقائد القوّاد، وأمره بقتل الحسن بن عمّار الذي لقّب نفسه بأمين الدولة، ثمّ أمر بقتل الحسين بن جوهر الذي قتل بن عمّار، ولم يزل الحاكم يقيم الوزير بعد الوزير ويقتلهم، وهو بعد في الخامسة عشرة من عمره.

قسّم دارسو الحاكم شخصيّته إلى أربعة أدوار هي:

١ - من سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦م. إلى سنة ٣٩٠ هـ / ٩٩٩م. وكان في هذه الحقبة "لا يملك من السلطان شيئًا لصغر سنّه".

٢ - من سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠٠م. إلى سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤م. حيث انتزع لنفسه سلطة كبيرة رغم صغر سنّه، أظهر بخلالها تعصّبًا شديدًا للمذهب الإسماعيليّ.

٣ - من سنة ٣٩٦ هـ / ١٠٠٥م. إلى سنة ٤٠١ هـ / ١٠١٠م. ترك سياسة التعصّب، واتّبع سياسة التسامح مع جميع الطوائف.

٤ - من سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١م. إلى سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠م. حيث ظهرت سياسته بمظهر القلق والتذبذب، رغم أنّها ساعدت على إقرار الأمن وقضت على الفوضى التي كانت سائدة في أوائل عهده.

هذا التقسيم، الذي جاءَ نتيجة تصرّفات الخليفة الفاطميّ السادس، من شأنه أن ينطبق على كبرى قراراته. ففي "حقبة التعصُّب" انتهى عهد التسامح الذي عاش فيه المسيحيّون واليهود طيلة العهد الفاطميّ الذي سبق الحاكم، إذ أجرى هذا الأخير عليهم التدابير المذلّة التي كان عمر بن عبد العزيز والمتوكّل قد فرضاها عليهم، "ثمّ أضاف إليها فنونًا أخرى من الإذلال، مع أنّ والدته ووزيره كانا مسيحيّين. فقد زاد سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩م على القيود السابقة المتعلّقة بالملابس تمييزًا للذمّيّ عن المسلم، فأوجب على النصارى، متى دخلوا الحمّامات العامّة، أن يجعلوا في أعناقهم صلبانًا زنة الواحد منها خمسة أرطال[١]، على أن يرسلوها متدلّية على صدورهم؛ ورتّب على اليهود، في مثل هذه الحال، أن يجعلوا في أعناقهم إطارًا من الخشب بالوزن نفسه، شُدّت إليه الأجراس المجلجلة"[٢].

وفي العام نفسه، أمر بهدم الكنائس، وكان أهمّها "كنيسة السيّدة في دمشق، وكنيسة القيامة في القدس. وعمد، تطبيقًا للنصوص القرآنيّة التي حرّمت الخمرة، إلى الأمر باقتلاع الكرمة، وهي في مصر من مزروعات المسيحيّين. أمّا مَن أبى الخضوع لهذه التدابير من أهل الذمّة، فقد خيّره بين اعتناق الإسلام أو الرحيل إلى بلاد الروم. والظاهر أنّ عدد النصارى في مصر وسورية في عهد الحاكم ـ بعد النبيّ محمّد ﷺ بنحو أربعمائة سنة ـ كان مساويًا لعدد المواطنين من المسلمين إن لم يفقه. وبعد عشرين سنة، عمد ابن الحاكم وخلفه الملقّب بالظاهر، بموجب معاهدة عقدها مع أمبراطور الروم، إلى إعادة بناء الكنائس التي هُدمت، ومنها كنيسة القيامة، ومع ذلك

---

١ ـ نحو كيلوغرامين.

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٢٢١ بالاستناد إلى: ابن خلّكان، ٣: ٥؛ وإلى سعيد ابن البطريق، ص١٩٥؛ والمقريزي، ٢: ٢٨٨؛ وابن حماد، ص٥٤.

فإنّ تهديم هذا الأثر من آثار المسيحيّة قد أسهم في حمل الغرب على تجريد الحملات الصليبيّة على الأرض المقدّسة"[1].

لم تقتصر تصرّفات الحاكم المتناقضة على معاملة أهل الذمّة والرموز المسيحيّة بتلك المعاملة، فهو أنشأ معهدًا للعلوم العالية في القاهرة، ولم يمضِ ثلاث سنوات حتّى هدمه وبطش بأساتذته. ووضع تشريعًا ضدّ الدعارة، وحظّر حتّى ظهور النساء في شوارع القاهرة. ثمّ إنّه سنّ قوانين منعَ بموجبها المآدب وحفلات الطرب، وحرّم بعض ألوان الطعام، كما حرّم لعب الشطرنج[2].

ويعتبر بعض المتعاطفين مع الإسماعيليّين والحاكم، أنّ هذا الأخير قد أظهر كرهه لمظاهر الراحة والتنعّم التي كان يغرق بها الشعب، فاستفاق الناس من نشوة الانهماك في الملذّات، ليواجهوا نظمًا أخلاقيّة دقيقة قاطعة لم يكن في تطبيقها هوادة... فأعلن الناقمون الغرابة في أطواره، وأوجدوا تناقضًا في أحكامه المتناهية بالرحمة والقسوة، وصنّفوا تصانيفَ تناقلها المؤرّخون كلّ على هواه، مع أنّ الحاكم ظهر وسط الازدهار الفاطميّ، فكان لغز عصره، بعيد الغور، وافر الابتكار، عقليّته تسمو على مجتمعها وتتقدّم عصرها بمراحل، وعبقريّته يجب أن تتبوّأ في التاريخ مكانها اللائق، وشخصيّته تفيض من خفائها على المجتمع الذي يقبض هو على أقداره ومصائره... وقد لازمها الخلفاء لأنّ الدولة الفاطميّة عُنيت منذ استقرارها بمصر، بتنظيم دعوتها المذهبيّة السريّة وبثّها، وكانت هذه الدعوة تُلقى في مجالس الحكمة، أحيانًا بالقصر وأحيانًا بالجامع الأزهر، وكان يشرف على إلقائها قاضي القضاة نفسه ثمّ داعي الدعاة الذي

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٢٢٢.

٢ ـ المرجع السابق.

يليه في المرتبة والمنصب، وكان يُنتخب من أكابر فقهاء الشيعة المتضلّعين من العلوم الدينيّة ومن أسرار الدعوة الفاطميّة، يعاونه في نشر الدعوة اثنا عشر نقيبًا وعدّة كبيرة من النواب، يمثّلونه في سائر النواحي. وكانت هذه الدروس الخاصّة تُلقى، بعد مراجعة الخليفة وموافقته، في إيوان القصر الكبير، وتُعقد للنساء مجالس خاصة بمركز الداعي بالقصر، وهو المسمّى بالمحلول، وكان من أعظم الأبنية وأرحبها. فإذا انتهت القراءَة أقبل المؤمنون والمؤمنات على الداعي، فيمسح على رؤوسهم بعلامة الخليفة، ويأخذ العهد على الراغبين في دخول المذهب، ويؤدّي له النجوى مَن استطاع، وهي رسم اختياريّ قدره ثلاثة دراهم وثلث، يُجبى من المؤمنين للإنفاق على الدعوة والدعاة. وكانت ثمّة مجالس أخرى تُعقد بالقصر أيضًا لبعض الهيئات والطبقات الممتازة من أولياء المذاهب ورجال الدولة والقصر ونساء الحرم الخاص، ويسودها التحفّظ والتكتّم، ويُمنع الكافّة من مشاهدتها، وتُعرض فيها الدعوة الفاطميّة السريّة على يد دعاة تفقّهوا في درسها وعرضها.

وكان للعامّة أيضًا نصيب من تلك المجالس، فيُعقد للرجال مجلس بالقصر، ويُعقد للنساء مجلس بالجامع الأزهر، ويُعقد مجلس للأجانب الراغبين في تلقّي الدعوة. وكان الداعي يشرف على هذه المجالس جميعًا إمّا بنفسه أو بواسطة نقبائه ونوّابه، وكانت الدعوة تنظّم وترتّب طبقًا لمستوى الطبقات والأذهان، فلا يتلقّى الكافّة منها سوى مبادئها وأصولها العامّة، ويرتفع الدعاة بالخاصّة المستنيرين إلى مراتبها وأسرارها العليا.

ثمّ أنشأ الحاكم بأمر الله دار الحكمة سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥م، فأضحت مدرسة للعلوم الدينيّة والزمنيّة، ومثوى للدعوة السريّة الفاطميّة، احتشد فيها الدعاة والنقباء السرّيّون من كل حزب.

وقد ظهر في أواخر العهد أبو الفضل حمزة بن عليّ الزوزنيّ، فأضفى على شخصيّة الحاكم قدسيّة ناسوت اللاّهوت، ثمّ بدأ يوجّه رسائله إلى المستجيبين لدعوته ابتداءً من العام ٤٠٨ هـ / ١٠١٧م، ووجّه مثلها الشيخان إسماعيل التميميّ، وعليّ بن محمّد السموقيّ الملقّب ببهاء الدين، الذي استمرّ يدعو لهذا المذهب حتّى سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨م؛ وتشرح تلك الرسائل ماهيّة الدعوة، وتُرشد المستجيبين لأصول المذهب وروابطهم ببعضهم وصلاتهم بغيرهم. وقد وُجّهت الرسائل إلى مختلف الممالك والأمصار بما فيها الشام، والعراق، وإيران، والحجاز، واليمن، ومصر، والهند، والبحرين، وإلى ملك الروم في القسطنطينيّة، وأقطار أخرى في الشرق والغرب.

إختفَاء الحاكم

في سنة ٤١١ هـ/ ١٠٢٠م، اختفى الحاكم وهو في طريقه إلى جبل المقطّم[١]، حيث يُظنّ أنّه كان قاصدًا إلى المرصد الفلكيّ الذي أقامه الفاطميّون لعالمهم الفلكيّ الكبير عليّ بن يوسف، فكان اختفاؤه في تلك الظروف التي تشبه الأساطير في غموضها وخفائها وانعدام كلّ أثر يدلّ على مصيره أو يلقي ضوءًا على ملابسات اختفائه أو مصرعه، عاملاً جديدًا في إذكاء شغف الخفاء والتطلّع إلى ما وراء الغيب وإذكاء الدعوات السريّة[٢].

---

١ ـ **المقطّم**: أكمة في مصر قرب القاهرة، تشرف على القرافة وهي مقبرة فسطاس مصر والقاهرة، تقوم عليها قلعة صلاح الدين ومدينة المقطّم.

٢ ـ سعيد الصغير، بنو معروف الدروز في التاريخ، (بيروت، ١٣٧٤هـ) ص ٢٣٥ بالاستناد إلى: عنَان، الحاكم بأمر الله، ص ٧٧، ١٥٢، ١٦٢ ـ ١٦٣؛ راجع مجلّد الموحّدين الدروز من هذه الموسوعة، الجزء الثاني والعشرين.

مع تعدّد الروايات التاريخيّة حول نهاية الحاكم واختفائـه، وبالاستناد إلى أكثرها، يُستدلّ أنّه قد قُتل، وأُخفيت جثّته، ما خلق ذلك الاعتقاد باختفائه حيًّا. ومن أشهر الروايات في هذا المجال تلك التي تقول بأنّ أخت الحاكم هي التي دبّرت قتله، بعد أن "أوحشها وأرسل إليها مراسلات قبيحة يقول فيها: ـ بلغني أنّ الرجال يدخلون إليك ـ وتهدّدها بالقتل"، فتآمرت مع أحد كبار قوّاد الحاكم، واسمه بن دوّاس، مستغلّة خوف هذا الأخير من أخيها، وكان عرضها له: "بوسعك أن تحفظ نفسك ونفسي، فأنت تعلم ما يعتقده أخي فيك، وأنّه متى تمكّن منك لا يُبقي عليك، وأنا كذلك، وقد انضاف إلى هذا ما تظاهر به (الحاكم) ممّا يكرهه المسلمون، ولا يصبرون عليه، وأخاف أن يثوروا به، فيهلك هو ونحن معه، وتنقلع هذه الدولة". وعندما أجابها بن دوّاس إلى ما تريد، أعلمته أنّ الحاكم "سيصعد إلى جبلٍ شرقيّ حلوان في الغد، وليس معه سوى الركابيّ وصبيّ، وينفرد بنفسه، فتقيم رجلين تثق بهما، فيقتلانه والصبيّ، وتقيم ولده بعده، وتكون أنت مدبّر الدولة، وأزيد في إقطاعك مائة ألف دينار".

ويبدو أنّ هذا ما حصل، ذلك أنّ الحاكم قد توجّه بالفعل في اليوم التالي إلى ذلك الجبل "ومعه ركابيّان، فأعاد أحدهما مع جماعة من العرب إلى بيت المال، وأمر لهم بجائزة، ثمّ عاد الركابيّ الآخر، وذَكر أنّه خلّف الحاكم عند العين والمقصبة. وصار الناس كعادتهم يخرجون كلّ يوم ملتمسين رجوعه، فلم يعد، ممّا جعل خواصّ الحاكم يقصدون الجبل بحثًا عنه، وإذ دخلوا ذلك الجبل، وجدوا الحمار الذي كان مطيّته، وعلى قوائمه أثر لضربات سيف، وعليه سرجه ولجامه؛ وعلى مسافة من الحمار، بقرب بركة مياه تقع شرقيّ حلوان، وجدوا ثيابه مزرّرة بحالها لم تحلّ، وفيها أثر للسكاكين، فعادوا ولم يشكّوا في قتله"[1].

---

[1] ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٩: ٣١٥ ـ ٣١٦.

بهذه الحادثة الغريبة، انتهت حياة ذلك الرجل الذي لا تقلّ أطواره غرابة عن ظروف مقتله واختفاء جثّته. وكانت النساء أكثر الخلق ارتياحًا لنهايته، لشدّة ما عانين من أحكامه الجائرة عليهنّ. من تلك الأحكام أنّه كان قد منع النساء من الخروج من بيوتهنّ، وأمر بقتل مَن يخالف منهنّ هذا الأمر. وإذ "شكت إليه مَن لا قيّم لها يقوم بأمرها" أمر التجّار بأن يجولوا ببضائعهم على البيوت ليبيعوها للنساء، وأمر مَن يبيع أن يكون معه ما يشبه المغرفة بساعد طويل، يمدّه إلى المرأة وهي وراء الباب، وفيه ما تشتريه، فإذا رضيت وضعت الثمن في المغرفة وأخذت ما فيها دون أن يراها البائع... فنال النساء من ذلك شدّة عظيمة"[1].

إنهيَــــــــار
الدَّولة الفاطميَّة

كانت نهاية الحاكم سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م. فخلفه ابنه أبو الحسن عليّ، ولُقّب بالظاهر لإعزاز دين الله، واختصارًا: الظاهر. وإذ كان عمر الظاهر لا يتجاوز السادسة عشرة، كان الحاكم الفعليّ للدولة الوزير أبا القاسم عليّ بن أحمد الجرجرائيّ، وكانت عمّة الظاهر التي اتُّهمت بالتآمر على قتل الحاكم، واسمها ست الملك، صاحبة الوصاية عليه، في الحقبة الأولى من حكمه. ويبدو أنّ ست الملك وأبا القاسم قد أظهرا كفاءة في تدبير المملكة وسياسة الناس. وقد أكمل الظاهر، بعد بلوغه، تلك السياسة، فكان عاقلاً سمحًا متديّنًا عفيفًا حليمًا متواضعًا، عدل في الرعيّة، فاستقامت له الأمور، بعد أن تمكّن من اكتساب عطف أهل الذمّة ومحبّتهم، إذ تمتّعوا في عهده بالحريّة

---

١ - المرجع السابق، ص ٣١٧.

الدينيّة. ويبدو أنّ طموحات الخلافة الفاطميّة قد هدأت بعهده، إذ اقتصرت اهتمامات الظاهر على الشؤون الداخليّة.

في نهاية عهد الظاهر، بدا وكأنّ نجم الدولة الفاطميّة قد أخذ بالأفول. وتأكّد ذلك عندما خلف الظاهر بعد موته، سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥م، ابنه أبو تميم معدّ، الذي لُقّب بالمستنصر بالله، وكان عمره سبعة عشر عامًا، وهو الذي ضرب رقمًا قياسيًّا في طول مدّة الخلافة الفاطميّة، إذ دامت خلافته حوالى ستّين سنة، انتهت سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٢م، وقد شهدت مصر في أيّامه غلاءً وقحطًا "لم يُعرف مثله منذ زمن يوسف... ودام ذلك سبع سنين، حتّى بلغ ثمَن الرغيف الواحد خمسين دينارًا. وقيل إنّه كان يموت بمصر كلّ يوم عشرة آلاف نسمة جوعًا، ثمّ عُدمت الأقوات تمامًا، فأكل الناس الكلاب والقطط، ثمّ أكل بعضهم بعضًا، ودوّن المؤرّخون في هذه المجاعة قصصًا مروّعة"[1]. وفي عهد المستنصر، سقطت مدينة القدس بيد السلاجقة[2]، وتبعتها بعد خمس سنوات مدينة دمشق. أمّا حلب، فكانت قد أصبحت تحت حكم بني مرداس[3] بعهد الظاهر، سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٣ م، كما زالت سلطة الفاطميّين عن بلاد

---

١ ـ راجع: ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ١٠: ٢٣٧.

٢ ـ **السلاجقة، أو السلجوقيّون**: أمراء تركمان، جَدهم سلجوق، كان منهم فروع عدّة منها: **السلاجقة الكبار** ١٠٧٣ ـ ١١٧٥ أنشأهم طغرل بك وجغري بك حفيدا سلجوق، اشتهر منهم ألب أرسلان وملكشاه وبركياروق؛ **سلاجقة كرمان** ١٠٤١ ـ ١١١٨ أسّسهم قره أرسلان؛ **سلاجقة سوريا** ١٠٩٤ ـ ١١١٧ أسّسهم تـُتـُش بن أرسلان؛ **سلاجقة العراق وكردستان** ١١١٧ ـ ١١٩٤ أسّسهم مغيث الدين محمود؛ **سلاجقة الروم** في آسيا الصغرى ١١٧٧ ـ ١٣٠٠؛ ومن هذه الفروع برزت سلالات صغيرة أسّسها الأتابكة.

٣ ـ **بنو مرداس**: دولة عربيّة شيعيّة (١٠٢٣ ـ ١٠٧٩) قامت على أنقاض الدولة الحمدانيّة، انطلقت من وادي الفرات وشملت حلب ومنبج وبالس والرقّة والرحبة ثمّ حمص وصيدا وبعلبك وطرابلس وامتدّت إلى عانا وملكت جميع وادي الفرات الشامي، أسّسها صالح ابن مرداس، اشتهر المرداسيّون بانتصارهم على ملك الروم أرمانس ١٠٣٠ في معركة فاصلة صدّته عن شمال سوريا، قضى عليها العقيليّون، آخر من حكم السلالة بن محمود.

الأقصى سنة ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م، بعد أن خلع أمير مكّة والمدينة طاعتهم سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م.

بموت المستنصر سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٢م، خلفه ابنه أبو القاسم أحمد وتلقّب بالمستعلي بالله، خلافًا لِما كان عَهد به المستنصر بالخلافة لابنه نزار، لأنّ وزير الدولة وقائد جيوشها: الأفضل بن بدر الجماليّ الملقّب بأبي القاسم شاهنشاه، الذي استوزره المستنصر بضغط من الجيش، كان قد أصبح الآمر والناهي في الدولة، فاستبعد نزارًا، وقرّر الخلافة لأحمد المستعلي، الذي مات سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠١م، فجاء الأفضل بابن المستعلي: أبي علي المنصور، ولقّبه بالآمر بأحكام الله، وبايع له بالخلافة. وبما أنّ الآمر كان له من العمر خمس سنوات، أصبح الآمر الحقيقيّ في الخلافة: الأفضل.

وكانت الخلافة الفاطميّة قد أضحت في حال من الوهن، بسبب الفتن الداخليّة التي أدّت إلى تنازع المستعلي مع أخيه نزار على المُلك، فدارت بينهما حروب دامية أدّت إلى مقتل نزار وإلى انشقاقٍ داخل الخلافة.

في هذا الوقت، كان الصليبيّون بدأوا يغيرون على سواحل بلاد الشام، فاستولوا على أنطاكية وتوابعها، ثمّ تابعوا سيرهم إلى فلسطين فاستولوا عليها تمامًا. ولم يكن الآمر قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره عندما اغتيل الرجل القويّ في خلافته، قائد جيوشه ووزيره صاحب الأمر والحكم بمصر: الأفضل بن بدر الجماليّ، الذي اغتاله مجهولون بالخناجر في الشارع سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١م، فعيّن الآمر في الوزارة خلفًا للأفضل: المأمون البطائحيّ، الذي ظلم... وأساء السيرة، فقتله الآمر وصادر أمواله، بينما كان الصليبيّون قد احتلّوا الشاطىء الممتدّ من فلسطين إلى طرابلس. فتضعضع مُلك الفاطميّين قبل أن يتمّ اغتيال الآمر على يد تسعة رجال من العامّة، سنة ٥٢٤ هـ /

١١٢٨م، في أحد شوارع القاهرة، فقام بعده ابن عمّه عبد المجيد ابن محمّد بن المستنصر، الذي لُقّب بالحافظ لدين الله.

وزّر الحافظ في بداية عهده أبا عليّ أحمد بن الفضل، الذي استأثر بالأمر، حتّى إنّه "ضيّق على الخليفة، وحجر عليه، ومنعه من الظهور، وأودعه في خزانة لا يدخل إليه أحد إلاّ بأمر الوزير. وقد أهمل الوزير في ما بعد الخليفة والدعاء له، لأنّه كان سنّيًا، فأبغضه الأمراء والدعاة لأنّهم كانوا من الشيعة، وصمّم الشيعة المصريّون على قتله، فكمن له جماعة وقتلوه وأخرجوا الحافظ وبايعوه ثانية"[١].

يبدو أنّ الحافظ كان من ضعف الشخصيّة بحيث "كانت خلافته عشرين سنة إلاّ خمسة أشهر، ولم يزل في جميعها محكومًا من قبل وزرائه، حتّى إنّه جعل ابنه حسنًا وزيرا ووليّ عهده، فحكم ابنه عليه واستبدّ بالأمر دونه، وقتل كثيرا من أمراء دولته وصادر كثيرا، فلمّا رأى الحافظ ذلك سقاه سمًّا فمات"[٢].

أمّا الحافظ، فمات سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩م، فخلفه ابنه أبو منصور اسماعيل الذي تلقّب بالظافر بأمر الله، وكان له من العمر سبعة عشر عامًا، فكانت أيّامه مضطربة، ولم يتمكّن من تثبيت حكمه، لحداثة سنّه وانشغاله باللهو. وعُرف عنه أنّه ترك كلّ شيء، وانصرف إلى شاب بعمره، هو نصر ابن وزيره عبّاس الصنهاجي، الذي أحبّه الظافر، وجعله من ندمائه وأحبابه "الذين لا يقدر على فراقهم ساعة واحدة". إلى أن اغتنم الوزير مخالطة الخليفة لولده، فأوعز إلى هذا الأخير بقتل الظافر، ففعل.

---

١ - ابن تغري بردي، مرجع سابق، ج ٢ ق ٢، ص ١٢٠ وما بعدها.

٢ - إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ١١: ١٤١.

ولـم تقتصـر الفعلـة علـى هـذا الحـدّ، ولكـنّ ذلـك الوزيـر المسـمّى بعبّـاس، اتّهـم إخـوة الخليفـة بقتلـه، فقتلهـم. وكـان للخليفـة ابـن اسـمه عيسـى لـه مـن العمـر خمـس سنين "حملـه عبّـاس علـى كتفـه وأجلسـه علـى سـرير الملـك وبـايع لـه النـاس". وأخـذ عبّاس من القصر من الأموال والجواهر والأعلاق النفيسة ما أراد، ولم يترك إلاّ ما لا خير فيه[1].

حدث ذلك سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤م، وكان اسـم ذلـك الطفـل الـذي بويـع بالخلافـة: عيسى، فلقّب بالفائز بنصر الله، وكان الخليفة الفاطميّ الثالث عشر، وبقي على سـرير الملك ستّ سنوات إذ مات وعمره حوالى العشر سنوات في العام ٥٥٥ هــ / ١١٦٠م، وليس في المدوّنات ذكر لأسباب وفاته. لكنّ المدوَّن، أنّ الذيَ استقلّ بأمور الدولة طيلة عهد الطفل، كان طلائع بن زريّك، الذي لقّب نفسه بالملك الصالح بعد أن أصبح وزيرًا في بداية عهد الفائز.

قصّة ذلك أنّه خلافًا لما اعتقده عبّاس عند قتله للظافر بأن الأمر سيتمّ لـه علـى مـا يريده، فقد "اختلفت الكلمة عليه، وثار بـه الجنـد والسـودان، وصـار إذا أمـر بـالأمر لا يُلتفت إليه ولا يُسمع قوله، فأرسل من القصر من النساء والخدم إلى الصالح طلائع بـن زريـك يسـتغيثون بـه، وأرسـلوا شـعورهم طـيّ الكتـب، وكـان الصـالح فـي "مُنيـة بنـي حصيب" واليًا عليها وعلى أعمالها... فجمع ليقصد عبّاسًا، وسار إليه، فلمّا سمع عبّاس ذلك خرج من مصر نحو الشام بما معه مـن الأمـوال التـي لا تحصـى كـثرة، والتحـف والاشياء التي لا توجد إلاّ هناك، ممّا كان أخذه من القصر، فلمّـا سـار عبّـاس وقـع بـه الفرنجة فقتلوه وأخذوا جميع ما معه فتقووّا به".

---

١ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ١١: ١٩٣؛ راجع: مغنّيّة، دول الشيعة، مرجع سابق، ص ٨٤ ـ ٨٥.

دخل الصالح القاهرة بأعلام سود وثياب سود حزنًا على الظافر، وأحضر شاهدًا كان قد رأى قتل الظافر، فأراه موضع طمره، فأخرجه ونقله إلى مقابر القصر. وكان أوّل ما فعله الصالح بعد ذلك أن استقصى بيوت الكبار والأعيان بالديار المصريّة، فأهلك أهلها وأبعدهم عن ديارهم وأخذ أموالهم، وقد فعل ذلك خوفًا من أن يثوروا عليه وينازعوه في الوزارة[1].

ولمّا مات الخليفة الطفل، دخل الوزير الصالح بن زريّك القصر، واستدعى خادمًا كبيرًا وقال له: مَن ها هنا يصلح للخلافة؟ فقال الخادم: ها هنا جماعة! وذكر أسماءَهم، وذكر له منهم إنسانًا كبير السنّ، فأمر الصالح بإحضاره، فقال بعضهم للصالح: ـ لا يكون عبّاس (الوزير السابق) أحزم منك حيث اختار الصغير وترك الكبار واستبدّ بالأمر ـ فأعاد الصالح الرجل إلى موضعه، وأمر حينئذ بإحضار أبي محمّد عبد الله بن يوسف بن الحافظ، الذي كان مراهقًا قارب البلوغ، وبايع له بالخلافة بعد أن لقّبه بالعاضد لدين الله، وزوّجه ابنته.

كان العاضد لدين الله خاتمة الخلفاء الفاطميّين، وبه انتهت الخلافة الشيعيّة سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١م. وبينما كان العاضد على فراش الموت، كان صلاح الدين الأيّوبي يأمر بوقف الدعاء للخليفة الفاطميّ في مساجد مصر، ويأمر بالدعاء للخليفة السنّيّ العبّاسيّ المقيم ببغداد[2]، وكان يومها الخليفة العبّاسيّ الثالث والثلاثين، وهو المستضيء بالله[3] الذي كان هو الآخر معترفًا به اسميًّا كخليفة، بينما كانت السلطة قد أصبحت بيد الوزراء.

---

١ ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ١١: ١٩٣ ـ ١٩٤.

٢ ـ راجع المجلّد الثامن عشر من هذه الموسوعة.

٣ ـ **المستضيء بالله**: الخليفة العبّاسيّ الثالث والثلاثون (٥٦٦ ـ ٥٧٥ هـ / ١١٧٠ ـ ١١٨٠م).

وبذلك كانت خاتمــة الدولــة الفاطميّــة الشيعيّة الإسـماعيليّة التــي بـدأت مـع ظهـور المهـديّ بسجلماسـّة سـنة ٢٩٩ هــ / ٩١١م، وانتهـت بمـوت العـاضد سـنة ٥٦٧ هــ / ١١٧١م؛ وكانت نهايتها ختامًا لدول الشـيعة فـي البـلاد العربيّـة، إذ منـذ ذلـك التـاريخ، انحصرت دولتهم في فارس. أمّا في مصر، فمنذ ذلك التاريخ، لم يعد المؤذّنون ينـادون على المآذن "حيّ على خير العمل*"، ولم يعـد الخطبـاء فـي المسـاجد يفتتحـون كلامهم بالصلاة على عليّ المرتضى وفاطمة البتول والحسن والحسين بعـد محمّـد المصطفـى، ولـم يعـد الثـامن عشـر مـن ذي الحجّـة، وهـو يـوم غديـر الخـمّ*، يـوم عيـد، وتوقّفـت الاحتفالات التي كـانت تجـري فـي تلـك المناسبة مـن كـلّ سـنة، ولقـد كـانت مـن أهـمّ الاحتفالات الدينيّة التي كانت تهتزّ لها جوانب القاهرة فرحًا وسرورًا... ولم تعد مصـر توقف البيع والشراء في العاشر من محرّم*، ولـم يعـد الأهـل يجتمعـون فـي عاشـوراء على النّوح والإنشاد والتطواف بالأزّقّة والأسواق، وقصد مشهد أم كلثوم ونفيسة، وهـم نـائحون باكون... وقضت سياسة الضغط التي اتّبعها صلاح الدين على المذهب الشيعيّ في مصر قضاءً شبه تام.

الفَصلُ الخَامِس

الشّيعَة في لبنَان

الشّيعَة في لبنَان؛

بَنو سُودُون في جبَل عَامِل؛ بَعدَ الفَتح العُثمَانيّ؛ فِي عَهدِ ظاهر العمر؛

في عَهد الجَزّار؛ في عَهدِ ابراهِيم بَاشا؛ في نهَايَةِ العَهدِ العُثمَانِيّ؛

بعدَ الحربِ العالَميّةِ الأولَى؛ فِي جبَل لُبنَان ومنَاطق البقَاع؛

فِي الجُمهوريّة اللُّبنَانيّة؛ فِي خِلال الحَربِ اللُبنَانيّة.



الشّيعة في لبنان

يضطرّنا البحث في موضوع الشيعة في لبنان إلى العودة كثيرًا إلى الوراء، ولو بإيجاز، للإحاطة بالموضوع من جميع أطرافه. فلقد ذكرنا في الفصول السابقة ما تسبّب به حكم المماليك من قهر للشيعة في جميع البلدان التي وقعت تحت حكمهم. فقد رأى المماليك في الشيعة خطرًا على حكمهم نظرًا لِما كان هؤلاء عليه من الشدّة والقوة وكثرة العدد في جميع أنحاء سوريا[1]. وبحجّة أنّ هذه الفرق قد "أعانت العدوّ وهادنته" عندما قام الصليبيّون بمحاربة المسلمين وتحت شعار "إعادة توحيد الفرق الإسلامية المنشقّة وضمّها إلى السنّة"، قتل المماليك من الشيعة والإسماعيليّة والنصيريّة عددًا كبيرًا، ورغم المقاومة الباسلة التي أبداها هؤلاء، فقد اضطرّت، في آخر الأمر، جماعات منهم إلى الهرب والتجأت إلى جبال لبنان والبقاع[2].

كان ذلك في أوائل القرن الثالث عشر. قبل ذلك التاريخ، كان بعض القبائل العربية قد أوغل في لبنان، لا سيّما في الجنوب، حيث توطّن بنو عاملة[3] الذين بات واحد من جبال لبنان الجنوبيّ يُعرف باسمهم: جبل عامل.

---

١ ـ ابن جبير محمّد بن أحمد، رحلة ابن جبير، ص ٣٠٤.

٢ ـ حتّي د. فيليب، لبنان في التاريخ، فرنكلين للطباعة والنشر (بيروت،١٩٥٩) ص٣٩٧.

٣ ـ حمزة فؤاد، قلب جزيرة العرب (القاهرة، ١٩٣٣) ص٤١١.

بَنِو سُـــودُون

في جَبَل عَامِل

أرسل المماليك إلى جبل عامل بني سودون وأقطعوهم المنطقة، وكانت هذه الأسرة من أصل غير عربيّ تنتمي إلى المماليك المصريّين الجراسكة.

عامل آل سودون الشيعة بقساوة بالغة تبعًا لِما درج عليه المماليك في معاملتهم لغير السنّة عامّة، ومن الأخبار التي ما زال يتناقلها الجنوبيّون أنّ جماعة من أعيان آل سودون، خرجت يومًا للصيد في أرجاء قطاع تلك الأسرة، وإذ لم يوفّق القنّاصون في اصطياد الطرائد، اجتمعوا عصرًا بالقرب من نبع الحجير، وكانت كلابهم لم تطعم منذ الصباح، فشاهدوا امرأة تغسل ثيابًا على النبع، ومعها طفل يلعب بقربها، فأمر بنو سودون أتباعهم بذبح الغلام لإطعام الكلاب الجائعة، ولم تنفع توسّلات الأمّ المسكينة في منع هؤلاء عن ارتكاب جريمتهم أمام ناظري تلك الأمّ الملتاعة[١].

بعد الفتح العثمانيّ، استمرّ بنو سودون في حكم جبل عامل لبعض الوقت، إلى أن نازعهم السلطة بنو وائل، الذين تحدّر منهم بنو علي الصغير، وبنو الأسعد. وكان الوائليّون قد سيطروا على الجبل في بدء هجرة الشيعة إلى جنوب لبنان، إلى أن جرّدهم المماليك من سلطتهم وأعطوا جنوب لبنان للسودونيّين الذين انقرضوا بمقتل آخر حاكم منهم على يد الشيخ حسين الصغير عند العين التي لا تزال تُعرف بـ "عين سودون" بالقرب من نبع الحجير، على بعد ثلاثة أميال شمالي نهر الليطاني. كان ذلك في منتصف القرن السادس عشر.

---

١ ـ آل صفا محمد جابر، تاريخ جبل عامل، دار متن اللغة (بيروت، لا.ت.) ص٤٢.

بَعدَ الفَتحِ العُثمَانِـيّ

في المرحلة اللاحقة نازع الوائليّين الإقطاع والسيادة علـى جبـل عـامل بنـو شكر، المتحدّرون من سلالة الإمام الحسين ابن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وتمكّن الشكريّون من السيطرة حتّى العـام ١٦٤٩ عندمـا أطـاح بهم علـي الصغير الوائلـيّ وقضـى علـى زعامتهم نهائيًا.

قبل ذلك التاريخ، كانت أسـر شـيعيّة حسـينيّة وحسـنيّة شـريفة قد قصدت منـاطق الجنوب والبقاع وجبل لبنان وتوطّنت فيها، قادمة من مناطق الحجـاز والعـراق والشـام وسواها، حملت فروعها كنوات مختلفـة، كـآل الحسـيني وآل الأميـن وآل شـرف الديـن وآل صدر الدين وآل فضل الله وآل ابراهيم وآل بدر الديـن وآل نصرالله وآل هاشـم وسواهم العديد من الأسر الكريمـة، وقـد اتّصـف أبنـاء تلـك العـائلات الشـريفة بـالعلوم الدينيّة وبالمكانة الاجتماعيّة، وتميّزوا بالصفات الخلقيّـة العاليـة. ولأبنائهـا احـترام بـالغ من قِبَل الشيعة وسواهم من عناصر المجتمع اللبنانيّ عمومًا.

مع بداية الحكم العثمانيّ، راح الشيعة في جنوب لبنان يتعرّضون لأبشـع المجـازر على أيدي العثمـانيّين وأعوانهـم مـن رجـال الإقطـاع فـي لبنـان وفلسطين، فقـد عـرف الشيعة في عهد السلطان سليم العثمانيّ اضطهادًا قلّما عرفه شعب بسبب انتمائه الدينيّ، وممّا فعله الأتراك بحقّ الشيعة أنّهم نكّلوا بعلمائهم، واستحلّوا دماءهم، وشـتّتوا شـملهم، وصادروا مكتباتهم، وجعلوا مؤلفاتهم طعمًا للنـيران، وفتـك السـلطان سـليم فتكًـا ذريعًـا بالشيعيّين المقيمين على الحدود الإيرانية، فذبح منهم ٤٤ ألف نسمة، كذلك قتل ٤٠ ألفًـا منهم في حلب، فشهد جبل عامل موجة نزوح شيعيّة جديدة، غير أنّ الاضطهاد قد امتدّ إلى الشيعة المقيمين في سوريا الجنوبيّة، وكان السلطان سليم قـد اسـتصدر مـن علمـاء

دمشق السنّة الفتاوى باستحلال قتال الشيعة، وهدر دمائهم ومحو آثارهم واستبعاد ذراريهم، وبأن لا تقبل لهم توبة[1]. فتعرّضت إذ ذاك قرى جبل عامل لأبشع المجازر، منها أثنتان حصلتا في قرية أنصار الواقعة شمالي جبل عامل: الأولى على يد الأمير ملحم المعنيّ سنة ١٦٣٨، وقد ذهب ضحيّتها حوالي ١٦٠٠ قتيل، والثانية سنة ١٧٤٣ على يد الأمير ملحم الشهابيّ، وقُتل فيها ما يتراوح بين ١٠٠٠ و١٤٠٠ قتيل[2]. هذا الاضطهاد المرير لم يثنِ شيعة جبل عامل عن المثابرة في كفاحهم من أجل التخلّص من النير الغريب، في سبيل التمتّع بالإستقلال، ولم يخمد كفاحهم طوال العهد العثمانيّ. فقد أعلنوا ثورتهم على الحكم العثمانيّ، وعلى حلفائه من المعنيّين، في العام ١٦٦٦، واستمرّوا في قتالهم حتّى العام ١٦٩٧، يوم انقرضت الأسرة المعنيّة بوفاة آخر أمرائها أحمد المعنيّ، وانتقلت الإمارة إلى الشهابيّين. فسارع الزعيم الوائليّ الشيخ مشرف إلى رفع راية الاستقلال في جبل عامل. إلاّ أنّ العثمانيّين وحلفاءهم من إقطاعيّي جبل لبنان، لم يعترفوا بهذا الاستقلال، فعادت الحرب بين الشيعة ورجال الدولة لتشتعل من جديد، ولم تتوقّف إلاّ في العام ١٧٠٥ عندما تولّى مقاطعة صيدا بشير باشا الذي هادن الشيعة ورفع سلطة الأمراء اللبنانيّين عنهم، وأعطاهم نوعًا من الحكم الذاتيّ، فتولّى شرف الصغير الزعامة التي راحت تنتقل بالوراثة في ما بعد.

---

١ ـ للاستزادة والإطلاع على هذه الفتاوى التي صدرت عن الشيخ نوح حكيم الحنفي، راجع: كتاب العقود الدريّة في الفتاوى الحامديّة، طبع (مصر، ١٣٠٠هـ) ١: ١٠٢ وما يليها.

٢ ـ آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص٧١ وما يليها.

فِي عَهــــــدِ

ظاهر العمر

في هذه الأثناء، قام زعيم في فلسطين، يُدعى ظاهر العمر ١٦٩٥ ـ ١٧٨٢م، وهو من سلالة الإمام عليّ عبر ولده الإمام الثاني الحسين، كانت عشيرته قد هاجرت من المدينة المنوّرة إلى بادية حماة، فنزلت في بني أسد، وفي هجرتها الثانية حلّت في فلسطين. وكان أبوه الشيخ عمر بن أبي زيدان متوليًا عى صفد وطبريّا، فخلفه في العام ١٧٠٦م، وراح يعمل لإنشاء دولة شيعيّة كبرى. فاستولى على عكّا سنة ١٧٤١ واتّخذها مقرًّا لحكومته، وراح يعزّزها بالأبراج والحصون. ولمّا قوي شأنه، أحالت الدولة العثمانيّة له ولاية صيدا. وعندما حاول أن يضمّ جبل عامل إلى دولته الفتيّة، اصطدام برفض الإقطاعيّين الشيعة الذين تمسّكوا باستقلال الجبل، إلاّ أن هؤلاء عادوا ووافقوا على نوع من الاتّحاد الفدراليّ، بموجب محالفة بين ظاهر العمر من جهة، وناصيف نصّار حاكم جبل عامل من جهة ثانية، وقّعت في عكّا بتاريخ الجمعة ٨ رجب ١١٨١هـ (١٧٦٧م).

ما إن تمّ هذا الاتّفاق، حتّى بادر الشيعة في هذه المناطق إلى خلع نير السلطة التركيّة، وأبوا أن يدفعوا الضرائب، فبادرت الدولة العثمانيّة إلى تجريد حملة عسكريّة قوامها ثلاثون ألف رجل، مهمّتها إخضاع الشيعة في جبل عامل وبلاد فلسطين، وهدم سلطتَي جبل عامل وظاهر العمر. وفي الثلاثين من آب (أغسطس) ١٧٧١م، تصادم الجند العثمانيّ مع الشيعة على ضفاف بحيرة الحولة، حيث أباد الشيعة الفرقة العثمانيّة إبادة تامّة[١]. وفي التاسع والعشرين من تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٧٧١ تعرّض جبل

---

١ ـ راجع: لاكروا إدوار، تاريخ سوريا ومصر؛ الشهابي المير حيدر، مطبعة السلام (مصر،١٩٠٠) ١: ٨٠٨.

عامل لهجوم آخر، جاء هذه المرّة من جبل لبنان، على يد حاكمه الأمير يوسف الشهابيّ، وكان خطّ الدفاع في النبطيّة ـ كفررمان، هنا أيضًا كان النصر للشيعة الذين قهروا أنصار العثمانيّين وردّوهم على أعقابهم بعد أن أوقعوا في جيشهم الخسائر الفادحة[1]. وفي ١٠ حزيران (يونيو) من السنة التالية (١٧٧٢)، تآزر عثمان باشا والي الشام الذي كسره الشيعة عند الحولة، مع الأمير يوسف الشهابيّ بعد هزيمته في معركة النبطيّة ـ كفررمان، وشنّا هجومًا على جبل عامل وهما على رأس جيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل، وقد وقعت المعركة بجوار صيدا، فانهزم المهاجمون شرّ هزيمة.

هذه المناعة التي اكتسبها جبل عامل بتحالف زعمائه مع الزعيم الشيعيّ ظاهر العمر، الذي كان يحكم المناطق الشماليّة من فلسطين، بدأت تضعف بعد أن دالت دولة العمر، الذي جرّدت عليه الدولة التركيّة حملة هائلة عام ١٧٧٦، اغتيل خلالها على يد أحد الجنود المغاربة. وبموت العمر، عيّن واليًا على صيدا أحمد باشا الجزّار.

منذ تولّيه صيدا، راح الجزّار يحاول إخضاع جبل عامل للأمبراطوريّة العثمانيّة، مجرّدًا عليه الحملة تلو الحملة، وكان لا يزال الشيخ ناصيف نصّار يتزعّم الجبل، واستمرّ يقود المدافعين عنه ببسالة حتّى العام ١٧٨٠، حين تمكّن الجزّار من التغلّب على نصّار في قرية يارون، حيث أصيب الأخير خلال إحدى المعارك وخرّ قتيلاً، فسارع جنود الجزّار إلى اكتساح البلاد وأحرقوا القرى ودمّروا المنازل، وسلبوا المؤلّفات النفيسة التي كان يملكها الشيعة، وأرسلوها إلى عكّا حيث أتلفت. وأسرف رجال الجزار في الشعب الشيعيّ قتلاً وذبحًا، وقبضوا على وجهائه، وأرسلوهم إلى سجون عكّا حيث ماتوا خنقًا، وشُرّد مَن بقي منهم في البلاد المجاورة، وهاجر بعضهم

---

١ ـ راجع: الشهابي، مرجع سابق، ١: ٨٠٩ ـ ٨١٠.

الآخر إلى البلاد النائية، كالهند والعراق وإيران والأفغان، حيث التحقوا بالجماعات الشيعيّة هناك، كما قصد البعض الآخر جبال حلب والأناضول، ونزح آخرون إلى عكّار والبقاع. ومَن بقي في البلاد أصبح خاضعًا مرغمًا للسلطة العثمانيّة، وبذلك طويت صفحة استقلال جبل عامل[1].

في عَهد الجَزّار

إحتلّ الجزّار الجبل، وطبّق عليه حكمًا عسكريًّا صارمًا، وبعد مرور ثلاث سنوات، بدأ الشيعة يعملون سرًّا لاستعادة استقلالهم، فقرّروا البدء بمحاربة الأتراك عن طريق حرب العصابات التي تزعّم أُولاها الشيخ حمزه بن محمّد النصّار من آل علي الصغير، وتقرّر أن يدير شؤون الثورة الشيخ علي الزين. وكانت أولى عمليّات تلك العصابات أن هاجم رجالها معتمد الجزّار في قلعة تبنين، وذبحوه ذبح النعاج، وقتلوا جنده وأعوانه.

سارع الجزّار للانتقام، فأرسل فرقة من جنوده تتعقب الثوّار، إلى أن داهمتهم في قرية شحور، حيث نشبت معركة قُتل بخلالها قائد الثوّار الشيخ حمزة. إلاّ أنّ رجال العصابات الثائرة استمرّوا بأعمالهم النضاليّة في عهد الجزّار، وخلفه سليم باشا، أمّا الخلف الثالث، سليمان باشا، فرأى أنّ تلك الأعمال قد اتّخذت حجمًا من الخطورة لا يمكن الإستمرار معه، فعمل على عقد اتّفاق مع الثوّار قضى بأن "لا يكون دخل في حكم البلاد ولا سلطة لموظّفي الدولة عليهم، وإنّما يرجعون في أمورهم وفصل

---

١ ـ آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص١٣٧.

الخلاف الذي يقع بينهم إلى شيخ المشايخ فارس الناصيف. فهو يمثّل والي صيدا تجاه الحكومة، وبه تُحصر المخابرات، وعليه تعود المسؤوليّة. وقد وافقت الآستانة على هذه المعاهدة التي أعطت الشيعة نوعًا من الإستقلال الذاتيّ الرمزيّ. وقد عُدّلت هذه المعاهدة في العام ١٨٢١ في عهد ولاية عبد اللّه باشا على صيدا، وبموجب التعديل، أعيد لحكّام جبل عامل حكم بلادهم كما كانوا سابقًا، وضمّت إلى الجبل مقاطعة مرجعيون، على أن يمدّوه بألفَي مقاتل عند الطلب"[1].

في عَهـــــدِ
ابرَاهِيم بَاشَا

ذلك الاستقلال المقيّد، سقط مع احتلال الجيش المصريّ للبنان وفلسطين عام ١٨٣٢ على يد ابراهيم باشا المصري. فقد ضمّ المصريّون جبل عامل إلى إمارة جبل لبنان، وكان أمير لبنان آنذاك بشير الثاني الذي ولّى ولده مجيدًا إدارة مقاطعات جبل عامل، فتذمّر الشيعة من حكم مجيد الذي "صبّ غضبه على الشيعيّين وأرهقهم ظلمًا وساق مئات منهم إلى السجون... وحقّر علماءهم، فكان نتيجة هذا، بالإضافة إلى الضغط والشدّة التي اتّخذها بعض العمّال المصريّين في جبل عامل وبعلبك، ومن جراء اتّباعهم سياسة العنف والازدراء بزعماء الشيعة وعلمائهم، وبسقوط الحكومة الإقطاعيّة التي كانت قد نشأت نتيجة المعاهدة المعدّلة بين العثمانيّين وأبناء الجبل، ثار الشيعة في جبل عامل وبعلبك، وكان قائدا الثورة، في الجبل، حسين بك الشبيب، وفي بعلبك، الأمير جواد الحرفوش"[2].

---

١ ـ آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص١٤٠ ـ ١٤٣.

٢ ـ آل صفا، مرجع سابق، ص١٤٧.

قوبلت الثورة بالقمع العنيف من قِبَل الدولة المصريّة، فسارعت إلى القبض على حسين الشبيب وإعدامه. إلاّ أن الثورة قد استمرّت رغم ذلك، وتبعتها ثورة جديدة نشبت في جبل عامل بقيادة حمد بك المحمود، من آل علي الصغير، في العام ١٨٤٠، وتمكّن حمد، بعد قتال ضار مع الأمير الشهابيّ مجيد، من صدّه، ومن ثمّ فرض نفسه على الإدارة العثمانيّة التي انتزعت سوريا من المصريّين، فانضمّ الشيخ الوائليّ حمد مع فرقة كان يقودها إلى الجيش العثمانيّ، وأظهر ضروبًا من البسالة، لفتت نظر عزّت باشا قائد الجيش التركيّ، الذي عيّن حمدًا حاكمًا على جبل عامل، وعهد إليه بمطاردة الجيش المصريّ في الجنوب.

في نهَايــــــــةِ العَهدِ العُثمَانِيّ

"عاد حمد البك إلى جبل عامل وانقضّ على الجيش المصريّ، فاشتبك معه في معارك عدّة، فكان النصر حليفه، واستولى على صفد وعين الشيخ، وجعل حمد الغزي حاكمًا لها، واستولى على طبريّا، والناصرة، وأجلى عمّال المصريّين منهما. وتولّى إخراج الأسرى والسجناء الذين حشرهم المصريّون في سجون عكّا"[١].

وبذلك عاد جبل عامل إلى الاستقلال الذاتيّ، وترأس الحكم فيه حمد البك الذي بلغ مرتبة رفيعة في الدولة العثمانيّة. ومنذ ذلك الحين، نشأ نوع من التحالف بين جبل عامل، والعثمانيّين.

---

١ ـ آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص ١٥٠ ـ ١٥١.

بوفاة حمد البك سنة ١٨٥٢، خلفه علي بك الأسعد، بمعاونة أخيه محمّد بك الأسعد، إلاّ أن شهر العسل بين العثمانيّين وشيعة جبل عامل لم يدم طويلاً. إذ بعد وقت قصير استُدعي علي ومحمّد الأسعد إلى دمشق من قِبَل واليها، بحجّة إعطائهما بعض الأوامر المقتضبة، فوافياها، وقد داهمهما الهواء الأصفر، فلم يلبث الأوّل أن قضى نحبه في العام ١٨٦٥، وتوفّي الثاني بعده بأربعة أيام، وقيل أنّهما ماتا مسمومَين"[١]، فسارع الباب العالي إلى إلغاء أيالة صيدا وضمّ مقاطعاتها إلى أيالة الشام، تحت اسم ولاية سوريا. وسقطت الحكومة الإقطاعيّة الشيعيّة الأخيرة في جبل عامل، وزال الحكم الشيعيّ الذاتيّ في جنوب لبنان.

مرّة أخرى، حاول الشيعة نيل الحكم الذاتيّ لجبل عامل، على طريقة اللاّمركزيّة، وتكوّنت في النبطيّة جمعيّة على رأسها الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر، ومحمد جابر آل صفا، راحت تبثّ "بين الشعب العامليّ فكرة الانتفاض على الحكومة ومناوأتها، والمطالبة... بالحكم الذاتيّ على طريقة اللاّمركزيّة"[٢]. إلاّ أنّ ذلك لم يتحقّق.

بعدَ الحربِ العالَميَّةِ الأولَى

قبل أن يعود جبل عامل إلى الوطن اللبنانيّ، شهد بعض الأحداث المعبّرة عن استمراريّة رغبة أهله في الحكم الذاتيّ. فعندما قام الأمير فيصل بحركته العربيّة في نهاية الحرب العالميّة الأولى، نشأت الإتّصالات بينه وبين زعماء الجبل، وأوفد فيصل

---

١ ـ آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص١٥٨.

٢ ـ آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص٢١٠.

برسالة لكامل بك الأسعد يستحثّه فيها على مهاجمة السواحل وطرد الأتراك منها، ورفع الراية العربيّة في أنحاء جبل عامل، فآثر كامل بك الحذر، وتريّث إلى أن تأكّد له انكسار الأتراك، فأرسل في ٣ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩١٨ نصًّا عن رسالة فيصل إلى كلّ من محمود وفضل الفضل، وتقرّر أن يجتمع أعيان جبل عامل في النبطيّة حيث تمّت إذاعة الرسالة، وفي ٥ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩١٨ قدم كامل الأسعد النبطيّة برفقة مبعوث الملك فيصل إيليّا الخوري، والراية العربيّة تخفق أمامهما، ورُفعت في أعلى دار آل الفضل.

إثر ذلك تمّ انتخاب رياض الصلح "رئيسًا لحكومة صيدا" التي كان يديرها رئيس البلديّة منذ انسحاب الأتراك، واختير لصور حكومة برئاسة الحاج عبد اللّه يحيى الخليل. إلا أنّ الوائليّين رفضوا حكومة رياض الصلح فناوأه كامل بك الأسعد، وتصاعدت في جبل عامل المطالبة برفع سلطة حكومة رياض الصلح عن الجبل، باعتبار أنّ كامل الأسعد هو حاكم المقاطعة كلّها، والمندوب لإدارة شؤونها بأمر من فيصل. وبينما بدأ زعماء الشيعة وعلماؤها في جبل عامل تحرّكهم لإسقاط حكومة رياض الصلح، وشنّوا "الحملة على مناصريه من العامليّين الشيعيّين"، وصلت حملة عسكريّة فرنسيّة إلى صور وصيدا في طريقها إلى بيروت، فعُيّن الضابط الفرنسيّ "فيجل" لإدارة حكومة صيدا وملحقاتها، وأُرسلت قوة إلى النبطيّة، نشرت في الساحة العموميّة الإعلان التالي نصه:

"باسم القائد العامّ لجيوش الحلفاء الثلاثة، إنكلترا وفرنسا والشرفاء، يُمنع الاجتماع العامّ والمظاهرات السياسيّة من أيّ نوع كان. ومَن خالف ذلك، عُدّ مسؤولاً ومستهدفًا للجزاء". وحمل الاعلان توقيع: "حاكم صيدا العسكريّ "فيجل" باسم "الحلفاء الثلاثة" وتاريخ ١١ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩١٨.

مع نشر هذا الإعلان الذي وُضع مثله في صيدا وصور ومرجعيون وصفد، انفرط عقد المؤتمرين الشيعة، وفي ٢٤ تشرين الأول (أكتوبر)، نُشر إعلان آخر في النبطيّة والطيّبة جاء فيه: "يُمنع الإجتماع والمداولة في صيرورة البلاد العائد حلّ قضيّتها للحلفاء الثلاثة". ولم يمضِ أسبوع على ذلك، حتّى استقال رياض الصلح من حاكميّة صيدا بتاريخ ٢٩ تشرين الأوّل (أكتوبر) بإيعاز من الحاكم العسكريّ الذي انفرد بالحكم.

قابل كامل الأسعد الإجراءات الفرنسيّة بالرفض، ودعا إلى اجتماع في الرابع والعشرين من نيسان (إبريل) ١٩٢٠، حضره أعيان الشيعة، تقرّر بنتيجته "الانضمام إلى الوحدة السوريّة، والمناداة بجلالة الملك فيصل ملكًا على سوريا، ورفض الدخول تحت حماية أو انتداب الفرنسيّين".

في الوقت ذاته، بدأ الشيعة يشكّلون الفرق للقيام بحرب العصابات ضد الفرنسيّين، ثمّ راحوا يقومون بأعمال ألحقت بالجنود الفرنسيّين أضرارًا مباشرة، ما جعل الفرنسيّين يجرّدون حملة على جبل عامل، احتلّوا خلالها دار الأسعد في الطيّبة، وكان كامل بك قد غادر إلى دمشق عن طريق فلسطين ـ الجولان. وفرض الفرنسيّون الأمن بقوّة السلاح.

فِي جَبَل لُبنَان ومنَاطق البِقَاع

قبل الانتقال إلى تاريخ الشيعة الحديث في لبنان الكبير، لا بدّ من ذكر لمحة عن الشيعة اللبنانيّين القاطنين في مناطق غير جبل عامل، وخاصّة في بعلبك والهرمل،

ومنهم نفر قليل في بلاد جبيل، أمّا الذين يقطنون في ضواحي العاصمة فهم نازحون حديثًا من الجنوب والبقاع.

يعود نسب بني حمادة إلى بلاد العجم، وقد جاء جدّهم حمادة من "بخارا" في إيران أواسط القرن الخامس عشر، ومعه أخوه أحمد وأهله وعشيرته وعشائر عديدة شيعيّة، ونزلوا "الحصين" في كسروان من جبل لبنان. ثمّ انتقلوا إلى "قمهز" من أعمال بلاد جبيل، ومن هناك تفرّقت عشيرتهم في جبّة المنيطرة ووادي علمات، كما سار أولاد أحمد إلى بعلبك، وتولّوا بلدة الهرمل. ولم يمضِ وقت طويل حتّى تولّى الحماديّون على بلاد جبيل بعد أن تقرّبوا من الأمراء العسّافيّين[1]، الذين كلّفوهم ببعض المهمّات القتاليّة، ومن ثمّ اتّسع التزامهم الإقطاعيّ حتّى شمل بلاد البترون وجبّة بشرّي. وتوطّن بعضهم في "لاسا" من جرود جبيل، وتملّكوا مزارع في الكورة والزاوية، كما استولوا على أراض في شمسطار وبعلبك[2].

---

١ ـ يتحدّر الأمراء العسّافيّون السنّة من نسب تركمانيّ، جاء جدودهم مع حملات المماليك قبل القرن الرابع عشر واستقرّوا في مناطق الكورة وعكّار، وإثر اجتياح كسروان من قِبَل المماليك سنة ١٣٠٥، أمر الملك المملوكيّ محمّد الناصر "تركمان الكورة أن ينزلوا ساحل كسروان ليحافظوا عليه من الإفرنج، وكان دركهم من حدود إنطلياس إلى مغارة الأسد وجسر المعاملتين، وكانت منزلتهم في إنطلياس، وحراستهم في نهر الكلب والبرج الذي يليه نحو الجنوب، وفي برج جونيه، وكانوا يقطنون في زوق العامريّة وزوق الخراب وزوق مصبح وزوق مكايل، وقد جدّدوا عمائر وبساتين في عينطورة كسروان وعين شقيق، مركز إقامة أمرائهم. ليس لدينا من أخبار هؤلاء الأمراء التركمان في خلال الحقبة المملوكيّة سوى أنّهم في "سنة ١٣٤٥، أمرهم الأمير يلبغا الأتابكي أن يسكنوا بيروت مع العساكر الشاميّة للمحافظة عليها من الإفرنج". ولمّا وقعت معركة مرج دابق بين السلطان سليم العثماني والمماليك سنة ١٥١٦، كان على رأس هذه الإمارة الأمير عسّاف، وهو من بين الذين "انحازوا إلى معسكر السلطان سليم". وكان عسّاف من أعضاء وفد الأمراء اللبنانيّين الذي زار السلطان سليم مهنّئًا إثر معركة مرج دابق، فولاّه على كسروان وبلاد جبيل، وسلّمه بذلك خطًّا شريفًا، وكان يسكن في عين شقيق صيفًا وفي عينطورة كسروان شتاء، وجماعته في الأزواق، ثمّ انتقل إلى غزير وجعلها موطنه". وقد جعل العسّافيّون مدبّريهم من أسرة حبيش المارونيّة التي انتقلت إلى غزير من يانوح جبيل.

٢ ـ الشدياق الشيخ طنّوس، أخبار الأعيان في جبل لبنان، إصدار بطرس البستاني (بيروت،١٨٥٩) ١: ٢٠٦ وما يليها.

بقي الحماديّون يتولّون على بعض مناطق جبل لبنان والشمال حتّى أواخر القرن الثامن عشر، حين ضربهم الأمير يوسف الشهابيّ، إذ انحسروا في المناطق البقاعيّة التي ما زالوا فيها حتّى اليوم. وقد التحقت بهم في ظروف مختلفة جماعات أخرى من الشيعة، حتّى أصبحت مناطق بعلبك ـ الهرمل على الكثافة الشيعيّة التي هي عليها اليوم، إلاّ أنّ هذه المنطقة ظلّت بعيدة عن مفاهيم الحكم الذاتيّ، وبقي الجنوب اللبنانيّ (جبل عامل) مركز الشيعة المميّز في لبنان.

وكانت أسرة أمراء شيعيّة أخرى قد حكمت بلاد بعلبك وكان لها دور فعّال في تاريخ الإمارة اللبنانيّة، والمقول إنّ أصل آل الحرفوش من العراق من خزاعة، نُسبوا إلى جدّهم الأمير حرفوش الخزاعي الذي عقدت له راية بقيادة فرقة في حملة أبي عبيدة الجرّاح على بعلبك. وكان بنو الحرفوش قد قدموا أوّلاً إلى غوطة دمشق ثمّ إلى بعلبك وسكنوها، وأقدم مَن ذكر منهم في تاريخ بيروت علاء الدين ابن الحرفوش سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٠٩ م، وكان مع الذين يؤمّنون الطرق في البقاع ويقاتل تركمان كسروان، فقُتل سنة ٨١٣هـ/ ١٣٩٣م، وكانوا يتولّون بعض شؤون البقاعَين وبعلبك في أوّل عهدهم بالحكم ومسكنهم في بعلبك وكرك نوح، وقد حكم الحرافشة في هذه المنطقة وفي حمص إلى أن فتكت بهم الدولة العثمانيّة سنة ١٨٦٦، وكانوا من أعظم أمراء سورية صولة وشجاعة وقوّة وسعة ملك، وكانوا شيعة اثنَي عشريّة يكرّمون العلماء والأشراف، بنوا المساجد في بعلبك وغيرها وجامع النهر في بعلبك. وقد سكن آل الحرفوش قلعة بعلبك وبنوا فيها وفي المدينة الأبنية الفاخرة، ولهم في بعلبك مقبرة عليها قبّة شامخة باقية إلى اليوم. ويروي التاريخ أنّ جماعة من جبل عامل قد التجأوا إليهم حين فرّوا من الجزّار وتفرّقوا في البلاد، منهم سادة من آل الأمين وعلماء من آل الحرّ فحموهم وأكرموا وفادتهم. كما يروى أنّ الجزّار أرسل مرّة إلى الأمير

الحرفوشيّ ولعلّه بدما ملك الشام، يطلب منه الأموال المقرّرة على إمارته للسلطنة، فملأ أكياسًا من نعال الخيل من الحديد وحملها على البغال فظنّها الجزار نقودًا، فلمّا فتح الأكياس وجد النعال إشارة إلى أنّه ليس عنده إلاّ الحرب، فاغتاظ الجزّار وعزم على حربه فلم يتهيّأ له ذلك؛ وكان في آل الحرفوش العلماء والشعراء إضافة إلى الأمراء والحكّام[1].

فِي الجُمهُوريَّة اللُّبنَانيَّـــــــــة

إنّ الرفض الذي أبداه الشيعة عندما أعلنت دولة لبنان الكبير التي ضمت المناطق الشيعيّة، لم يدم طويلاً، فلقد "أقلع جانب كبير من الشيعة عن مقاومة الدولة الجديدة، إذ أدركوا، تدريجًا، أنّ وضعهم كأقليّة كبرى في لبنان، خير لهم من وضعهم كأقليّة صغيرة في دولة سورية شاملة"[2]. إلاّ أنّ مأخذهم الكبير بالنسبة لميثاق لبنان الجديد، كان مبنيًّا على اعتبار أنّ ذلك الميثاق قد جاء نتيجة تفاهم بين الطائفتَين المارونيَّة والسنيَّة، دون أن يشترك الشيعة في رسم خطوطه. وقد أعطى التقليد الجديد للشيعة رئاسة السلطة التشريعيّة، مع حفظ حقوقهم في الوظائف والمناصب.

في الوقت الذي كانت فيه المناطق اللبنانيّة الأخرى تشهد نموًّا سريعًا لأسباب متعدّدة، أهمّها قرب تلك المناطق من العاصمة بيروت، وكون أكثريّتها صالحة للإصطياف، وقد شهد بعضها ازدهارًا بسبب قدوم أغنياء النفط إليها لتمضية فصل

---

١ ـ الأمين السيّد محسن، أعيان الشيعة، ١٠ أجزاء، دار التعارف (بيروت، ١٩٨٦) ٢: ١١٦.

٢ ـ الصليبي كمال، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر (بيروت،١٩٦٧) ص٢١٣.

الصيف، وبعضها الآخر كـان مقصد الأسر البيروتيّة الميسورة للحاجة نفسها، كما كانت أموال المغتربين الذين غادروا جبل لبنان بدءًا من أواخر القرن التاسع عشر قد ساهمت إلى حدّ كبير في عمران تلك المناطق التي تحرّرت من نير الإقطـاع السياسيّ والإجتماعيّ، منذ زمن بعيد، أي منذ صدور نظام المتصرّفيّة سنة ١٨٦١ الذي عُرف بـ"نظام لبنان الأساسيّ"، الذي ألغى الإقطاع وساوى اللبنانيّين في الحقوق، في هذا الوقت، كانت المناطق الشيعيّة الواقعة على أطراف لبنان تعاني شيئًا من الجمود، ولم تبدأ الهجرة الشيعيّة إلاّ في الأزمنة المتأخّرة، عندما فتحت دروب الإغتراب إلى أفريقيا، ممّا جعل تلك المناطق في تخلّف واضح بالنسبة للازدهار الذي وصلت إليه مناطق جبل لبنان. كما أنّ الاقطاع بقي مسيطرًا في الجنوب والبقاع، ممّا ساهم في التأثير السلبيّ على تطوّر القوم في مختلف المجالات.

وبينما أُسّست في دولة الإستقلال أحزاب مختلفة النزعات والأهداف، ضمّت أبناء الطبقات المختلفة، وقد عمّت تلك الأحزاب المناطق المسيحيّة والدرزيّة والسنيّة على السواء، بقيت المناطق الشيعيّة مفتقرة إلى مثل هذا التطور السياسيّ الاجتماعيّ، وظلّ الإقطاع يمثّل الحزب بالنسبة لابن الجنوب ولابن البقاع، واستمرّ الانتساب إلى الزعيم الاقطاعيّ يقترن بنوع من الإعتبار الحزبيّ.

إغتنمت الأحزاب اليساريّة ذات الإنتماءات المختلفة هذا الوضع، فراحت تعمل في أوساط المثقّفين الشيعة، وقد استهوت هؤلاء المبادئ التي تنادي بها الأحزاب اليساريّة عادة، ممّا أدّى إلى بروز تيّار جديد، متعدّد الانتماءات، إلاّ أنه موحّد المنطق، وهو منطق المعاناة من عدم التقدّم. وهكذا وجدت أكثر الأحزاب العقائديّة تربة خصبة لها، خاصّة في المناطق المحيطة ببيروت، وهي تلك التي عُرفت بحزام البؤس، وقد تكوّن ذلك الحزام من البؤساء والكادحين الذين هجروا الجنوب والبقاع قاصدين المدينة للعمل

والإرتزاق. وصدف أن أقام هؤلاء في المناطق المتاخمة لتلك التي أقيمت عليها مخيّمات اللاجئين الفلسطينيّين، الذين جمعهم بالشيعة نوع من وحدة الشعور بالغبن والبؤس والحرمان. ومثلما كانت التربة الشيعيّة صالحة لتقبل الأفكار العقائديّة اليساريّة ذات الشعارات التي تعد بمستقبل أفضل للكادح وللمحروم، فقد كانت التربة الفلسطينيّة، في المخيّمات، مرتعًا أخصب لمثل هذه الدعوات، لا بل سرعان ما حمل الفلسطينيّون لواء تلك الدعوات، وأشركوا، جيرانهم وشركاءهم في الأوضاع المعيشيّة السيّئة: الشيعة، في العمل المتحمّس للأحزاب ذات الميول اليساريّة المتعدّدة.

لم يمضِ وقت طويل، حتّى أصبح الشيعة عمومًا، مقسومين إلى تيّارَين اجتماعيَّين: المحافظ، وهو الذي ما زال يرضخ للمفاهيم والاعتبارات الإقطاعيّة، والثوريّ، وهو الناقم على الأوضاع الاجتماعيّة السيّئة، الباحث عن وسيلة من شأنها أن تبدّل في شروط معيشته، دون إعارة الكثير من الإعتبار لباقي أهداف الحزب الإيديولوجيّة. ونظرًا لكون الشيعيّ، يختلف عن السنّيّ في المفهوم الدينيّ، إذ هذا الأخير لا تسمح له سنيّته بأن يكون شيوعيًا، أو اشتراكيًا، أو قوميًّا سوريًّا ينادي بفصل الدين عن الدولة، فقد انخرط عدد لا بأس به من الشيعة في مثل هذه الأحزاب، وبدا وكأنّ أكثريّة الشيعة تنجرف لتصبّ مع التيّار، في بحر اليسار. ولم تنجح المحاولات الخجولة والبطيئة لزعماء الاقطاع في كبح جماح هذا التيّار، وبقي لدى بعضهم اعتقاد بأنّ أزلامهم الموروثين، لا بد وأنّهم عائدون في النهاية. إلاّ أنّ هذا الاعتبار الاقطاعيّ الجامد، كان خاطئًا، إذ سرعان ما دلّت الأحداث على أنّ الشعب الشيعيّ، الذي اعتاد على "التقيّة"، يعرف أن يصبر، ولكنّه يعرف أيضًا متى وكيف يثور.

فِي خِــــــلال
الحَربِ اللُبنَانيَّة

عندما بدأت حياكة المؤامرات قبيل الحرب اللبنانيّـة فـي الربـع الأخير مـن القرن العشرين لنسج المخطّطات المتعدّدة الهويّات، كـان قسـم كبـير مـن الشـيعة قد أصبـح خارج دائرة الإقطاع، وقد التحم عدد مـن هـؤلاء بالمقاومـة الفلسـطينيّة. بينمـا أعطـى القسم الباقي ولاءه للأحزاب العقائديّة التي، هي الأخـرى، وضعتهـا اللعبـة الدوليّـة فـي خندق المقاومة، أو وضعت المقاومة في خندقها لا فرق.

هنا جاءت الظاهرة اللغز. والظاهرة التي أصبحت لغزًا فــي مـا بعـد، هـي: الإمـام موسى الصدر.

علامات استفهام كثيرة رُسمت حول دور الإمام السيّد موسى الصدر في الأحـداث اللبنانيّة الأخيرة، وحول الظروف التي سبّبت إخفاءه في أواخر آب (أغســطس) ١٩٧٨ خلال زيارته لليبيا. ولكنّ الثابت، بعيدًا عن الإجتهادات، أنّ الإمام الصدر، سليل الأئمّة المتحدّر من أسرة حسينيّة شريفة، اللبنانيّ الأصل الذي ترعــرع وتعلّم فـي إيـران، قـد تفهّم أوضـاع الشيعة اللبنانيّين على حقيقتها. فراح في البدء يعمل على تأسيس المرجـع الحيّ لطائفته، فأعاد الاعتبار الأساسيّ إلى مجلس العلماء، وأعطى "المجلس الإِسـلاميّ الشيعيّ الأعلى" زخمًا واعتبارًا هامًين، ممّا أعـاد وضـع الطائفـة الشـيعيّة إلـى القواعـد الاجتماعيّة الصحيحة، في مـا يختـصّ بارتبـاط الفـرد سياسـيًّا وحياتيًّـا. وكـان التحـرّك المنتج للإِمام، الذي راح يستقطب الشيعة، ليزعج الزعماء التقليديّين: الإقطاعيّين. ولـم يمضِ وقت طويل حتّى التفّ حول الإمام عدد كبير من التيارَين الشـيعيَّين: المحـافظين السـائرين فـي أحـزاب الإقطـــاع، والثوريّيــن الملتحقيــن بــأحزاب اليســار والمقاومــة الفلسطينيّة. وعندما بدأت بوادر الحرب اللبنانيّة، كان الإمام موسى الصدر قـد أضحـى

المُحاور الأوّل باسم الشيعة، وبدا وكأنّ نجوم سائر زعماء تلك الطائفة، غير المنضوين تحت راية الإمام، سائرة نحو الأفول. وما كادت الحرب أن تستشري، حتّى جاء إعلان الإمام موسى الصدر قيام تنظيم "حركة المحرومين" كحركة سياسيّة في أواخر آذار (مارس) ١٩٧٥ وإعلانه من ثمّ ولادة تنظيم "أفواج المقاومة اللبنانيّة" التي عُرفت إختصارًا باسم حركة "أمل"، كجناح عسكريّ لحركة المحرومين في ٦ تمّوز (يوليو) ١٩٧٥. ومنذ ذلك التاريخ، ودور الشيعة يتعاظم في حياة لبنان السياسيّة والعسكريّة[١]. وقد برّر الزعيم الدينيّ الشيعيّ إقدامه على إنشاء هذه المنظّمة بأنّها ستعمل على المحافظة على الطائفة من الأخطار التي تُحدق بها في الجنوب، وقال إنّ "إسرائيل لو احتلّت جنوب لبنان لزادت قوّتها ثلاثين بالمئة... وهنالك المأساة مع الاعتداءات المتكرّرة، ومع النزوح والدمار وقرب شبح الاحتلال... إنّ الحلّ الوحيد هو حمل السلاح... إنّ على المواطن العاديّ أن يحمل السلاح ويقوم بالمسؤوليّة العفويّة التي لا تنفصل عن كيانه وعن شرفه وعن تاريخه... وبذلك يضع نفسه ودولته والعرب والعالم أمام أمر واقع"[٢]. وعندما تحدّث الإمام عن الحرب اللبنانيّة في كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٧٦ قال: "إنّ الشيعة كانوا في طليعة من تصدّوا لإحباط المؤامرة الدوليّة الرامية إلى التقسيم في شكل دويلات طائفيّة تكون بمثابة ٣ قواعد: واحدة للغرب، والثانية للشرق، والأخرى لإسرائيل، بمعنى آخر تحطيم صيغة التعايش اللبنانيّ الذي كان مثالاً حضاريًّا للعالم كلّه. وبكلّ فخر أقول أنّ الشيعة قاتلوا لإحباط هذه المؤامرة وقدّموا ضحايا كبرى لعلّها أكثر من ضحايا الآخرين، ولكنّهم أحبطوا المؤامرة بالدفاع عن أحيائهم أينما كانت، وبحماية المقاومة ومحاربة التقسيم...

---

١ ـ خليفة نبيل، الشيعة في لبنان ثورة الديمغرافيّة والحرمان (بيروت،١٩٨٤) ص٩.

٢ ـ "الحوادث" العدد ٩٥٠ الجمعة ٢٤ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٥، ص٨.

إنّ الشيعة دفعوا ١٥ ألف قتيل وحوالي ألف معاق وقريبًا من ٥٠ ألف جريح. إن الشيعة قدّموا هذه الخسائر بإرادة قياديّة"[١].

غير أنّ هذا لم يمنع بعض الأحزاب اليساريّة من التشكيك في أهداف الإمام الصدر قبيل اختفائه، إذ كثر اللغط حول الموقف الحقيقيّ للإمام، فقيل إنّه كان أحد روّاد التقسيم، والعاملين على تنفيذ مخطّطه، وإنّه قد سهّل سقوط "النبعة" وهي ضاحية لبيروت، وأمر رجاله بالاستسلام. إلاّ أنّ نائب الإمام في رئاسة المجلس الإسلاميّ الشيعيّ الأعلى، الشيخ محمّد مهدي شمس الدين، قد ردّ هذه التهمة إلى مطلقيها من أحزاب اليسار، وبردّه يصبح اليسار هو المتّهم بعمليّة تسهيل سقوط النبعة، واستطرادًا بالعمل على التقسيم، إذ يقول: "... أنا أشهد أمام اللّه أنّ سماحة الإمام الغائب سواء في نطاق المجلس الإسلاميّ الشيعيّ الأعلى، أو على صعيد جهده الشخصيّ، لم يدّخر وسيلة إلاّ ووظّفها في سبيل ضمان سلامة النبعة، عن طريق تحييدها، أو عن طريق آخر يضمن لها الأمن والأمان، ويوفّر لسكّانها الغطاء النفسيّ الذي يشجّعهم على البقاء فيها وعدم مغادرتها، لكنّ مساعينا، بكلّ أسف، لم تكلّل بالنّجاح، رغم أنّها مساع انطلقت من كلّ الاتّجاهات... لقد اتّصلنا بكلّ الوسطاء والفرقاء: من المقاومة الفلسطينيّة والجيش ولجان الارتباط، ولكنّ الرياح لم تجرِ كما نشتهي، ووقع المحظور، ونفّذت "الجبهة اللبنانيّة" خطّتها في اقتحام النبعة بالشكل الذي حدث. وبالقتل والتهجير، وذلك بالرغم من وجود ما يفوق عن عشرين تنظيمًا مسلّحًا، يساريًّا وفلسطينيًّا، داخل البلدة... نحن أكثر الأطراف براءة، والأكثر صدقًا في مواجهة مصير النبعة والحرص على سلامتها... مع ذلك كانت الضحيّة البريئة هي سماحة الإمام الصدر"[٢].

---

١ ـ "الحوادث" ع ١١٦٠، الجمعة ٢٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩، ص١٣؛ ع ١٠٥٠ الجمعة ٢٤ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٧٦.

٢ ـ "الحوادث" ع ١١٦٠، الجمعة ٢٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩، ص١٣.

الثابت أنّ الإمام كان من أقطاب القوى التي حاولت المحافظة على الشيعة في حرب لبنان، والتي عملت كلّ ما بوسعها من أجل إخماد نيرانها. ولقد كان سماحته مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بآية اللّه الخميني وعلماء إيران، وإذا كانت ظاهرة خلاف الإمام الصدر مع اليساريّين بعد المرحلة الأولى من الحرب اللبنانيّة قد بدت غريبة عند حصولها، فهي أصبحت مفهومة بعد الصدام الذي حصل في إيران بين الشيعة الخمينيّين من جهة، واليسار من جهة أخرى، على أثر تحقيق الهدف الأوّل من الثورة الإيرانية بإسقاط نظام الشاه، فالاستراتيجيّة هناك كانت تقضي، أوّلاً، بإسقاط نظام الشاه، وهي كانت مشتركة بين العلماء واليساريّين، أمّا الأهداف فهي على طرفَي نقيض، إذ بينما كان المسلمون الشيعة يعملون لإنشاء جمهوريّة إسلاميّة، كان اليساريّون يعملون لإنشاء جمهوريّة علمانيّة، وهكذا كان لا بدّ من المواجهة بين حلفاء الإستراتيجيّة الأولى بعد تحقيق مرحلتها.

إنّ العلاقة "بين الإمام الخميني والامام الصدر ترقى إلى مستوى القرابة بين الرجلَين من حيث أنّهما ينتسبان إلى السيّاد الذين يتحدّرون في تاريخ الطائفة الشيعيّة من آل بيت النبيّ محمد ﷺ. ثم إنّ هناك وجوهًا أخرى للقرابة، فابن الإمام الخمينيّ السيّد أحمد متزوّج من ابنة أخت الإمام الصدر، وابن أخت الإمام الصدر السيّد مرتضى الطباطبائي متزوّج من حفيدة الإمام الخميني. والإمام الصدر تتلمذ على يدَي الإمام الخمينيّ في اكتساب العلوم الدينيّة عندما كان تلميذاً في جامعة قم الإيرانيّة... وبداية التعاون بين الإمامَين في مجال التحضير للثورة الإيرانيّة ترجع إلى عام ١٩٦٣، منذ انفجر الخلاف بين شاه إيران وبين رجال الدين الشيعة عندما رأى هؤلاء في نظام الشاه نسخة طبق الأصل عن النزعة الآتاتوركيّة في تركيا، وتغييرًا عمليًّا للقواعد الإسلاميّة باتّجاه إعادة ربط إيران بالنزعة الآريّة، وقد استمرّ التعاون بين

الصدر والخميني حتّى يوم اختطاف الأوّل، وكان ذلك التعاون قائمًا في مختلف المجالات[1]..."

ولقد جاء اختفاء الإمام الصدر قبل أيّام من ثورة الإمام الخميني الظافرة ليزيد في طرح علامات الإستفهام إلحاحًا، خاصّة بعد ما جاء على لسان الخميني من "أنّنا نفكّر بلبنان منذ سنوات طويلة، لأنّنا نعرف أنّه جزء من البلدان الإسلامية" ليس هذا كلّ ما ذكره الإمام الخميني عن لبنان، بل إنّه "اعتبر جبل عامل في جنوب لبنان منطقة مقدّسة للإسلام والشيعة، ودعا أهل الجنوب للتحالف مع المقاومة الفلسطينيّة لضمان حصولها على الحقوق الفلسطينيّة ومنع توطين الفلسطينيّين في الجنوب"[2].

إنّ في قول الخميني كثير من الشرح للموقف الحقيقيّ للإمام الصدر من قضيّة الجنوب. فالإمام الصدر، وهو تليمذ الخميني وحليفه ونسيبه، كان يسعى للحفاظ على الهويّة التاريخيّة لجنوب لبنان، تلك الهويّة التي جاء تنفيذها في بداية هذا البحث: الهويّة الشيعيّة. وإنّ العمل على المحافظة على هذه الهويّة يعني العمل ضدّ التوطين: توطين الفلسطينيّين في جنوب لبنان. فهل ذهب الإمام الصدر ضحيّة مؤامرة التوطين هذه؟

قد يكون في موقف نائب الإمام الغائب من قضيّة التوطين ومن تصرّفات المقاومة الفلسطينيّة ما من شأنه أن يؤكّد على هذا الإفتراض.

نائب رئيس المجلس الإسلاميّ الشيعيّ الأعلى الشيخ محمّد مهدي شمس الدين، خلال مناسبة خاصّة جمعت المثقّفين الجنوبيّين في منطقة برج البراجنة، كشف النقاب عن مؤامرة تجري في الجنوب لاستملاك أراضي الشيعة من قِبَل الفلسطينيّين. وبادر

---

١ ـ "الحوادث"، العدد ١١٦٤، الجمعة ٢٣ شباط (فبراير) ١٩٧٩، ص١١ ـ ١٢.

٢ ـ راجع: "الحوادث"، العدد ١١٦٧، الجمعة ١٦ آذار (مارس) ١٩٧٩، ص١٧.

بتحديد واضح وصراحة تامّة "إلى دعوة أهالي الجنوب لحمل السلاح فورًا والتصدّي لمخطّط التوطين... ومحاكمة كلّ جنوبيّ يثبت إسهامه في بيع الأراضي للغير تحت تأثير الإغراءات الماديّة، وذلك على طريقة محاكم الميدان، واعتماد أسلوب إهانته بعد تحذيره، ثمّ ضرب مصالحه، ثم قتله إذا تمسّك بموقفه المشجّع لعوامل انتقال الملكيّة في الجنوب من أيدي الجنوبيّين إلى أيدي... الأجانب والغرباء"[1]. وربط نائب الإمام الغائب ربطًا واضحًا بين هذه الدعوة إلى التحرّك في الجنوب، وبين تحرّك شيعيّ مركّز لا بدّ وأن يحقّق أهدافه.

كذلك كانت للإمام الغائب نفسه مواقف في اجتماعات مغلقة، من شأنها أن تنذر المقاومة الفلسطينيّة وحلفاءها بخطر الرجل عليهم، ففي اجتماع قمّة عرمون المنعقد في ١٣ أيار (مايو) ١٩٧٦، قال الإمام الصدر موجّهًا كلامه لعرفات:

"... الملاحظ أنّ تطور الأحداث يقرّب بين المقاومة الفلسطينية والأحزاب، وهذا يدعونا للمرارة والقلق، وأنا أعرف "أبو عمار" المؤمن المجاهد، وإنّ قاعدة القدس هي الإيمان، القدس لا يمكن أن يقبل بالشيوعيّة، وأنت ضمان للمؤمنين، فعندما يقال إنّ هناك تحالفًا، لا يمكن أن يُفصل، بين المقاومة والأحزاب وبين الشيوعيّين، كلّ القوى الوطنيّة في الساحة مرتبطة بالقيادة، نشاهد إبّان المعركة أنّ التلاحم يتعاظم بين المقاومة والحركة الوطنيّة، فكيف نعقد قمّة إسلاميّة والواجهة السياسيّة هي الأحزاب؟ اليوم نحن نشعر أنّ هذه المسؤوليّة الأساسيّة لإيماننا ولصيانة عقائد أبنائنا تجعلنا نشعر بقلق إزاء المستقبل، الجماعة (يقصد الأحزاب) كانوا يريدون امتيازات وأخذوها"... وختم الإمام كلامه لرئيس المقاومة الفلسطينيّة بتهديد مهذّب إذ قال: "ليس للمقاومة

---

١ - راجع: "الحوادث" العدد ١١٦٢، الجمعة ٥ شباط (فبراير) ١٩٧٩، ص٦.

الفلسطينيّة من ترس يدفع عنها البلاء إلاّ المؤمنين في هذا البلد، إذا انتقل الأمر إلى أيدي الشيوعيّين وغير المؤمنين فستكون كارثة"[1]...

لم يظهر من ياسر عرفات، خلال ذلك الاجتماع، ما من شأنه أن يشكل توافقًا بين الامام الصدر وبينه، بل ادّعى عرفات بأنّ "الأحزاب لم تحصل على شيء" بعكس ما قاله الإمام. وردّ عرفات كذلك بكلمة مبطّنة من شأنها أن تفيد عن عدم استعداده للتخلّي عن تحالفه مع الأحزاب إذ قال: "أنا لست طائفيًّا... ولكن أعرف أنّ المسلمين وقفوا معنا"[2]...

إلاّ أنّ ما تجدر الإشارة إليه هنا، أنّه بعد يومَين على هذا اللقاء، حضر رئيس الوزراء الليبيّ عبد السلام جلّود إلى عرمون في محاولة لتوحيد مواقف المسلمين واليساريّين والسوريّين، فحضر الإجتماع كلّ من شيخ عقل الدروز محمّد أبو شقرا، ومفتي الجمهوريّة الشيخ حسن خالد، والرئيسان رشيد كرمي وعبد اللّه اليافي، وأبو أياد، بالإضافة إلى ياسر عرفات وعبد السلام جلّود. أمّا الإِمام موسى الصدر فتغيّب عن هذا الإجتماع، وقد كان لهذا التغيّب عن اجتماع قمّة عرمون برئيس وزراء ليبيا، تفسيرات شتّى، إلاّ أنّ التساؤلات لم تطل، إذ كان في كلام جلّود بخصوص الشيوعيّين واليساريّين ما يناقض موقف الإمام، فجاء التفسير واضحًا.

فعندما قال سماحة المفتي خالد أنّ "القوى الوطنيّة انشرخت لأنّ الأحزاب طرحت أفكارًا تناقض مبادئنا، وكنا نحذّر من ذلك"، ردّ جلّود: "القوى اليساريّة والشيوعيّة يستفيد منها المسلمون... أنا ضدّ الشيوعيّة، فنحن تقدميّون اشتراكيّون نلتزم بإسلامنا،

---

١ ـ خالد الشيخ حسن، مفتي الجمهوريّة اللبنانيّة، المسلمون في لبنان والحرب الأهليّة، دار الكندي (بيروت،١٩٧٨) ص٢٧٤ ـ ٢٧٥.

٢ ـ المرجع السابق.

لكن اضطررنا عندما وجدنا الشيوعيّين يتصدّون للانعزاليّين أن نساعدهم وندعمهم"[1]...

وبعد أيّام قليلة، وبنتيجة جهود جلّود، عُقد اجتماع بين مفتي الجمهوريّة سماحة الشيخ حسن خالد وزعيم اليسار كمال جنبلاط، فقال جنبلاط لخالد: "جرّب موسى الصدر أن يلعب... رغم هذا الشيء، جمّدنا الشيعة في الخطّ الوطنيّ"[2]...

وكانت قمّة عرمون نفسها قد شهدت خلافًا أساسيًّا بين الإمام الصدر وكمال جنبلاط في الثلاثين من كانون الثاني (ينـاير) ١٩٧٦، أي قبل أشهر قليلة من تاريخ قدوم جلّود إلى لبنان.

يومها، كانت القمّة منعقدة بحضور وفد سوريّ برئاسة عبد الحليم خدّام، نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجيّة. وفي خلالها عرض جنبلاط مطالبه أمام خدّام بقوله: "هناك مطالب هامّة لا بدّ من إقرارها، وهي أوّلاً إلغاء المذهبيّة عن تذكرة الهويّة، والإنتخابات على أساس القاعدة النسبيّة، وفصل الوزارة عن النيابة ما عدا رئيس الحكومة"... فقاطع الإمام الصدر جنبلاط بقوله: "من حيث إلغاء المذهبيّة، بدنا نرجع لقواعدنا، ونتشاور معها فنحن ما منقدر نقول شيء الآن"[3].

وقد يكون أوضح موقف للامام الغائب من الشيوعيّة واليسار، إعلانه عن أنّ "الشيعة قد خرجت من المحنة منتصرة بانتصار لبنان الواحد، وبعدم نجاح منطق التصنيف بين الناس ولا السعي لتحويل لبنان كلّه أو بعضه إلى دولة شيوعية"[4].

---

١ ـ المرجع السابق، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

٢ ـ المرجع السابق، ص٢٨٧.

٣ ـ المرجع السابق، ص٢٢٦.

٤ ـ جريدة الأنوار، عد ٧٦/١٢/٢٧؛ راجع: نصر ج. أ.، محنة لبنان في ثورة اليسار، دار العمل (بيروت،١٩٧٧) ص ٨٣ ـ ٨٤.

بغياب الإمام الصدر، تضعضعت الإستراتيجيّة الشيعيّة في لبنان، ولو إلى حين. وقد لا يكون من مجرّد المصادفات أن يختفي الإمام الصدر قبل انتصار ثورة الخميني بوقت قصير، وقد لا يكون من المصادفات أيضًا أن تكون القوّة التي اصطدم بها الإمام الإيرانيّ بعد نجاح ثورته، هي نفسها القوّة التي اصطدم بها الإمام اللبنانيّ قبل غيابه، والربط بين إيران ولبنان، وآية الله والإمام، والغيبة وما قبل الغيبة، أمر لا بدّ منه بالنسبة للباحث عن حلّ الألغاز. والقوّة التي كان يتمتّع بها الإمام، والشخصيّة القياديّة التي كانت للسيّد، كان يفتقر لمثلها سائر زعماء الشيعة في لبنان. واستمرّت المؤامرة، مؤامرة توطين الفلسطينيّين على أرض الشيعة، في جنوب لبنان.

لقد كان من أهمّ إنجازات الإمام الصدر قبل غيابه، تأسيسه لحركة "أمل". إذ سرعان ما تمكّنت هذه الحركة من تنظيم صفوفها بغياب الإمام، ومن أن تحافظ على وجودها الفعّال في المعادلة السياسيّة والعسكريّة اللبنانيّة، وخاصّة بعد الاجتياح الإسرائيليّ لبيروت سنة ١٩٨٢، إذ بعد التحرير، وجدت "أمل" نفسها سيّدة الساحة الإسلاميّة لأنّها أقوى قوّة عسكريّة إسلاميّة على هذه الساحة. وهذا ما أطلق يدها وأعطاها حجمًا جديدًا ودورًا فعّالاً وثقلاً مميّزًا في ميزان القوى على الساحة اللبنانيّة [1]. ثمّ جاء تأسيس "حزب الله" بدعم من الدولة الإيرانيّة ليعطي الشيعة في لبنان دفعًا جديدًا من حيث الوجود السياسيّ والعسكريّ والإجتماعيّ. وقد كان لأعمال المقاومة التي قام بها هذا الحزب في جنوب لبنان، ببعض المشاركة من حركة أمل، وبدعم الجيش اللبنانيّ، الفضل في تحقيق أوّل انتصار عربيّ على العدوّ الإسرائيليّ من خلال نجاح المقاومة في تحرير جنوب لبنان من الإحتلال الإسرائيليّ في ربيع العام ٢٠٠٠.

---

١ ـ خليفة، الشيعة في لبنان، ص٢٦.

في الزَّمَن المُعَاصِر

جهادُ الشيعَة في القرنِ العشرين؛

في إيران؛ في العراق؛

في باكستان؛

المَفهُومُ حَولَ الشّيعَة اليوم؛

التوزُّع الشيعِيّ في عَالَم اليَوم.



جهادُ الشيعَة في القرنِ العشرين

في خلال القرن المنصرم، وتحديدًا إبتداء من العقد الأخير للقرن التاسع عشر، شكّل للشيعة عنصرًا فعّالاً في المعادلة السياسيّة والوطنيّة حيثما وُجدوا بكثافة. ويمكن وصف هذه الحقبة من التاريخ بحقبة النهضة الشيعيّة التي لم تكتمل فصولها بعد.

في أفغانستان

في أفغانستان، برز العلاّمة الإسلاميّ جمال الدين الحسينيّ الأسد آبادي الأفغانيّ (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧) الكاتب والخطيب والمصلح الدينيّ والاجتماعيّ والسياسيّ، صاحب الخطرات الفلسفيّة. وُلد في أسعدأباد الأفغانيّة وجال في الشرق والغرب فأحرز ثقافة واسعة. إشتهر بطلاقته في الخطابة، ودعا إلى الوحدة الإسلاميّة وإلى تحرّر الأمم الإسلاميّة من الإستعمار والتدخّل الأجنبيّ، وذلك باتّحادها وإقامة حياتها السياسيّة والإجتماعيّة على نظم دستوريّة. أقام دعوته على دعائم مستمدّة من فكرته عن الجامعة الإسلاميّة التي أخذ يدعو إليها في مختلف البلاد الإسلاميّة، ويبيّن حقيقتها لدى كثير من الأمم الغربيّة. إتّخذ من بيته في القاهرة ملتقى لتلاميذه ومريديه، فاستطاع بدروسه في الدين والفلسفة والأخلاق والاجتماع والسياسة، وبمقالاته في الصحف والدوريّات، أن يثير الشعور الوطنيّ ويحيي الشعور الدينيّ في قلوب المسلمين. وأصدر صحيفة

"العروة الوثقى" مع تلاميذه وصديقه الإمام محمّد عبده. وكتب المقالات في مجلّة "ضياء الخافقين" التي اشترك في تحريرها، وكانت تصدر بالعربيّة والإنكليزيّة. شجّع الشباب على الكتابة وإصدار الصحف ومنهم أديب إسحاق الذي أنشأ جريدة "مصر" وجريدة "التجارة". وفي سنة ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م، قام بحركة إصلاح دينيّ طبعت عصره. ترك من المؤلّفات "إبطال مذهب الدهريّين وبيان مفاسدها" الذي نقله الشيخ محمّد عبده من الفارسيّة إلى العربيّة. وكتاب "تتمّة البيان" وهو مختصر في "تاريخ الأفغان"[١]. وبين ١٩٧٩ و١٩٨٩، برز تصاعد حالة المواجهة المسلّحة لمسلمي أفغانستان ضدّ الإحتلال العسكريّ السوفياتيّ والنظام الشيوعيّ في كابول، ومن ثمّ تحقّق الانتصار الإسلاميّ على أيدي الثوّار المجاهدين المسلمين شيعة وسنّة[٢].

في إيران

وفي إيران، قامت "حركة التنباك" سنة ١٣٠٩ ـ ١٣١٢هـ / ١٨٩٢ ـ ١٨٩٥م على يد الإمام المجدّد المرجع الدينيّ الأعلى آية اللّه العظمى السيّد محمّد حسن الحسينيّ الشيرازيّ[٣]، الذي أصدر فتوى تحريمه، وأدّت الحركة إلى إبطال الإتّفاقيّة التجاريّة بين دولة إيران ودولة بريطانيا. وفي سنة ١٣٢٢ ـ ١٣٢٥هـ / ١٩٠٥ ـ ١٩٠٨م، قامت حركة الدستور في إيران بقيادة المرجعيّة الدينيّة في إيران

---

١ ـ الموسويّ السيّد عبد الرسول، الشيعة في التاريخ، مكتبة مدبولي (القاهرة، ٢٠٠٢) ص ٣٤٩؛ المنجد في الأعلام، ص٥٤ ـ ٥٥؛ الموسوعة العربيّة الميسّرة، ص٢٤٦ ـ ٢٤٧.

٢ ـ الموسويّ، الشيعة في التاريخ، مرجع سابق.

٣ ـ **محمّد حسن الشيرازي** (١٨١٤ ـ ١٨٩٥): فقيه شيعيّ وُلد في شيراز وتوفّي بسامرّاء، درس في شيراز وأصفهان والنجف ثمّ سكن سامرّاء، مرجع الشيعة في عصره، أفتى بتحريم التدخين حين أعطى ناصر الدين شاه إمتياز حصر التبغ في إيران لشركة إنكليزيّة بشروط مجحفة فامتنع الناس عن التدخين ممّا اضطرّ الشركة للتنازل عن الامتياز.

والعراق. وفي العام ١٩٦٣ حدثت انتفاضة "خرداد" في إيـران بقيـادة الإمـام الخمينــيّ. وفي سنة ١٩٧٩، تفجّرت الثورة الشعبيّة الإسلاميّة في إيران بقيادة مراجع المسلمين، ونجحت في الإطاحة بنظام الحكم الشاهنشاهي، وعودة الإمـام روح اللّـه الخمينـي إلـى إيران من منفاه في باريس، وقيادته للأمّة الإيرانيّة، وجعلها دولة ذات نظـام جمهـوريّ وولاية فقيه. وعند وفاة الإمـام روح اللّـه الخمينـي مؤسّس الجمهوريّـة الإسـلاميّة فـي إيـران سـنة ١٩٨٩، بقـي جثمانـه ثلاثـة أيّـام فـي بـرّادة كهربائيّـة أمــام الملاييــن مــن المحتشدين لتشييعه، وبعد ثلاثة أيّام قاموا بتشييعه إلى مثواه الأخير خلـف مقبرة جنّـة الزهراء في طهران، ومرقده اليوم شاهد للعيان، له قبّـة وأربعـة مـآذن، يـزوره الكثير من مواليه وأنصاره وعشّاق ثورته[١].

في العراق

في العراق، قـامت فـي الخـامس عشـر مـن شـعبان سـنة ١٩٢٠ "ثـورة العشـرين" الإسلاميّة ضدّ سلطات الانتداب البريطانيّ بقيـادة علمـاء الديـن، وعلـى رأسـهم الإمـام المجـاهد المرجـع الدينــيّ الأعلـى آيـة اللّـه العظمـى الحـاج الشـيخ مـيرزا محمّــد تقــيّ الشيرازي[٢]، بعد أن أصدر فتوى الجهاد ضدّ الاسـتعمار البريطـانيّ. وفـي ربيـع الأوّل ١٣٨١هـ / ١٩٦١م، أعلنت الثورة الثقافيّة في كربلاء المقدّسـة مـن قِبَـل سـماحة فخـر الطائفة الشيعيّة الإمام المرجع آية اللّه العظمى الحاج السيّد محمّد الحسيني الشـيرازيّ، الـذي أصـدر العشـرات مـن المجـلاّت الإسـلاميّة والنشـرات الثقافيّـة والكتــب الهادفــة

---

١ ـ الموسويّ، الشيعة في التاريخ، مرجع سابق.

٢ ـ **محمّد تقي الدين الشيرازي** (ت١٩٢٠): فقيه شيعيّ، مرجع الشيعة في عصره، أفتى بقيام الثورة العراقيّـة علـى الإنكليز، لـه شـعر بالفارسيّة.

للتوعويّة وتوزيعها على صعيد القطر العراقيّ والعالم. ومن تلك المجلاّت: "سلسلة منابع الثقافة الإسلاميّة"، "أجوبة المسائل الدينيّة"، "القرآن يهدي"، "الأخلاق والآداب"، "ذكريات المعصومين"، "صوت العترة"، "صوت المبلّغين"، "صوت شباب التوحيد"، "مبادئ الإسلام" بالإنكليزيّة، سلسلة "إعرف الشيعة" في عدّة لغات كالعربيّة والتركيّة والإنكليزيّة والأرديّة. وقد ألّف سماحته "موسوعة الفقه"، وهي أكبر موسوعة فقهيّة استدلاليّة في عالم الإسلام تقع في أكثر من ١٣٠ مجلّدًا طُبعت في إيران وبيروت، ناهيك عن الكثير من الكتب والدراسات والبحوث الفقهيّة والفكريّة الواعية التي تجاوزت المئات من رشحات قلم هذا المرجع الكبير. وفي سنة ١٩٧٧، حدثت انتفاضة العشرين من صفر الشيعيّة للمواكب العزائيّة ضدّ نظام الحزب الحاكم في عراق العتبات المقدّسة. وفي سنة ١٩٨٠، قام النظام الفاشستيّ في العراق الإسلاميّ بإعدام المفكّر الإسلاميّ الكبير والمرجع الدينيّ الإمام المجاهد آية اللّه العظمى السيّد محمّد باقر الصدر، وأخته العلويّة الفاضلة المجاهدة آمنة الصدر (بنت الهدى). ولقد كان الشهيد الصدر واحدًا من أهمّ قادة الفكر الإسلاميّ ورموز الحركة الإسلاميّة في العراق والعالم حيث رفد الفكر الإسلاميّ وأغنى مكتبتها بالكثير من إنتاجاته الفكريّة والقلميّة، ومن أهمّ ما كتب المرجع الشهيد في مجمل حياته: " إقتصادنا"، "فلسفتنا"، "البنك اللاربوي"، وفي حقل أصول الفقه، خرج له دروس في علم الأصول وغيرها، وقدّمت شقيقته الشهيدة مجموعة من الكتب الهادفة على صعيد الثقافة النسويّة. وفي العام ١٩٨٠ قامت مجموعة من جماعة النظام البعثيّ في العراق باغتيال الإمام المجاهد آية اللّه السيّد حسن الشيرازي في بيروت، وهو شقيق الإمام المرجع آية اللّه العظمى الحاج السيّد محمّد الحسيني الشيرازيّ، ومؤسّس الحوزة العلميّة الإسلاميّة في جوار مرقد السيّدة زينب الكبرى في سوريا، وأحد أبرز قادة الفكر الإسلاميّ في

العالم، حيث كان يمضي للمشاركة في مجلس الفاتحة الذي أقامه تكريمًا لشهادة الإمام السيّد محمّد باقر الصدر وأخته العلويّة بنت الهدى في مدرسة الإمام المهدي الدينيّة في بيروت، إلاّ أنّه، وقبل وصوله إلى مجلس الفاتحة، أردته رصاصات الغدر قتيلاً ونال درجة الشهادة في سبيل المبدأ الحقّ وحلّقت روحه الطاهرة إلى جوار أجداده الطاهرين. رفد المكتبة الإسلاميّة بمجموعة من المؤلّفات والدراسات خرج منها من "موسوعة الكلمة": كلمة اللّه، كلمة الإسلام، كلمة الرسول الأعظم، كلمة الإمام الحسن، كلمة الإمام المهديّ، الشعائر الحسينيّة، العمل الأدبيّ، الأدب الموجّه وغيرها. وفي الخامس عشر من شعبان ١٤١١هـ / ١٩٩١م، حدثت انتفاضة ضدّ النظام في العراق، وكاد النصر يكون من نصيب الثائرين لولا ضخامة الحشود العسكريّة الحكوميّة، التي نجحت في قمع الانتفاضة في ما بعد، والتجاوز على حرمة الأعتاب المقدّسة في كربلاء والنجف، بموافقة الغرب. وفي العام ١٩٩٨، جرى إغتيال الشيخ الشهيد مرتضى البروجردي على أيدي جماعة البعث، وهو أحد كبار مجتهدي النجف الأشرف من تلامذة الإمام الخوئيّ. وفي العام نفسه، اغتيل آية اللّه الميرزا علي الغروي أحد كبار مراجع التقليد الشيعة في النجف الأشرف على يد النظام العراقيّ وذلك في ليلة الجمعة ٢٣ صفر ١٤١٩هـ وهو في طريقه لزيارة الإمام الحسين عليه السلام. وفي العام ١٩٩٩، إستشهد آية اللّه العظمى المرجع الدينيّ السيّد محمّد صادق الصدر ونجلاه السيّد موئل الصدر والسيّد مصطفى الصدر على أيدي جماعة البعث في العراق، وبتحريض من جهات مرموزة، وباستشهاد هذا المرجع وولدَيه قدّمت أسرة آل الصدر العلميّة خمسة شهداء في سبيل اللّه[١].

---

١ ـ الموسويّ، الشيعة في التاريخ، مرجع سابق.

في باكستان

كذلك في الشرق الأقصى أُسّست جمهوريّة باكستان الإسلاميّة سنة ١٩٤٧ على يد "القائد الأعظم" المسلم الشيعيّ المحامي محمّد علي جناح، الذي أعلن استقلال باكستان عن الهند وجعلها دولة خاصّة بالمسلمين الهنود، بعد جهاد مرير دام سنوات عديدة قضاها بمواجهة الإستعمار البريطانيّ من جهة، ومعوقات الطائفة الهندوسيّة من جهة أخرى. وكان محمّد علي جناح يرأس حزب "مسلم ليك" الذي كان أحد أركان هيئته التأسيسيّة. ولأجل ذلك فقد منح الشعب الباكستانيّ لقب "القائد الأعظم" و"أبو الباكستان" لمحمّد علي جناح، واختير يوم الخامس والعشرين من شهر كانون الأوّل (ديسمبر) ذكرى ميلاد القائد الأعظم يومًا وطنيًّا للشعب الباكستانيّ. توفّي محمّد علي جناح في ٢١ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٧.[١]

المَفهُومُ حَولَ الشّيعَةِ اليَوم

يقول باحث معاصر[٢]: "إنّ الباحث في تاريخ وعقائد المذهب الشيعيّ "الإثني عشريّ"، ممتحن أشقّ الإمتحان وأعسره، لا لأنّ أتباع هذا المذهب المعاصرين يشكّلون السواد الأعظم من الشيعة في العالم الإسلاميّ فحسب، بل لكون الشيعة "الإثني عشريّة" أكثر تعرّضًا للافتراءات، لذلك يعترض الباحث عن حقيقة تعاليم هذا

---

١ ـ الموسويّ، الشيعة في التاريخ، مرجع سابق.

٢ ـ إسماعيل د. محمود، فرق الشيعة بين التفكير السياسيّ والنفي الدينيّ، سينا للنشر (القاهرة،١٩٩٥) ص٩٣.

المذهب وتاريخه عدد من الإشكاليّات، منها ما هو قاسم مشترك بين أحزاب المعارضة في الإسلام عمومًا والشيعة خصوصًا، ومنها ما يتعلّق بالمذهب الشيعيّ "الإثني عشريّ" على نحو فريد". وينبّه الباحث نفسه إلى أنّ "نشأة المذهب الشيعيّ الإثني عشريّ وتطوّره ارتبطا بالعصرَين الأمويّ والعبّاسيّ، ومعلوم أنّ الإثني عشريّة ناصبوا الأمويّين والعبّاسيّين العداء، لذلك تحامل عليهم بعض المؤرّخين إلى حدّ وصمهم بأنّهم "رافضة" و"غلاة"[1]، بينما الواقع أنّ "الإثني عشريّة" كانوا أكثر فرق الشيعة اعتدالاً، إلى حدّ أنّ أحد شيوخ الأزهر المعاصرين اعتبر هذا المذهب مذهبًا سنيًّا خامسًا"[2].

فقد أصدر شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمود شلتوت الفتوى التالي نصّها:

١ ـ إنّ الإسلام لا يوجب على أحد من أتباعه اتّباع مذهب معيّن بل نقول: إنّ لكلّ مسلم الحقّ في أن يقلّد بادئ ذي بدء أيّ مذهب من المذاهب المنقولة نقلاً صحيحًا والمدوّنة أحكامها في كتبها الخاصّة ولمن قلّد مذهبًا من هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره ـ أيّ مذهب كان ـ ولا حرج عليه في شيء من ذلك

٢ ـ إنّ مذهب الجعفريّة المعروف بمذهب الشيعة الإماميّة الإثني عشريّة مذهب يجوز التعبّد به شرعًا كسائر مذاهب أهل السنّة.

فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك، وأن يتخلّصوا من العصبيّة بغير الحقّ لمذاهب معيّنة، فما كان دين الله وما كانت شريعته بتابعة لمذهب، أو مقصورة على مذهب، فالكلّ مجتهدون مقبولون عند الله تعالى يجوز لمن ليس أهلا للنظر والاجتهاد تقليدهم والعمل بما يقرّونه في فقههم، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات[3].

---

١ ـ راجع: إلهي ظهير إحسان، الشيعة والتشيّع (لاهور،١٩٨٤) ص٢٧٠.

٢ ـ إسماعيل، فرق الشيعة، ص٩٤.

٣ ـ الورداني صالح، الشيعة في مصر من الإمام عليّ حتّى الإمام الخميني، مكتبة مدبولي الصغير (القاهرة،١٩٩٣) ص١٩٠ ـ ١٩١.

قد يكون في هذا الإعتبار لشيخ الأزهر أوضح برهان على ضلال الذين حاولوا إلحاق بعض الاتّهامات الباطلة بالشيعة "الإثني عشريّة" عبر التاريخ. وبإمكان الباحث الذي يطالع التحقيق الواضح والصريح الذي عرضناه في هذا الكتاب وفي الجزء الذي يسبقه، أن يتبيّن وضوح المعتقد الشيعيّ "الإثني عشريّ" الخالي من البدع. لذلك لا يجوز تسمية الشيعة "الإثني عشريّة" بالـ"الفرقة" أو"الحزب" أو ما شابه، بل هي مذهب إسلاميّ حنيف، مستقيم ليس بوسع المدقّق أن يتلمّس فيه أدنى أثر لأيّ بدعة أو ما شابه.

قد يكون الشيخ الباقوري[1] أفضل مَنْ عبّر عن واقع الحال حول الخلاف بين أهل السنّة وأهل الشيعة من الناحية المبدئيّة إذ قال: الخلاف بين السنيّين والشيعيّين خلاف يقوم أكثره على غير علم، حيث لم يتح لجمهور الفريقَين إطّلاع كلّ فريق على ما عند الفريق الآخر من آراء وحجج. وإذاعة فقه الشيعة بين جمهور السنيّين وإذاعة فقه السنيّين بين جمهور الشيعة من أقوى الأسباب وأأكدها لإزالة الخلاف بينهما. فإن كان ثمّة خلاف فإنّه يقوم بعد هذا على رأي له احترامه وقيمته[2].

وفي المعنى نفسه، يقول الشيخ عبد الوهّاب عبد اللطيف المدرّس بالأزهر: الفقه الإسلاميّ لكلّ المكلفين شريعة واحدة يتعبّد بها أهل الأمصار على اختلاف الأنظار، فيا حبّذا لو تبادل الشيعة وأهل السنّة ما عندهم من العلم حتّى إذا امتزج البحران ظهر منهما اللؤلؤ والمرجان[3]. كما يقول الشيخ عبد الرحمن النجّار: الشيعة لهم اجتهادات طيّبة في الفقه، ولا أدري لماذا يتغافل المسلمون السنيّون عنها أو يهملونها.

---

١ ـ راجع: الورداني، الشيعة، مرجع سابق، ص١٥٨.

٢ ـ الورداني، الشيعة، مرجع سابق، ص١٥٨، عن مقدّمة كتاب: المختصر النافع في فقه الإماميّة (القاهرة).

٣ ـ الورداني، الشيعة، مرجع سابق، ص١٥٨، عن: الرضوي السيّد مرتضى، في سبيل الوحدة الإسلاميّة (طهران).

مع أنّ الكثير منها يحقّق التفاعل مع المجتمع في عصرنا الحديث.

كانت دعوة التقريب بين السنّة والشيعة "الإثني عشريّة" قد بدأت في مصر سنة ١٩٤٦، وقد دعمتها جماعة الإخوان في ذلك الوقت بقيادة حسن البنّا، وتبنّاها الكثير من رجال الأزهر الذين ارتبطوا بعلاقات وثيقة مع كثير من علماء الشيعة، ومن علماء الأزهر ورجاله الذين ارتبطوا بدعوة التقريب الشيخ محمود شلتوت والشيخ عبد المجيد سليم والشيخ الشرياصي والشيخ الفحّام والشيخ محمّد المدني الذي تولّى منصب أمين عام جماعة التقريب بين المذاهب الإسلاميّة. ومن علماء الشيعة الذين ساهموا في هذه الجماعة وارتبطوا بعلاقات مع رجال الأزهر والدعاة البارزين في حقل دعوة التقريب بمصر الشيخ محمّد تقيّ الدين القمّي صاحب الدعوة وراعيها في مصر، وهو من إيران، والشيخ محمّد جواد مغنيّة إمام القضاء الشرعيّ الجعفريّ في لبنان، والشيخ محمّد حسين آل كاشف الغطاء من علماء العراق، والسيّد مرتضى الرضوي الذي التقى بمعظم رجالات الفكر في القاهرة، والسيّد طالب الحسيني الرفاعي مؤسّس جمعيّة آل البيت في مصر وهو من علماء العراق. ولم يكن من أهداف تلك الدعوة أن يترك السنيّ مذهبه أو يترك الشيعيّ مذهبه، كما عبّر الشيخ المدني، وإنّما كانت تهدف إلى أن يتّحد الجميع حول الأصول المتّفق عليها، ويعذر بعضهم بعضًا في ما وراء ذلك ممّا ليس شرطًا من شروط الإيمان ولا ركنًا من أركان الإسلام، ولا إنكارًا لما هو معلوم من الدين بالضرورة[1].

بالرغم ممّا لاقته دعوة التقريب من مناهضة من قِبَل بعض المتزمّتين الذين تحوّلت ثقافتهم الإسلاميّة من عامّة جامعة إلى مذهبيّة ضيّقة، ومن قوميّة شائعة إلى

---

١ ـ الورداني، الشيعة، مرجع سابق، ص١٥٣ ـ ١٥٤؛ دعوة التقريب من خلال رسالة الإسلام، منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة (القاهرة،١٩٦٦).

طائفيّة محدودة، فقد استمرّت جماعة التقريب تعمل في مصر حتّى أواخر سبعينات القرن العشرين وتمكّنت من استقطاب الكثير من الرموز الإسلاميّة البارزة وعلى رأسها الشيخ محمّد متولّي الشعراوي. وقد عبّر الشيخ محمّد حسين آل كاشف الغطاء في مجال حديثه عن جماعة التقريب، عن الواقع الأليم الذي يواجهه المسلمون في هذا المجال بقوله: جماعة التقريب تريد أن تقرّب بين الطوائف الإسلاميّة وتبعثهم وتحثّهم على الأخوّة والوحدة التي أمرهم بها الله في كتابه العزيز، ولكن يلزمهم ويلزمنا، تمهيدًا لهذه الغاية الشريفة، أن ينصحوا لإخوانهم من الكتّاب وحملة الأقلام ألاّ يتحرّشوا ويطعنوا بإخوانهم الإماميّة، فما يكاد يأتي عام إلاّ ونسمع أو نرى كتابًا أو رسالة ترمي الشيعة بالفظائع وتتهجّم عليهم بالمطاعن، وبحكم الضرورة يلتجئ هؤلاء إلى الدفاع عن أنفسهم فتثور الأحقاد وتستعر الحفائظ وتكون أكبر خدمة للأعداء والمستعمرين. كما أنّ اللازم على كلّ فرقة من المسلمين من الشيعة وغيرهم أن يوصدوا باب المجادلات المذهبيّة وما يثير الحفائظ والعصبيّة فإنّها إن لم تكن محرّمة بنفسها ومضرّة بذاتها، فهي من أعظم المحرّمات في هذه الظروف التي أحاط بنا فيها الأعداء. أعداء الإسلام من كلّ جانب ومكان حتّى من المسلمين ومدّعي الإسلام العدوّ الداخليّ الذي ضرره أعظم من العدوّ الخارجيّ. فهل في هذه كفاية وبلاغ أيّها المسلمون[١]؟

وكانت حقبة السبعينات ساخنة فكريًّا ولم تكن الساحة متسامحة فكريًّا وعقائديًّا في مواجهة أيّ دعوة تتّصل من بعيد أو قريب بالشيعة. إذ كانت قد برزت على الساحة تيّارات إسلاميّة متشدّدة، فتعرّضت جماعة التقريب لبيانات تنديد وتشكيك. وعندما قامت الثورة الإسلاميّة في إيران توقّف نشاط الجماعة وتوقّفت مجلّة "رسالة السلام"

١ ـ الورداني، الشيعة، مرجع سابق، ص١٥٥؛ دعوة التقريب، مرجع سابق.

التي كانت تصدرها والتي كانت تنشر الكثير من المقالات لعلمـاء مـن السنّة والشيعة. كما توقّفت جمعيّة آل البيت وسائر الأنشطة الشيعيّة الأخرى فـي مصـر. والغريـب أنّ الأزهر الذي كان متحالفًا مـع دعـوة التقريـب ومتعاطفًا مـع الشيعة انقلـب فجـأة علـى الشيعة وإيران بعد قيام الثورة، سيرًا مع سياسة الحكومـة المناهضـة لإيـران. وبـالرغم من بروز تضييق على الكتـاب الشيعيّ فـي مصـر منـذ ذلـك الحيـن، فقد بقيـت هنـاك أصوات تنادي بـالتقريب وتحـاول إنصـاف الشيعة مـن العلمـاء والدعـاة، وفـي مقدّمـة هؤلاء الشيخ محمّد الغزالـي الـذي يقـول: نعـم أنـا كنـت مـن المعنيّيـن بـالتقريب بيـن المذاهـب الإسـلاميّة وكـان لـي عمـل دؤوب ومتّصـل فـي دار التقريـب فـي القـاهرة وصادقت الشيخ محمّد تقي القمّي كما صادقت الشيخ محمّد جـواد مغنيّـة ولـي أصدقـاء من العلماء والأكابر من علماء الشيعة. وأنا أريد فعلا أن تذهب الجفوة أو الشقاق الـذي شاع بين المسلمين خصوصًا في أيّام اضمحلالهم الفعليّ[1].

وفي هذا المجال، يقول الدكتـور علـي عبـد الواحـد وافـي عميـد كليّـة التربيـة فـي جامعة الأزهر في كتابه "بين الشيعة وأهـل السنّة": ...وإنّمـا الغـرض مـن تـأليف هـذا الكتاب، التقريب بين طوائف أهل السنّة وطوائف الشيعة الجعفريّة، وبيـان أنّ الخـلاف بينهما خلاف اجتهاديّ يسمح به الإسلام، بل يرحّب به، ولا يصحّ أن يدعو إلى قطيعـة ولا إلى تنافر.

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الراحل: إنّ الأزهـر لا يحمـل إلـى إخواننا الإماميّة وإلى إخواننا الزيديّة إلاّ كلّ ودّ. ونحـن الآن فـي دور ندعـو فيـه إلـى الوحدة والأخوّة[2].

---

١ ـ الورداني، الشيعة، مرجع سابق، ص١٥٥؛ مجلّة "الطليعة الإسلاميّة"، عدد ١٩٨٥/٣/٢٦.

٢ ـ الورداني، الشيعة، مرجع سابق، ص١٥٨، عن: الرضوي، في سبيل الوحدة الإسلاميّة، مرجع سابق.

ويقول الشيخ الفحّام شيخ الأزهر الراحل: المعروف أنّ المسلم هو كلّ مَن شهد أن لا إله إلاّ اللــه وأنّ محمّدًا رسـول اللـه، ولا يخرجـه مـن إسـلامه تمسّكه بمذهـب مـن المذاهب، وقد استفدت وأفدت من زياراتي لكلّ البلاد الإسـلاميّة اسـتعداد الجميـع لهـذا التقارب[1].

وفي نهاية هذا التوضيـح، يمكـن اختصـار المفهـوم الواعـي العـامّ والمجـرّد للفكـر الشيعي "الإثني عشري" من قِبَل أئمّة الباحثين، بأنّ هذا الفكر في نشأته وتطـوّره، جـاء تعبيرًا عن جدليّة العلاقة بيـن الفكـر والواقـع، وأنّ فتـح بـاب الاجتهـاد لفقهـاء المذهـب أعطى مرونة وزخمًا للتعديل والتطوير وفـق مقتضـى الحـال[2]. هـذا مـن جـانب، ومـن جانب آخر، لا نرى مبرّرًا أو مسوّغًا للتحامل على المذهـب "الإثنـي عشـري" واتّهامـه بالغلوّ، خصوصًا وأنّه من أكثر مذاهب الشيعة اعتدالا وأقربها إلى مذهب أهل السـنّة[3]. وما وُجد بين المذهبين من اختلاف، باستثناء مسألة الإمامة، إنّما هـو رسـوم وشـكليّات محض، تمسّ أبواب العبادات والمعاملات، وكلّهـا لا تتعـارض مـع الأصـول[4]، بـل لا تتجاوز ما هو معروف من خلاف بيـن المالكيّـة والأحنـاف. أكثـر مـن ذلـك فـإنّ الفقـه "الإثنا عشري" في جوهره أقرب مـا يكـون إلـى فقـه الشـافعي، وإذا كـان هنـاك بعـض اختلافـات جوهريّـة محـدودة فهـي نتـاج ظـروف سياسـيّة عصبيّـة ومحـن حلّـت بأئمّـة المذهب وأتباعه على أيدي الحكومات السنيّة[5]. وهذه الاختلافـات يمكـن التمـاس حلـول

---

١ ـ المرجع السابق.

٢ ـ إسماعيل، فرق الشيعة، ص١٠٥، عن: بطروشوفسكي، الإسلام في إيران، الترجمة العربيّة (القاهرة،١٩٨٢) ص٢٣٢.

٣ ـ المرجع السابق.

٤ ـ إسماعيل، فرق الشيعة، ص١٠٥، عن: جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، الترجمة العربيّة (القاهرة،١٩٥٩) ص٢٢٤.

٥ ـ المرجع السابق.

لها في ضوء مبدإ الاجتهاد الذي تمتاز به الشريعة الإسلاميّة والتي تدخل في إطار ما نسميّه بـ"معطيات الضرورة العمليّة". ألم يفتِ أحد شيوخ المذهب المالكي، وهو أقلّ المذاهب السنيّة الأربعة أخذاً بالاجتهاد، بأنّه "لا غرو في تبعيّة الأحكام والأحوال"؟ إذا جاز ذلك، فقد صحّ ما أفتى به شيخ الأزهر المستنير الشيخ محمود شلتوت بأنّ المذهب "الإثنا عشري" هو المذهب الفقهيّ الخامس عند أهل السنّة[1].

التوزُّع الشيعِيّ
فِي عَالَم اليَوم

يُعتبر أتباع المذهب الشيعيّ "الإثني عشري" أكثريّة الشيعة في العالم. ويشكّل الشيعة اليوم، بمجمل فرقهم، أقليّة نسبة إلى مجموع المسلمين في العالم. وليس بوسعنا أن نتكلّم عن أرقام عدديّة بغياب الإحصاءات الموثوقة[2]. ولكن ما يمكن الإفادة عنه هو أنّ الشيعة موزّعون بأكثريّتهم بين إيران والعراق ولبنان وسوريا وأقطار الخليج العربيّ واليمن وجنوب الجزيرة العربيّة ومصر وباكستان وأفغانستان وسائر البلدان العربيّة والإسلاميّة، وللشيعة أنصار كثر في الهند وسائر بلدان الشرق الأقصى. علمًا بأنّه يندر أن يكون في العالم بلد إسلاميّ يخلو من الشيعة.

وليس في العالم العربيّ اليوم أي كيان سياسيّ شيعيّ مستقلّ، إنّما كيانهم السياسيّ المستقلّ الوحيد، ينحصر في الدولة الإيرانيّة، حيث أضحى هذا المذهب المذهب

---

١ ـ إسماعيل، فرق الشيعة، ص١٠٥.

٢ ـ راجع: إبراهيم د. سعد الدين، المجتمع والدولة في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربيّة (بيروت، ١٩٨٨) ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠؛ السمّاك محمّد، الأقليّات بين العروبة والإسلام، دار العلم للملايين (بيروت،١٩٩٠).

الرسميّ منذ الأسرة الصفويّة (١٥٠١ ـ ١٧٣٥) ولا يزال. أمّا في العالم العربيّ، فلهم مشاركة ملحوظة في السلطة السياسيّة في الدولة اللبنانيّة. وقد أدّت التطوّرات الأخيرة التي جرت في العراق سنة ٢٠٠٣ إلى بروز إمكانيّة إحقاق حقّ الشيعة، الذين يشكّلون أكثر من نصف سكّان العراق، في مشاركتهم الفعّالة في حكم البلاد، بعد أن حُرموا من هذا الحقّ لزمن طويل، رغم أنّهم يشكّلون الأكثريّة، وأنّ لهم في النجف وكربلاء ومدن أخرى من العراق مقامات مقدّسة أساسيّة، ومؤسّسات دينيّة عريقة لطالما شكّلت المرجعيّة العلميّة لهم على مدى التاريخ الوسيط والحديث.

بالنسبة إلى الشيعة، لا يمكن قياس الفاعليّة بالعدد، فلقد كانوا دومًا أقلّيّة، ولكنّهم شكّلوا أبدًا وقود الحركة عبر التاريخ الإسلاميّ العربيّ، سواء كان المحرّك المستهلك لذاك الوقود، منهم، أو من سواهم، ذلك أنّ المهمّ هو بقاء جذوة ثورتهم مشتعلة. فالثورة في تراثهم متلازمة مع الوجود. ومَن يتعمّق في الأصول، لا يسعه أن يتوقّع نهاية للثورة الشيعيّة، وإن كان بوسعه أن يتوقّع لها بعض هدوء من وقت لآخر.

إنّ جماعة كان معتقدها بحقٍّ ما، أصل نشوئها، لا يمكن أن تهدأ تمامًا من غير أن تغيّر الواقع المناهض لِما تراه حقًّا، وإلاّ فقدت مبرّر وجودها. ومتى كان إحقاق ذلك الحقّ شبه مستحيل، فذلك يعني دوام الثورة. أولئك هم الشيعة.






Bibliotheca Alexandrina
0586483